جولة في ربوع الشرق الأدنى
بين مصر وأفغانستان

من مشاهدات سائح مصري

محمد ثابت

جولة في ربوع الشرق الأدنى بين مصر وأفغانستان

من مشاهدات سائح مصري

تأليف
محمد ثابت

هنـــداوي

جولة في ربوع الشرق الأدنى بين مصر وأفغانستان

محمد ثابت

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٤ ٣٠٨٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٤.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

المقدمة	٧
إلى فلسطين الأرض المقدسة	١١
العراق بلاد ما بين النهرين «مسوبو تاميا»	٦٧
هضبة إيران	١٢٥
أفغانستان	١٦٥

المقدمة

كانت جولتي هذا العام في ربوع الشرق الأدنى، تلك الأقطار التي تربطنا بها روابطُ وثَّقتها أواصرُ التاريخ والاجتماع والدِّين، وزادتها رسوخًا صلةُ رحِمٍ قديمة وإخلاص عميق وعطف متبادل تُذكي نارَه رغبةٌ مشتركة في النهوض، وطُموحٌ متأجِّج للخلاص بأوطان مهدَّدة ظلت — ولا تزال — تِئِنُّ تحت أخطاء أبنائها ونَهَم الطامعين فيها.

جبت أرجاءها في جولة عاجلة كانت أجدر بالمقام الطويل والدرس العميق، لكني رغم ذلك قد وقفت من أمرها على الكثير مما يروقنا شأنه ويهمنا خبره. ولقد لمست بعض معاني التأخر الذي طالما عيَّرنا به الغرب حتى أضحى لديهم الشرق مثلًا في التدهور والامتهان، مما كان ينغص علينا عيشنا ويزهِّدنا في الحياة، لكني ألفيت خلال ذلك قبسًا من نور النهوض ترفعه في تلك الظلمات يد قيضها الله لكثير من نواحي هذا الشرق فبدأت تعمل على تبديد ظلم الأجنبي ومحو سيطرته السياسية والمالية، تلك التي كانت ولا تزال تتآمر على إخماد عناصر التقدم فيه ثم تعود فتعيِّره بأنه ناشئ تعوزه الكفاية في القيام بشئون نفسه وتفرض عليه ما ترى من نفوذ وسلطان هو آيل به لا شك إلى زوال القومية والبقاء به حيث هو من خمود ذكر وجمود عقل وقناعة بقليل، ولشد ما كانت دهشتي وإعجابي لما تأتيه كل من تركيا الناهضة وفارس الناهضة من معجزات التقدم والطفرة بالبلاد إلى العلا من جميع نواحيه رغم ما يحوطها من عوز شديد وفقر مقيت، لكن هو الإخلاص للوطن والاعتزاز بالقومية وإنقاذ البلاد من الدخيل، كل أولئك أخذ بناصر القوم فعَدَوا إلى النهوض سراعًا، وإنك لتدهش لمدى التطور الذي تم في تلك الفترة الوجيزة في الثقافة والعمران، وأنت لا تراهم يعنون بالمظاهر الجوفاء تاركين لباب الأمر بل ينهضون بالصميم منه، رغم ما قد يبدو خلال ذلك من نقص في الدقة وحسن في الطلاء، وعندي أن العجلة واجبة في الخطوات الأولى من التقدم كي تكسب الشعب قوة الدفع اللازمة والتشجيع الذي

لا بد منه حتى إذا ما تذوق للنهوض معنى، انتعشت فيه الناحية المعنوية واضطلعت نفسه بما أعدت له، أما الأخذ بسنة التدريج الوئيد والعناية بالعَرَض دون الجوهر فتلك لا تتفق وحركة العصر الحاضر العاجلة وروحه المادي الوثاب.

حقًّا هي ظروف تهيأت فتحينها القوم وكانت لهم نعم العون، استغلوا خيرها لخير البلاد وتساندوا تحت أَمْرة نفر قليل ممن رجحت عقولهم، وأسلموا لهم القياد مضحين مؤيدين في غير تحفز لنقد ولا أهبة لهدم، كنت كلما حادثت نفرًا منهم تكلم في نغمة المعتز بقوميته القوي بإيمانه، لا يقبل في حق وطنه غمزًا ولا هوادة، فهل لنا — ونحن بنفرنا أعز ومالنا أوفر وعلمنا أوسع وماضينا أمجد — أن نترسَّم تلك الخطى الموفقَّة ونقيل بلادنا مما تتعثر فيه يومًا بعد يوم دون عبرة بما فات أو عدة لما هو آتٍ؟

الله أسأل أن يهدينا في أمرنا سبيلًا رشدًا.

خط السير والبلدان التي حللناها.

إلى فلسطين الأرض المقدسة

كنا في القنطرة السادسة مساء وعبرنا قناة السويس في سابحة بخارية صغيرة أعدتها الشركة ليعبر الناس عليها القناة إلى أرض طور سيناء، وفي القنطرة الشرقية أقلَّنا القطار في منتصف الليل وأوغل بنا في الصحراء، وفي باكورة الصباح تفتَّحت عيوننا على:

غزة

مولد الإمام الشافعي، وهي بلدة صغيرة قامت حولها بعض المزارع الفقيرة، ثم أخذ الزرع يتزايد في بقع متناثرة في الصحراء، حيث تكثر العيون، وخصوصًا على المنحدرات التي كان يكسوها شجر الفاكهة في صفوف منسقة بديعة تمر خلالها مجاري الأسمنت للري، وقد كانت كثرة الشجر خير مؤيد لما نعرفه من شهرة المكان بالفاكهة، ثم وصلنا محطة:

اللد

وكان الشجر حولها وفيرًا، وهنا غيَّرنا القطار الذي قام بنا صوب القدس، فأخذنا نوغل في وديان ملتوية معقدة، آخرها بالغ الامتداد غير ذي زرع، وكان القطار يجد صاعدًا خلال كل أولئك في جهد كبير، وقد زُوِّد بقاطرتين معًا، وفي منتصف العاشرة دخلنا:

بيت المقدس

فآويت إلى نزل «أوليفيت» الجميل يديره صاحبه الوطني الذي شراه من الإنجليز، ويقوم عليه خير قيام، أما القدس فبلد كأنه أقيم على مجموعة تلال في ارتفاع ٢٤٠٠ قدم، طرقه

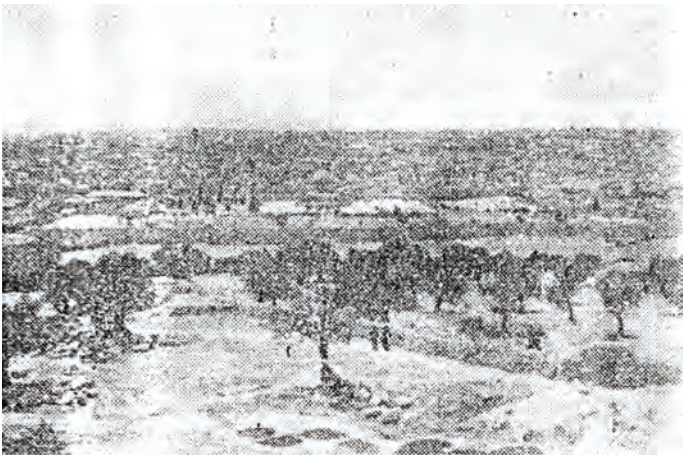

منظر عام للقدس من جبل الزيتون.

تسير في ليات عجيبة وتهوي آنًا وتصعد آنًا في منحدر وعر، وقد يرتقي الواحد من طريق إلى آخر بدرج مرتفع يناهز الخمسين سلمًا، والمدينة جد نظيفة وساعد على ذلك أن تربتها صخرية مجدبة لا تكاد تجد أثرًا للتراب في أرضها، وبيوتها من صخر الجير يبدو في ألوان طبيعية: أبيض، وأحمر، وأخضر، وللقوم مهارة خاصة في نحته وإقامته، بحيث يبدو فخمًا جذَّابًا رغم أنه لا يغشاه في ظاهره ملاط، وغالب المساكن من طابقين إلا بعض المنشآت الحديثة، وكم كان يدهشني اختلاف الأزياء والأجناس بكثرة لم أعهدها في أي بلد آخر، مما أيَّد أن ذاك المكان المقدس أضحى بلدًا عالميًّا، فالناس من مذاهب شتى وديانات مختلفة ولكل زيه الخاص، فالعربي القح يلبس الصوف وعلى رأسه العقال، وسواد الناس يلبسون الطربوش وسراويل تُحبَك حول الساق وتنتفخ حول العجز، والبعض يلبس القفطان وعليه الحزام المعوج الجذَّاب نساءً ورجالًا، ولعل أعجب الأزياء تبدو في طائفة من اليهود الرجعيين، فتراهم يرسلون لحاهم وشعر رءوسهم، ويدلون منه ذؤابتين طويلتين أمام الأذنين في شكل يسترعي الأنظار، والنساء يخرجن وعلى وجوههن قناع أسود ثقيل، ومن أخص ما ترى فتيانهم الذين يحملون وراء ظهورهم سلالًا كبيرة تكاد تخفي قامة الغلام منهم، ويسيرون على غير هدًى علهم يجدون مرتزقًا في حمل متاع الغير في تلك السلال، ونغمة الحديث عجيبة قد تثير الضحك إذ يميلون الحروف ويمدونها ويتصرفون في حروف

الجر تصرفًا مدهشًا وبخاصة «الباء» فيقولون: إن فلانًا نزل بيافا وسمعت أحدهم يقول لرجل زلت قدماه أمام حانوته: «ليش بتوقع بيمكن العمى بيصيبك» في مد عجيب فتقبَّلها المخطئ ومضى في سبيله لا يني، لاحظ أنهم لا يميلون إلى النزاع والمشاكسة وهم كرام النفوس وديعون مؤدبون، فما سألت أحدهم شيئًا إلا وحاول أن يهديني في رغبة وبشاشة، فإن قلت: «متشكر» أسرع قائلًا: «أستغفر الله» وهم يودون المصريين ويذكرونهم بخفة الروح، حتى سمعت أحدهم يقول لجاره: «أين خفة الدم المصري يجتمع إليه الجمال الشامي؟»

نبذة تاريخية

في القرن التاسع عشر قبل الميلاد هاجر إبراهيم من كالديا أو العراق موطنه إلى أرض كنعان كما روى التوراة، ولكي يحسم النزاع الذي شجر بين آله وبين قوم لوط خيَّر لوطًا أن ينتقي لقومه البقعة التي يريد، فاختار أرض الأردن الخصبة، فهاجمه أهل البلاد وأسروه فسارع إبراهيم إليه ونجَّاه، ولما عاد إلى معسكره قدم له حليفه الكنعاني ملك سالم «أو أوروسالم أو جيروسالم» الخبز والنبيذ، وقد ورد ذكر أوروسالم في القرن الخامس عشر قبل الميلاد في ألواح خطت بالبابلية عثرنا عليها في تل العمارنة، وفي سنة ١٢٥٠ق.م. احتل بنو إسرائيل القسم الأكبر من أرض الميعاد أو «الأرض الموعودة» وفي ١٠٥٠ق.م. اغتصب القدس داود من الكنعانيين وهم أجداد السوريين الحاليين، واتخذها عاصمته، ومحا اسمها الكنعاني وأسماها مدينة داود، وقد زاد في تجميلها سليمان وبنى فيها معبدًا فاخرًا بمساعدة صديقه «حرام» ملك «صور»، وغزاها شيشاق فرعون مصر سنة ٩٧٠ق.م. ثم تتالت الغزوات وحُملت كنوز المعبد إلى بابل وأُسر ملك القدس، وفي ٧٢٢ق.م. دُمِّر ملك بني إسرائيل هناك وفي ٥٨٦ق.م. حوصرت القدس ودُمِّر المعبد وأُخذ اليهود أسرى إلى بابل بأمر بختنصر، وبذلك انتهى ملك يهوذا.

ولما هزم كورش الفارسي بابل أعاد لليهود أملاكهم سنة ٥٣٨ق.م. وبعد هزيمة دارا أمام الإسكندر الأكبر اجتاح جيش مقدونيا سوريا، وكتب الإسكندر لقساوسة القدس يدعوهم إلى تقديم الطاعة، فرفضوا، لكنه لما تحرَّك نحو القدس لاقاه شيخ القسس فيها محتفلًا مرحبًا، فدخلها فاتحًا، وبعد موت الإسكندر ظلت الثقافة الإغريقية هي السائدة زمنًا، وحلت اللغة الآرامية وهي لغة السوريين الأقدمين محل العبرية، وما لبث ملك سوريا أن باغت المدينة سنة ١٦٨ق.م. ودمرها ودنس المعبد؛ لأنه ألزم اليهود أن يذبحوا الخنزير في

سور القدس. وترى باب الخليل وتحته باب يافا أو برج داود وفي مكانه كان يقوم قصر هيرود.

المذبح المقدس فأهاجت تلك الإهانة اليهود وحفَّزتهم أن يثوروا على سادتهم ملوك سوريا، وكان قائدهم يهوذا الذي هزم جيوش سوريا سنة ١٦٤ق.م.

عاود السوريون الحصار بعد ذلك، ولما جاء يوليوس قيصر في طريقه إلى مصر أقام من قِبله ملكًا عربيًّا على أرض يهوذا فقُتل، ثم أعقبه ابنه (هيرود) ففتح القدس بمعاونة الروم، واشتهر بمبانيه العظيمة، وبخاصة لما أعاد بناء المعبد، وفي عهده بلغت القدس أوج عظمتها لذلك سمي (هيرود الأعظم)، وبينا كانت القدس تتيه فخارًا تحت ملكها العربي وضعت مريم المسيح بمعجزة في فندق حقير من بيت لحم، وكان ذلك سنة ٤ق.م. وكان ذلك في الثالثة والثلاثين من حكم هيرود الأعظم، ولما ذهب عقلاء القوم يقدمون خضوعهم لذاك المولود غضب هيرود، وأمر بجميع الأطفال أن يذبحوا ليتخلَّص من المسيح، فأُوحي

وسط طريق الآلام حيث سار المسيح عليه السلام يحمل الصليب.

إلى يوسف أن يهرب بالطفل وأمه إلى مصر، فظلوا بها حتى مات هيرود، وفي سنة ٣٠م حوكم المسيح أمام خليفة هيرود الذي قضى عليه بالصلب.

لبث الروم يقاتلون القدس مرارًا ليقمعوا ثورة اليهود بها، وكان أشد حصار وقع زمن تيتوس، حتى قيل: إن الحاجة دفعت بالأمهات أن يأكلن أطفالهن، ولما دخلها تيتوس دمر المعبد أولًا والمدينة كلها تدميرًا تامًّا، فحقت كلمة المسيح فيها: «لن يستقر حجر على حجر في القديس الخبيثة.» وفي ٣٣٠م لما أن أصبحت النصرانية الدين الرسمي لروما بنى قسطنطين كنيسة في مكان كنيسة القيامة، وأخرى في مكان الصلب، وثالثة في بيت لحم، وبعد ذلك حاول اليهود إعادة معبدهم، لكنهم فشلوا وأصبحت القدس مزارًا لحجاج من المسيحيين، وفي سنة ٦١٤ فتحها كسرى وذبح تسعين ألف مسيحي، لكنه هُزم ووقع في الأسر، وما لبث أن داهمها الإسلام في واقعة اليرموك، وأمَّن عمر النصارى وبنى مسجد

الصخرة وسمى البلدة بيت المقدس، وفي عهد عبد الملك بن مروان أقيم المسجد بشكله الحالي (سنة ٦٩١) لينقص من نفوذ مزاحمه عبد الله خليفة مكة، ولا يزال المسجد يحمل اسم عمر، أعقب ذلك نفوذ الفواطم الذين قسوا على المسيحيين، ثم جاء بعدهم السلاجقة ثم العباسيون، وفي ١٠٩٣ عاد الفواطم واستبدوا بالنصارى، فكان ذلك سببًا في بدء الحروب الصليبية.

أمام كنيسة القيامة.

ولما انتصر النصارى في الحرب الأولى اقتسموا الغنائم، وكان أفخرها كنوز المسجد والصليب الأول، وفي الثانية تغلب بطل الإسلام صلاح الدين وأسر النصارى بشهامته وحسن معاملته، وفي الثالثة هلك من خيرة شبان أوروبا وملوكها وأمرائها نحو نصف المليون أمام

المسلمين، ولم يستطيعوا انتزاع القدس من صلاح الدين، ولعل أغرب الحروب الصليبية حرب الأطفال، وفيها شحن الأوروبيون سبع سفن كبيرة بالأطفال، أقلعت من مرسليا سنة ١٢١٢ إلى الأراضي المقدسة، لكن خمسًا منها رست على الإسكندرية فأُخذ الأطفال أسرى، واثنتان كسرتا وغرق من فيها.

وفي الحرب السابعة كانت خسارة النصارى بالغة، إذ أُسر ملك فرنسا نفسه في مصر.

وفي ١٥١٧ خضعت بلاد الشام ومصر لسليم الأول سلطان تركيا، وظلت القدس ملكًا للأتراك إلى سنة ١٩١٨ حين فتحها لورد اللنبي، فأضحت إنجليزية، فكأن الحكم الإسلامي ساد البلاد بين ٦٣٦، ١٩١٨.

وفلسطين اليوم قسمان: شرق الأردن وعاصمته عمان، وهي فيلدلفيا القديمة ويحكمها الأمير عبد الله، وفلسطين ويحكمها مندوب سامٍ وعاصمتها القدس التي يبلغ سكانها نحو الخمسة والستين ألفًا، ومجموع سكان البلاد كلها دون المليون، منهم ٦٧٠ ألفًا من المسلمين و١٧٥ ألفًا من اليهود و٩٠ ألفًا من المسيحيين، أما سكان شرق الأردن فدون ثلث المليون، رغم أن مساحتها ضعف مساحة فلسطين، وأغلبيتهم الساحقة من المسلمين.

في القدس

بدأت زيارتي بباب الخليل وهو أجمل أبواب أسوار القدس، وسمِّي كذلك لأن الطريق إلى الخليل يبدأ منه، وقد كتب على مدخله «لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله»، وكان يسمى قديمًا باب المحراب، أي محراب داود، ويعتقد الكثير أن المسيح الدجال سينهزم ويذبح تحت هذا الباب، وبعد أن جزت الباب سرت في درب حجري منحدر كثير الليات يسمونه «سوق البازار»، ويحكي أسواق الغورية عندنا إلا في أرضه الحجرية المدرجة ومنه عرجنا على:

طريق الآلام

وفيه حمل المسيح الصليب الكبير وقطع به الطريق كله وقد أعياه ثقله، فوقف اثنتي عشرة مرة متوجعًا، وقد عرف القوم تلك النقط ووضعوا علامات تميزها، وفي الموقف الرابع قابلت العذراء ابنها المسيح وهو يسير إلى القتل، وفيها أقام الأرمن كنيسة، وفي المحطة السادسة تقدمت القديسة فيرنوشيا فمسحت عرق المسيح وفازت بطابع وجهه المقدس على منديلها، وفي الثامنة خاطب المسيح بنات القدس قائلًا: لا تبكوا عليَّ بل ابكوا ضحايا القدس من

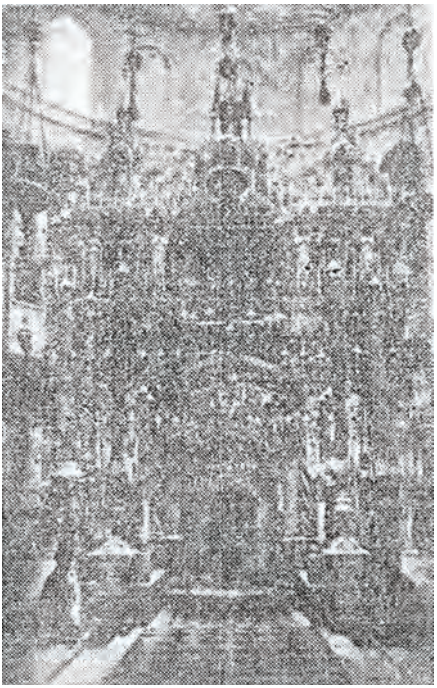

قبر المسيح عليه السلام داخل كنيسة القيامة.

الشباب، وفي الحادية عشرة أُمر المسيح أن يخلع ثيابه قبل الصلب، ثم وُثِّق إلى الصليب ودُقَّت فيه أطرافه، وفي الثانية عشرة رفع الصليب وثبت في الحائط بثقوب رأيناها واضحة وإلى يسارها شق طويل مليء بالنحاس ويقولون: إنه من أثر الزلزال الذي هز العالم عند ذاك، وفي الثالثة عشرة أُنزل الصليب وتسلمت مريم جثة ابنها، وآخر النقط وهي الرابعة عشرة في قلب كنيسة القيامة، حيث دفن المسيح، ومدخلها ناعم زلق من كثرة ما لمسها من أرجل الحجاج على كر السنين، وحارس الأبواب مسلم بيده مفاتيحها ليحسم النزاع بين الطوائف المسيحية المختلفة التي تنازعت الأمر طويلًا، وقد شاهدنا داخل الكنيسة الصخر المقدس الذي غُسلت عليه جثة المسيح، وفي مقصورة إلى جواره يضيئها خمسة عشر مصباحًا من فضة حجر الرخام الذي كان يغطي القبر، فدفعته الملائكة إلى مكانه هذا وإلى اليمين المقبرة يغطيها حجر يستخدم الآن مذبحًا للقرابين، وثَم هيكل النشور

الذي تجلى فيه المسيح لأمه، ومما راعنا منظر مغارة غائرة يسمونها سجن المسيح قيل: إنه سجن فيها وأجلس فوق صخرة بها ثقبان أُدخل الفخذان منهما ووُثِّقا، ثم شُحذ الذراعان إلى ثقبين رأيناهما وراء ذلك، وبعد تلك المغارة مغارات عدة سُجن فيها أتباعه، وكلها مرطوبة مظلمة رهيبة، وهناك هيكل السخرية، سخر الجند عنده من المسيح وتوجوه بتاج من شوك تهكمًا وتقريعًا، ويزين المدينة:

الحرم الشريف

أو مسجد عمر أقيم على أنقاض معبد سليمان فوق تل زيون الشهير وفوق أطلال قصر هيرود الأكبر، والمسجد في متسع ذرعه ١٤٥ ألف متر مربع على جبل «موريا» الذي كان ملكًا لأروانا، ومنه شراه داود وهنا شرع إبراهيم في ذبح ابنه ضحية على الصخرة الموجودة هناك، وقد بنى الهيكل داود بأمر سليمان وإرشاده حوالي سنة ٩٦٦ق.م. واستحضر له المهندسين والأخشاب من لبنان، وتم بناؤه في سبع سنوات ونصف، وقيل: إنه كلف خمسين مليون جنيه، وفي سنة ٥٨٨ق.م. خرَّبه بختنصر لكن اليهود أعادوه لما أن عاد لهم الأمر سنة ٥٢٠ق.م. ثم حوله جستنيان إلى كنيسة وأقام المسلمون عليه بعد ذلك المسجد الأقصى، ولما دخل عمر القدس كان موضع المعبد أطلالًا مطمورة، فأزاحها وأقام مسجدًا مؤقتًا للعبادة أعقبه مسجد الصخرة، وللحرم الشريف سور يطوقه (١٦٠١ قدم في ١٥٣٠ في ١٠٢٤ في ٩٢٢) وفي داخله رأينا ثلاثة أبنية رئيسية: قبة الصخرة وقبة السلسلة والمسجد الأقصى، وهناك كثير من الأسبلة والمصاطب والمحاريب والقباب منثورة في غير نظام.

قبة الصخرة

تقام على مثمن قطره ١٧٧ قدمًا ولها سبعة أبواب تولي شطر الجهات الأربع، والغربي منها يسمى باب الجنة، ويصلى على الأموات فيه عادةً، بناها مروان خليفة دمشق ليظهر على خلفاء مكة منافسيه سنة ٦٩١، وقيل: إنها كلفته سبعة أضعاف خراج مصر، أما صفحات ذلك المثمن من الخارج فيكسى نصفها الأسفل بالرخام المجزَّع والنصف الأعلى بالقيشاني في ألوان عدة، أظهرها الأزرق والأخضر في إبداعٍ دونه كل وصف، وتزين الأعلى آيات الذكر الحكيم بالخط الكبير وبخاصة سورة «يس»، وقد جمَّل ذاك القيشاني سليمان القانوني، وأقام القبة نفسها الحاكم بأمر الله سنة ١٠٢٢ من خشب مرصَّع علوه ٩٦ قدمًا

وقطره ٧٥، وتكسى من خارجها بالرصاص، وترفعها من داخلها أعمدة تيجانها ورءوسها بيزنطية ونوافذها مخرمة في أشكال هندسية جذابة يغشاها الزجاج بألوان تبهر النظر تتجلى من الظلام الرهيب الذي يسود داخلها، وفي جانب منها كُتب بالخط الكوفي أن مؤسسها هو هارون الرشيد سنة ٧٢ هجرية مع أنه حكم بين سنتي ١٩٧ و٢١٨، ولذلك ظُنَّ أنه محا اسم مروان بانيها الأصلي ونقش اسمه وغفل عن التاريخ.

قبة الصخرة الشريفة ومنها كان معراج النبي عليه السلام.

والصخرة المقدسة ذات شكل غير منتظم طولها ٥٨ قدمًا وعرضها ٤٤، ويقال: إن النبي لما عرج إلى السماء على البراق من فوق تلك الصخرة التصقت بحوافر جواده وأخذت تصعد معه حتى جاء جبريل ودفعها إلى الوراء، وقد أشار الدليل إلى موضع أصبع جبريل واضحًا هناك، وإلى جوارها صخرة عليها طابع قدم الرسول وفوقها شعرتان من لحيته وبجوار ذلك سيفه وعلمه وعلم من أعلام عمر، نزلنا تلك الصخرة فبدا جوفها كأنه مغارة مظلمة في تجويف وسط الصخر يرن عاليًا إذا ضرب باليد، ويخال القوم أن ذاك المكان ملتقى الأرواح بعد الموت؛ ومن ثَم أسموه بئر الأرواح.

وبناء قبة الصخرة فوق مرتفع من الصخر تعلوه بدرج محيط بها من جميع نواحيها، وفي أعلى كل درج أقواس الموازين، ويقولون: إنه في اليوم الآخر ستعلق الموازين فيها لتزن أعمال الناس جميعًا، فمن رجحت موازينه فهو في عيشة راضية.

أما قبلة السلسلة فتجاور قبة الصخرة، بناها مروان كأنموذج للقبة الكبرى، وهي تقوم على سبعة عشر عمودًا رتبت في دائرتين متحدتَي المركز بحيث يمكن أن ترى كل الأعمدة في وقت واحد، ويقولون: إن سليمان الحكيم علق في هذا المكان سلسلة لكشف شهود الزور الكاذبين؛ فالصادق يستطيع أن يمسك بها، أما المزوِّر فلم يكن يمكنه ذلك؛ ومن ثَم سميت قبة السلسلة.

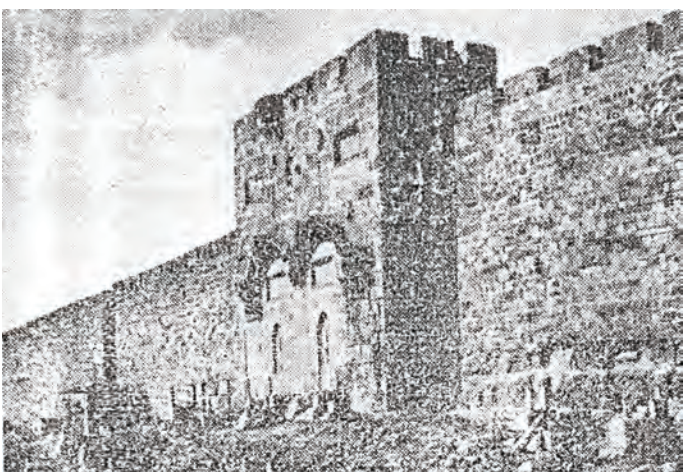

الباب الذهبي أو محبس الجن يجاوره عرش سليمان الحكيم وبينه وبين جبل الزيتون قبالته سيُمد السراط يوم القيامة.

وذاك النجد الذي أقيمت فوقه القبتان لا شك كان موضع ضرب الغلال «لاروانا»، وفوقها أقام داود مذبحه وأعقبه سليمان، وهي مقدسة عند اليهود والمسيحيين والمسلمين معًا، وقد شراها داود بخمسين «شكلًا» من فضة من أروانا الجبوسيتية، والجبوسيت أول قوم حلوا القدس، وقد بنى داود مذبحه فوقها شكرًا لله الذي دفع عنهم شر طاعون كاد

يودي ببني إسرائيل، وقد أرسل سليمان إلى حيرام ملك صور، فأمده بمهندسين من فينيقيا وزوَّده بالأحجار وخشب الأرز، وأقام أول معبد ثابت لليهود، كان آيةً في الفخامة يمثل حقًّا عظمة سليمان، وظل حتى كانت سنة ٥٨٦ق.م. حين أغار على القدس ملك بابل بختنصر فأحرقها ودمر المعبد عن آخره ونقل نفائسه غنيمة إلى بابل، وممن أسر من أنبياء بني إسرائيل «عزقل أو ذو الكفل»، وبعد خمسمائة سنة سمح كورش لليهود أن يعودوا إلى القدس ويحملوا نفائس معبدهم القديم ويقيموه من جديد ففعلوا، وفي ٤٠ق.م. جاء هيرود ملكًا على أرض يهوذا من قِبل أنطونيوس وأقام المعبد ثانية إرضاء لليهود، واستغرق إتمامه ثمانين عامًا، وفي ٦٦م قامت ثورة هائلة في القدس، وفي سنة ٧٠ أُحرق المعبد ودُمِّر عن آخره في نفس اليوم الذي دُمِّر فيه معبد سليمان من قبل.

المسجد الأقصى

إلى جنوب قبة الصخرة زرنا قبة أخرى دخلناها في بهو من أعمدة عظيمة الامتداد أدى بنا إلى قبة فاخرة مزركشة، تحتها محراب هو آية فنية ويسمونها المسجد الأقصى؛ لأنه أقصى مكان وصله الرسول بالبراق، وصعد إلى السماء وافدًا من مكة إلى الأراضي المقدسة ليلًا، وذاك المحراب مطعَّم بالعاج ترصعه اللآلئ أقامه السلطان نور الدين سنة ١١٦٨ وجمَّله صلاح الدين، وإلى جانب من المنبر قبلتان واحدة للمسيح ويظهر فيها أثر قدمه والثانية لموسى، عليهما السلام، وعلى كل جانب من مدخل المنبر عمودان قريبان كان يعتقد الناس أن من يمر بينهما يدخل الجنة، وإلا فهو من أهل الجحيم، وحدث مرة أن جاء رجل بَدِن كبير الجثة وحاول المرور من بين العمودين فحُشر ومات؛ ومن ثَم سد ما بين الأعمدة ليمتنع وقوع ذلك.

وإلى جوار الأسوار في الجنوب الشرقي إسطبل سليمان نزلناه بدرج تحت أرض الحرم، وإذا به مجموعة من أبهاء وأقبية تقوم على أعمدة كان سليمان يربط خيله فيها، وقد قلده الصليبيون ففعلوا ذلك فيما بعد، ويخال البعض أن البناء من عهد هيرود الأكبر وفي غرفة مجاورة مهد المسيح، قيل: إن مريم عرضت ابنها في المعبد عليه وإلى جانب الإصطبل فيما جاور قبة الصخرة الباب الذهبي أو محبس الجن كان يحبس سليمان فيه الجن متى شاء، ويظن أنه أقيم في مكان باب شوشان الذي بناه هيرود ولقد سده المسلمون؛ لأن هناك خرافة تقول بأن: النصارى سيغزون الحرم يومًا ويدخلون من ذاك الباب، ويجاور ذلك عرش سليمان الذي كان يجلس عليه وقبالته من الخلف جبل الزيتون الذي كان يأوي إليه

جماهير الأتقياء من اليهود يبكون إلى جوار الحائط المقدس.

المسيح للتعبد بين أشجار الزيتون، ويقول الناس: إن السراط سيمتد يوم القيامة بين هذا المكان وبين قبة الصعود قبالته فوق جبل الزيتون، وسيمسك النبي بطرف الصراط من فوق صخرة رأيناها بارزة على سور الحرم والطرف الثاني للصراط سيمسكه المسيح، ثم يمر الناس جميعًا من فوقه فمن جازه نجا، وإلا فالويل لمن هوى.

مبكى اليهود

ويسمونه أحيانًا البراق، حائط هائل خارج الباب الأوسط للحرم الشريف أقيم من كتل الصخر الكبيرة، ينبت العشب خلال شقوقها وهو الحائط الوحيد الذي بقي من معبد داود القديم؛ لذلك يتخذه اليهود مبكى لهم يأوون إليه وبخاصة يوم السبت والجمعة عند الغروب، وكذلك في أعيادهم ويقف الرجال في ركن والنساء في الآخر وهم يبكون ويرتلون ويندبون ملكهم القديم الزائل ويسألون الله أن يعيده إلى مجده السالف ومنظرهم وهم خشوع رهيب، ويزيدهم رهبة أن غالب القوم يلبسون قبعات من وبر أسود فاحم كأنها حلقات غليظة، وتتدلى شعورهم من رءوسهم ولحاهم في جدائل تسترعي النظر، ويقف جندي البوليس هناك ولا يبرح المكان لا ليلًا ولا نهارًا لأن الحائط مبعث نزاع متواصل بين المسلمين واليهود، إذ كل فريق يدعيه لمذهبه ويقدسه.

نقف إلى جوار البوليس الذي يحرس مبكى اليهود صباح مساء.

بيت لحم

قمت إليها في سيارة لأرى قرية المسيح التي ولد فيها هو وسيدنا داود، أهلها جلهم من النصارى الذين يفاخرون بأنهم يمتون بصلة القرابة إلى المسيح نفسه، وبيت لحم قرية صغيرة وسط الجبال تقوم بيوتها من حجارة بعضها فوق بعض، وأقدس مكان بها كنيسة مريم أقدم كنائس الدنيا، مدخلها وطيء لا يكاد يسمح بالدخول إلا في انحناء شديد؛ وذلك اتقاء هجمات العرب والأتراك الذين طالما دخلوها بخيلهم ودوابهم، وفي قلبها مغارة تجانبها صخرة مثقوبة في شكل نجم كبير وتضيء من فوقها المصابيح أبدًا، وهو مكان ميلاد المسيح عليه السلام، ويراقب هذا الموضع حارس مسلم ليمنع تعدي الطوائف المسيحية بعضها على بعض إذ كثيرًا ما يشجر النزاع بينهم، هنا عطرنا القسيس بماء الورد المقدس الذي تبرَّكنا به، وأنعشنا في ذلك الحر اللافح، وإلى جانب المكان بئر كانت

تستقي منها العائلة المقدسة، ويقولون: إن النجم الذي هدى مريم إلى هذا المكان هوى إلى تلك البئر، وإلى اليمين رأينا درجًا نزلناه إلى هيكل الأبرياء، حيث ذبح هيرود أطفال بيت لحم جميعًا، وإلى اليسار الغرفة التي تلقى فيها يوسف الوحي ليهرب بالمسيح إلى ديار مصر.

وفي طريقنا إلى بيت لحم زرنا مقبرة راحيل أم سيدنا يوسف الصديق التي شراها اليهود من المسلمين، وهي المكان المقدس الوحيد الذي ظل في أيدي اليهود إلى اليوم.

وعلى بعد عشرين كيلومترًا من بيت لحم بلدة الخليل وفيها مدفن إبراهيم الخليل وزوجه وأولاده ويوسف الصديق وكثير غيرهم من الأطهار، على أن البلدة ألفيناها قذرة متربة ومدفن إبراهيم داخل المسجد الذي لم يكن يدخله غير المسلمين إلى أمد قريب، لكنهم اليوم أباحوا للنصارى الدخول مقابل رسم يدفعه الزائر قدره نصف جنيه، أما اليهود فممنوعون من دخوله رغم أن البلدة كلها من بلدانهم المقدسة.

جبل الزيتون

أحد الجبال التي تحيط بالقدس، ويقع شرقها، ويبلغ علوه ٢٦٨٠ قدمًا، كان المسيح يتريض فيه ويخلو بنفسه ليتعبد ويناجي ربه، ومنه دخل المقدس يمتطي حماره فانتصر وتوج ملكًا، وفي حدائق الجبل خرج عليه تابعه «يهوذا» ودل اليهود على المسيح سيده، ومن ذروة هذا الجبل صعد المسيح إلى السماء. سرنا إلى ذاك الجبل المقدس صعدًا على أقدامنا، وفي طريقنا إليه زرنا مقبرة مريم أم المسيح في مغارة سحيقة نزلنا إليها بدرجٍ عظيم رهيب، وقد أقيمت فوقها كنيسة وقد شربنا هناك من مياه بئر مريم الطاهرة، ثم مررنا بعد بمقابر لثلاثة آلاف جندي بريطاني ماتوا في الحرب الكبرى، وبعدها زرنا كنيسة ألمانية فاخرة حديثة البنيان، وفي ذروة الجبل وصلنا إلى مسجد صغير إلى جواره قبة تحتها موطئ قدم المسيح يوم صعد إلى السماء من هذا المكان، وتصف خارج القبة مذابح متعددة للطوائف المسيحية المختلفة يتسلم مفاتيحها حراس مسلمون خشية النزاع الطائفي، وفي هذا المكان يقيم النصارى شعائر «تقديسهم» وينصبون خيامهم في الموسم ويقيمون فيها حول القبة أيامًا، ولن أنسى مشهد مدينة القدس كلها من خارج تلك القبة ومن قمة مئذنة المسجد، إذ تجلت في رواء وروعة دونها كل وصف، وفي أسفل القبة على منحدر الجبل بستان ناجى فيه المسيح ربه وتعبد بينما كان صحبه نيامًا، وهنا قبض عليه اليهود وتكاد تكسو الجبل غابة من شجر الزيتون العتيق المتفرق وقد وقفنا تحت شجرة منه يقولون

عنها: إن عمرها يزيد على تسعمائة سنة، وتسمى شجرة الآلام، وفوق الجبل عدة كنائس فاخرة لم يتح لي الوقت زيارتها.

قبر راحيل أم سيدنا يوسف الصديق في الطريق إلى بيت لحم.

إلى البحر الميت

أو بحر لوط، أقلتنا إليه سيارة الأمنيبوس فأخذنا نسير في طرق ملتوية تعلو وتهبط في مهاوٍ مخيفة، وكانت تحوطنا الربى المجدبة إلى الآفاق وبعد أكثر من ساعة ونصف بدا البحر الميت على بعد تحده من شرقه جبال «مواب» المقدسة، تجلى في بساط أملس من الماء الأزرق القاتم، وكان الإغريق والرومان يسمونه بحر الأسفلت لكثرة ما أمدهم من تلك المادة، امتداده ٤٨ ميلًا وعرضه عشرة بحيث يعادل في مساحته بحيرة جنيف، ومستوى مائه دون مستوى البحر بمقدار ١٣٠٠ قدم، فهو بذلك أحط منخفضات العالم أجمع وأعماقه سحيقة تبلغ في بعض جهاته ٢٣١٠ قدم، ويصب فيه من جنوبه نهر الأردن ويسميه الناس «نهر الشريعة الكبرى»، ورغم أنه يغذيه بنحو ستة ملايين ونصف مليون طن من الماء في اليوم فإن أملاحه آخذة في الزيادة السريعة لشدة البخر حوله حتى بلغت نسبة الملح

في مائه ٢٥٪، ومن هذه الأملاح ٣٤٪ من ملح الطعام و٦٪ كلورور البوتاسا و١٪ بروميد المغنزيوم، وقد حُسب مقدار ما يحوي من أملاح وقُدِّر بنحو ثلاثين ألف مليون طن، منها ١٥٠٠ مليون طن من البوتاسا؛ ومن ثَم عدت فلسطين من أغنى بقاع الدنيا بتلك المادة، ولما ذقت ماءه كنت وكأني وضعت في فمي حفنة من ملح وملمس الماء لبك، ولقد أخذت امتياز استغلاله شركة من يهود الإنجليز، وقد مهدت النقل إليه بالأوتوبيس، وأقامت هناك مقصفين ومسبحين، وهي تعد نزلًا فاخرًا.

نزلت البحر لأسبح قليلًا، فكان يضايقني ملح الماء جدًّا إذ كان كأنه مادة كاوية في العين والفم، وكلما حاولت الغوص لم أستطع، بل كان يدفعني الماء إلى سطحه، ولما شحذت جسدي لبثت طافيًا فوقه زمنًا طويلًا، وكلما حاولت السباحة مال رأسي إلى الغوص وظل الجسد طافيًا وهذا خطر السباحة فيه، ويحق لهم تسميته بالبحر الميت؛ لأن الحياة لا تكاد توجد به قط، فبمجرد دخول السمك من نهر الشريعة إليه يموت ويجده القوم طافيًا، ونهر الشريعة ينبع من جبال لبنان ويدخل في طريقه بحيرة جليلي، ثم يخرج منها ليصب في البحر الميت، وفي هذا النهر عمد يوحنا المعمدان المسيح عليه السلام، ويوحنا هذا هو المعروف عندنا باسم يحيى بن زكريا عليهما السلام.

وماؤه كدر اللون مبيض حتى بعد ترشيحه وطعمه لا بأس به، سقانا غلام المقصف منه ماءً مثلوجًا، وقد أقمت على ضفاف ذاك البحر وفي جوار نهر الشريعة نهارًا كاملًا استمتعت خلاله رغم شدة القيظ ووهج ضوء الشمس المحرقة حوله، فهو من أشد بقاع الدنيا حرارة في الصيف.

عدت إلى القدس وقد عرجت على مدفن داود في مقبرة غائرة تحت الأرض وسط مسجد داود الذي لا يدخله إلا المسلمون، ويقال: إن سليمان مدفون معه، وقد نُقشت حول القبر الآية الشريفة: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾.

ومن أعجب ما أذكره للقدس شح مائها وندرته، فأهم مستمد للماء هناك أحواض يُستقبل فيها مطر الشتاء لإمداد البلدة، فإذا ما أقبل الصيف نضبت تلك الأحواض فكان المستمد الوحيد «برك سليمان»، إلى جانب بيت لحم تطلق منها المياه مرتين في اليوم لتسير في أنابيب تؤدي إلى صنابير الطرق في القدس، وكنت أدهش لتزاحم القوم حولها قبل ميعاد فتحها بساعات وبيد كل منهم «تنكة» ينتظر ليملأها بثمن يكاد يفوق ثمن النبيذ الرخيص هنالك، وكثيرًا ما سمعتهم يقولون: إن النبيذ أرخص لديهم من الماء العذب، وفي كل بيت تجد موضعًا لادخار ماء المطر شتاءً، وفي البيوت الكبيرة يبتاعون الماء بسعر المتر

لا تزال تحتفظ بيت لحم بالقديم في الطرق والأبنية والأزياء.

المكعب ثمانية قروش؛ لذلك اعتاد القوم الشح الشديد في الماء وعدم الإسراف فيه حتى إن متوسطيهم لا يغتسلون إلا مرة في كل شهر مما جعل رائحة سوادهم منفرة.

إلى يافا

أقلني إليها الأوتوبيس في نحو ساعة ونصف أو يزيد، فسرنا في طرق معبدة جميلة تلتوي في صعود وهبوط لا يكاد يتصوره العقل، والطريق رغم طوله الهائل ولياته التي تكاد تكون معقوفة على بعضها في مواضع عدة كله بالأسفلت وجوانبه بالحجر وله حواجز بالبناء مما يشهد للإنجليز بالفضل الكبير والعناية الفائقة في تعبيد الطرق، فكأنهم الرومان

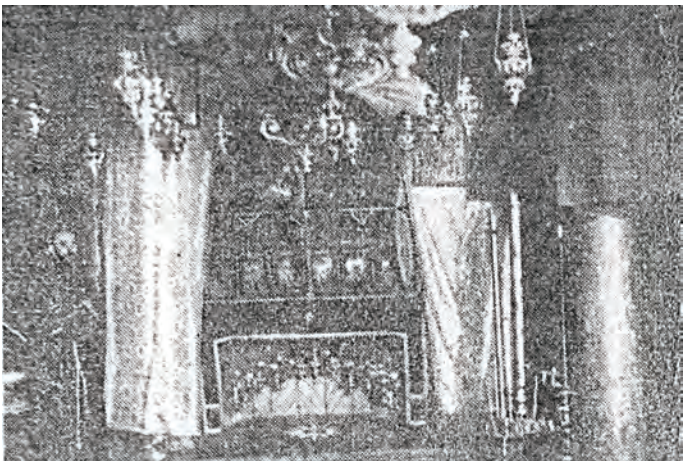

في مكان تلك النجمة الوضاءة التي تضيء فوقها المصابيح مساءً، ولد المسيح وحول البقعة تقوم كنيسة مريم أقدم كنائس الدنيا.

في زمانهم حين عرفوا أن الطرق خير وسيلة ترتبط بها أطراف إمبراطوريتهم، وبخاصة في زماننا الذي سادت فيه السيارات، ولما أن قاربنا جانب يافا كثرت منابت الزيتون والفاكهة وبعض الغلال كالذرة والشعير الذي يرويه القوم من مياه الأمطار والينابيع، وكنا نشاهدهم يدرسون الغلال على الطريقة المألوفة عندنا، وكانوا أحيانًا يسوقون طائفة من البهائم تدور حول الجرن وهي تدوس السنابل بحوافرها.

واسترعت أنظارنا بلدة «الرملة» الكبيرة، اسمها القديم «أرام» ويقال: إنه مدفون بها ثلاثمائة من الأنبياء والصديقين، وبعدها غصت المزارع بأشجار البرتقال في كثرة هائلة أيدت شهرة يافا به، وأخيرًا دخلنا المدينة وإذا بها ربوة مشرفة على ميناء آمن لكن تعوزها النظافة والجمال، ورغم قدم البلدة لم يبقَ الزمن بها من أثر وهي في الأقاصيص المكان الذي ابتلع فيه الحوت سيدنا يونس، وهي التي وهبها أنطونيوس لكليوباترة دليلًا على حبه لها، وكان لها شأن مع صلاح الدين وقلب الأسد وكذلك مع نابليون بونابارت.

وجل سكانها من المسلمين وتجاورها ضاحية جديدة تسمى «تل أبيب» في فلات أنيقة وتؤدي طرقها في منحدر خفيف إلى البحر، حيث أقيمت الحمامات، وكل سكانها من اليهود، ولقد طنطنوا في وصفها فخلتها جنة نادرة المثال على أني ألفيتها عادية.

على باب قبة الصعود فوق جبل الزيتون وفيها «يقدس» المسيحيون.

ولقد استرعت نظري حركة هجرة اليهود إلى أرض فلسطين ونشاطهم في إقامة مستعمرات في كل مكان هنالك حتى بلغ عددهم اليوم هناك مائة ألف نفس، مع أنهم منذ مائة سنة لم يزيدوا على ثمانية آلاف، ولقد نبتت فكرة الوطن القومي لديهم منذ ذاك الحين، فأخذت الهجرة تزيد إلى فلسطين من جميع الآفاق، وساعدهم كثير من مموليهم أمثال رتشلد على شراء متسعات من الأرض الزراعية حتى زادت مساحتها اليوم على مائة وعشرين ألف فدان في الريف، لكن لا يزال سوادهم في المدن الكبيرة، ففي القدس ٣٥ ألفًا، وفي يافا ٢٠ ألفًا، وكثير منهم في حيفا وطبرية وصفد والخليل، وفي تل أبيب وحدها أكثر من عشرة آلاف، على أن اليهود لا يكونون أغلبية إلا في القدس فقط، أما في سائر البلاد فهم أقلية بالنسبة للمسلمين، وإنجلترا اليوم جادة في خدمتهم ومعاونتهم على جعل البلاد وطنًا لهم، لكن ذلك دفع المسلمين والمسيحيين أن يتضامنوا لمقاومة ذلك، وكانت روح الكراهية والأهبة

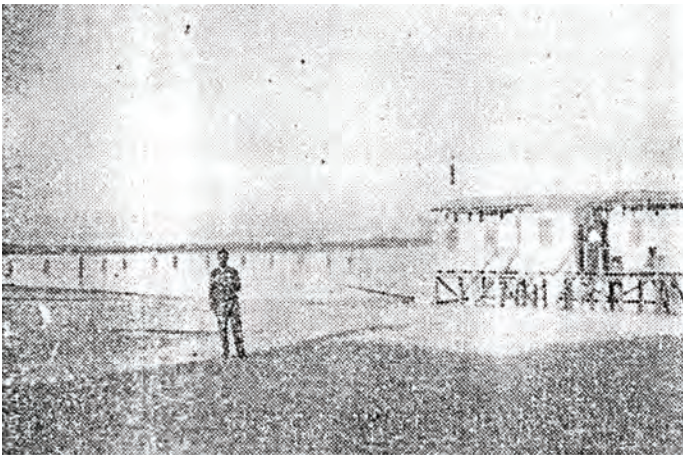

على شواطئ البحر الميت أوطأ منخفضات الدنيا وأملح بحارها.

للقتال بادية لنا هناك، وقد تجلت لنا في معاكسة اليهود للمعرض العربي الذي أقيم هناك، وكانوا معتمدين على الحراب الإنجليزية؛ لذلك لم أعجب لما قرأته عن الانفجار الأخير الذي رج البلاد وهدد بمتابعة الثورة حتى توقف حركة اليهود، لكنها سياسة التفريق والتظاهر بمعاونة الأقلية هي التي تلعب دورها في الشرق الأدنى كله، خصوصًا وأن أمل إنجلترا معقود على المقام في فلسطين بعد أن بدا الضعف في مركزها بمصر والعراق، فقامت تشيد الحصون وتقيم المين للأساطيل، وبخاصة في حيفا، وتحرض اليهود على الهجرة إلى هنالك؛ لأنهم أطوع لها من الأعراب الذين أوتوا من العصبية وروح المقاومة شيئًا كثيرًا، ولقد اتبعت الحكومة خطة إجلاء الأعراب عن أملاكهم بالقوة وهم يبيعون أطيب الأراضي لليهود بثمن بخس، وكانت تلك المستعمرات تبدو في حدائقها ومزارعها اليانعة طيلة طريقنا إلى شمال فلسطين والحكومة تأتمن اليهود وتطمئن لهم في غالب الوظائف والشئون الحربية، وهي لا تتوانى في منحهم كثيرًا من الامتيازات المالية والتجارية، وساعدهم على ذلك كثرة أموال اليهود واستعدادهم لإنفاقها في هذا السبيل، لكن المسلمين والنصارى حانقون جد الحنق على ذلك والحكومة تحاول إغراء العرب أن يتوطنوا في شرق الأردن تلك الجهات المجدبة التي هي إلى البادية القاحلة أقرب.

إلى دمشق الشام

قمت إليها في سيارة قطعت بنا ٣١٥ كيلومترًا فأخذنا نسير في طرق معبدة جميلة وسط الربى اللانهائية، وقد وقفنا زمنًا في نابلس، تلك البلدة ذائعة الصيت في صناعة الزيوت والصابون بفضل كثرة أشجار الزيتون التي بدت لنا كالغابات حولها، وكذلك لأن تربتها غنية بالصودا وهي بلدة كبيرة تقوم مبانيها بالحجارة كسائر مباني فلسطين، والمدينة إسلامية بحتة إلا أن بها طائفة من اليهود هم:

السامريون

ويدعون أنهم من نسل يعقوب ولهم مذهب خاص ولغة عجيبة يؤدون بها صلواتهم فوق جبلهم المقدس «جريزيم» في جنوب نابلس، وهم يعتقدون أن سيدنا إبراهيم قدم ذبحه فوقه؛ ولذلك يقدمون الذبائح من سبعة حملان ذات لون أبيض، وعند سلخها ترش بالملح؛ لأن القرابين لا تقبل في زعمهم دون أن تكون مملحة، وتشوى شاة فوق البقعة التي قدَّم فيها إبراهيم الخليل ذبحه، وهم يحرمون الأنصاب والصور التحريم كله، والعجيب أن عددهم لا يزيد على مائة وخمسين، وقد لبثوا محافظين على شخصيتهم ومذهبهم من عهد سيادة مملكة بني إسرائيل منذ ٢٥٠٠ سنة، ولعلهم أقدم الفرق الدينية في العالم، وقد أبوا أن يختلطوا بالمصاهرة مع غيرهم من اليهود، فحفظوا سحنهم الخاصة التي رأيناها في شوارع نابلس، وكاد يؤدي بهم ذلك إلى الانقراض وهم يقولون بأن مدينة القدس هي نابلس، ولا يعرفون حرمة لبيت المقدس ولا يعظمونه، ولهم توراة غير التوراة التي بأيدي سائر اليهود، ويبطلون كل نبوة كانت في بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام وبعد يوشع عليه السلام، فيكذبون نبوة داود وسليمان مثلًا، ولا يقرون بالبعث البتة وهم لا يستحلون الخروج من الشام أبدًا، وهم يزعمون أن التوراة التي بأيدي سائر اليهود محرفة، أما تلك التي بأيديهم فأصلية، على أنهم لا يخرجونها للناس أبدًا ويقولون بأن الله أمر داود أن يبني بيت المقدس في جبل «غريم» أو جبل نابلس، وهو لديهم الطور الذي كلم الله فيه موسى فخالف داود الأمر، ويقولون بأن التورة نزلت بلغتهم وهي قريبة من العبرانية ثم نقلت إلى السريانية.

عرجنا بعد ذلك على الناصرة، وهي البلدة التي مضَّى فيها المسيح طفولته، لذلك كانت مقدسة عند المسيحيين وكثرت فيها الكنائس وكان سواد سكانها منهم، وبعدها أخذنا نتسلق ربًى كانت تشرف على البحر الجليلي العذب، وفيه يصب نهر الشريعة من جانب،

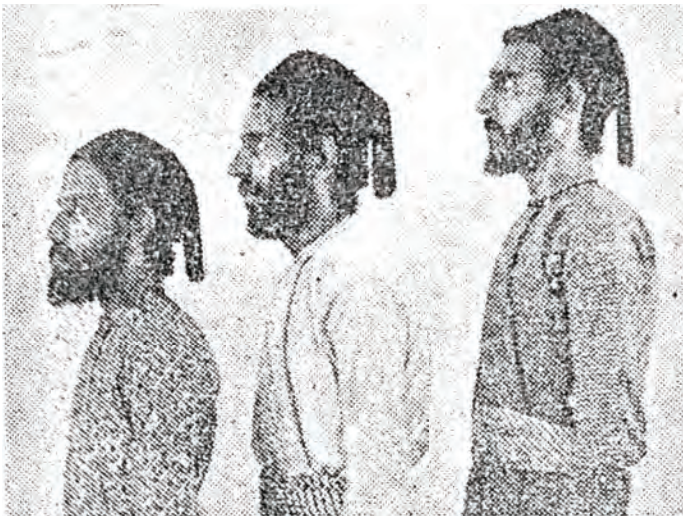

قسس السامريين.

ويخرج من الآخر وهو النهر الذي عمد فيه المسيح عليه السلام. هوينا إلى ذاك البحر، ويسميه بعضهم بحر طبرية، ودخلنا بلدة طبرية التاريخية التي تقع عليه، وهي مدينة رومانية أقيمت على تلك البحيرة وغالب مبانيها من الحجر الأسود الذي يكثر حولها، وكانت من الحواضر الرومانية، وبها قلعة قديمة رأيناها مشرفة، ولقد تناولنا الغداء على ضفاف ذاك البحر التاريخي المقدس. ثم قمنا مودِّعين أرض فلسطين تلك البلاد المقدسة التي لا يكاد يمضي أسبوع بدون أن تقام بها حفلة دينية للمسلمين أو المسيحيين أو اليهود، وبعض تلك الأعياد مشتركة، أذكر من بينها زيارة النبي موسى الذي يحج أهل جميع الأديان إليه فوق التلال شمال البحر الميت، حيث مات سيدنا موسى، والبلاد لا تكاد تخلو يومًا من الغرباء الذين يحجون إليها من كافة الأديان، حتى عاون ذلك كثيرًا على ماليتها الفقيرة، وأول ما عرف الإنسان تلك البلاد كانت تحمل اسم «بليشيت» في نطاق ضيق بين جبل الكرمل «غرب حيفا» والساحل وحدود مصر، وكان يقطنها شعب غير ساميٍّ اسمه فلشتم أو فلسطين، ثم أطلقت الكلمة على البلاد التي نزلها اليهود.

اجتزنا نهر الشريعة عند منطقة الحدود بين فلسطين وسوريا والنهر نحيل ماؤه ضحل جلسنا على ضفافه حتى فُتِّشت أمتعتنا وفُحصت جوازاتنا وبعدها كنا نسير في

أرض سوريا شبه الصحراوية التي كانت تنتثر بالحصى الأسود ولا يكاد ينبت بها زرع؛ لذلك بدا الإقليم أكثر جدبًا من سابقه، وهنا أخذنا نجوز تلال حطين التاريخية ثم تلال:

السامريون يقيمون صلاتهم فوق جبلهم المقدس.

الدروز

وتزيِّنها قراهم الفقيرة، وهم قوم شداد البأس غالبوا الفاتحين، وآخرهم الفرنسيون، ويقال: إنهم يعبدون الشمس ويعتقدون في تناسخ الأرواح وأن روح القتيل تدخل جسدًا غيره وهذا مشجعهم على لقاء الموت، وقد حدثني القوم أنهم كانوا يهاجمون المدافع ويمسكونها بأيديهم مستهينين بالموت، وهم لا يحزنون عند موت أحدهم لاعتقادهم في بقاء روحه، ويقول البعض: إنهم يعبدون الحاكم بأمر الله، ويرون أن الله خلق عددًا محدودًا من الأرواح الآدمية تحل بعد الموت أجساد المواليد الجديدة.

ولا يشربون إلا الماء واللبن، ولا يأكلون إلا ما ينتجونه من أرضهم وقطعانهم، ويلبسون من غزل أيديهم، وهم يتعبدون خفية فلا يراهم أحد، وينتشرون في قراهم الممدودة بين جبل الكرمل والبحر الجليلي.

بدا الطرف الجنوبي لجبال لبنان في ربًى جافة مغبرة وقد لمحنا بقعًا منثورة من الثلج الأبيض فوق الذرى، وهو الذي يغشى الجبال كلها في الشتاء، ومن مصهور الثلج لاقينا جدولًا نحيلًا كأنه الثعبان في لياته المعقوفة، وهنا بدأت الخضرة وعمت المزارع، ثم باغتنا منظر دمشق إلى شرق الجبل وكأنها غابة مغلقة في وهدة تقوم من حولها النجاد الجافة وبخاصة من الغرب.

بعض الدروز يملئون جرارهم من أحواض الماء.

دمشق

دخلنا الشام كما يسمونها وهي أقدم مدن الدنيا، إذ لا يعرف متى بدأت ويرى القوم أن عادًا أول من نزلها وأنها إرم ذات العماد، ومنهم قائل بأن منشئها نمروذ أو دمشاق بن كنعان، وبعضهم قال: إن أول من بناها دمشقس مولى الإسكندر، وبعضهم ينسبونها إلى الروم، وهذا يكذِّبه ورودها في التوراة على لسان موسى الكليم على أنها قديمة صحبت ملوك

كنعان والروم وآل جفنة وبني أمية، وقد هدم أبو جعفر كل مخلفاتهم فيها فلم يبقَ إلا النادر.

وأول ما استرعى أنظارنا فيها كثرة المعسكرات الفرنسية التي تحوطها، هذا إلى كثرة أنواع الجند، وفضلًا عن أبناء البلاد رأينا جنود الفرنسيين والسنغاليين والمغاربة؛ مما يشعر بأن فرنسا لا تزال قلقة على مركزها في تلك البلاد المضطربة، يؤيد ذلك ما سمعناه مرارًا من أن فرنسا تفكر في التنحي عن الانتداب، لأن بقاءها يكلفها غاليًا، فأغلبية البلاد الساحقة تقاوم الانتداب ولا ترغب إلا في الاستقلال، ولقد انفجرت البلاد في سنة ١٩٢٢ محاولة طرد الفرنسيين، فأعمل الفرنسيون قنابلهم في البلاد وهدموا منها الكثير، وفي دمشق حي كامل متهدم يسمى «الميدان» كان مخبأ الدروز والمسلمين وقد اتفقوا على محاربة الفرنسيين، وظلوا يقاومونهم أربع سنين، كلفت فرنسا مائة ألف جندي ومبالغ طائلة من المال، وقد قص القوم عليَّ عجبًا في مقاومة الدروز لفرنسا. حدث مرة أن القائد الفرنسي قام بعشرين ألف جندي ليؤدب الدروز في جبالهم فلم يرجع من الحملة جندي ولا دابة، ولم تستطع فرنسا أن توغل في البلاد بعض الشيء إلا باستهواء طائفة من المارقين وجلهم من غير المسلمين، وأخذت تساعد على نشر الملاهي وتستميل القوم بالمال والنساء، ولقد حدثني شيخ عن مبلغ الفساد وانتشار الرشوة، وقال بأن صاحب الحاجة لا يقضي طلبته إلا بأحد أمرين، المال والنساء، وقد لاحظت كثرة المراقص ودور الملاهي الفرنسية في كل أرجاء البلاد.

والشبان مندفعون في تيارها وتلك طريقة لا شك تنال من الأخلاق كثيرًا وتنسيهم واجبهم القومي، ولقد بدا الفرق عظيمًا في تلك الناحية بين دمشق والقدس، ففي القدس لا يباح التبرج ولا البغاء مطلقًا، ودهشت مرة لما رأيت دلَّالًا في سوق البلدة يطوف «بفنوغراف» ليبيعه فاستوقفه رجل البوليس وخبَّره أن إدارته في الطريق أمر غير مباح في ذلك البلد المقدس.

حللت نزلًا وسط الميدان الرئيسي لدمشق يسمونه «ميدان مرجه» يتوسطه عمود تذكاري وإلى جانب منه نهر صغير يشق البلدة ويسمونه بَرَدَى أو «أبانا» ماؤه ضحل آسن ولا يلبث النهر أن يختفي بمائه الضئيل منسابًا تحت أرض المدينة وشوارعها مسافات طويلة، وقد رصفت جوانبه الظاهرة بالحجارة وأطلت عليه فخر المباني وبخاصة الحكومية، والميدان يعد مركز حركة النقل من ترام وغيره وإلى ورائه شارع النصر، وكان اسمه من قبل شارع جمال باشا، يتوسطه متنزه مزدوج تصف فيه المقاعد ويؤدي أحد

طرفيه إلى سوق الحميدية ولعله أجمل نواحي المدينة وأكثرها حركة يحكي الموسكي عندنا، وسقفه مقبَّى في بوائك من حديد يكسوها الزنك وقد عرجت هناك على فرع بنك مصر لأصرف بعض النقود. والسوق ينتهي ببعض البوائك الأثرية في الهندسة البيزنطية التي أدت بنا إلى:

نهر الشريعة حيث عُمِّد المسيح عليه السلام وعند القنطرة الحد الفاصل بين فلسطين وسوريا.

المسجد الأموي

دخلته فراعتني فخامته وفسيح أبهائه ودقيق نقوشه، فهو حقًّا مفخرة فنية إسلامية تتوسط فناءه الرئيسي نافورة أنيقة للوضوء، وفي جانب منه مدفن رأس الحسين تجاورها شعرتان من لحية الرسول، وخارج الحجرة طاقة من فضة مزركشة يسمونها خزانة يزيد بن معاوية، وما أن دخلت الليوان الرئيسي الداخلي حتى وقفت مبهوتًا من عظمة ما رأيت

بوائك شاهقة تتوجها أقبية صغيرة كسيت بالقيشاني الأزرق البديع تمتد إلى قصارى مسارح النظر، وتزين الجدران نقوش يحار فيها اللب، أما المحاريب والمنبر فمن مقصوص الرخام المطعم في إسراف كبير. وفي وسط كل هذا مدفن سيدنا يحيى والمسجد أصله معبد روماني حوله المسيحيون كنيسة ماري حنا، ثم جاء المسلمون فأقاموه مسجدًا تزينه عدة منارات مختلفة الهندسة، وكان ذلك في خلافة الوليد بن عبد الملك كلفه ١٤٤ قنطارًا من الدنانير أي نحو عشرة ملايين دينار، وكان المتولي على النفقة عمر بن عبد العزيز قبل أن يلي الخلافة، وكان في ذلك المسجد ستمائة سلسلة من ذهب تعلق فيها المصابيح، وزينت جدرانه بالفصوص والذهب الخالص، وقد كُتب عليه بالذهب على اللازورد «ربنا الله لا نعبد إلا الله، أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله بن الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين» ويقولون: إن الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة.

قبر صلاح الدين

في ناحية منزوية من الحي الذي بجانب المسجد الأموي قادني الغلام وسط أزقة حقيرة إلى قبة غير ذات بالٍ حولها مجموعة من شجر في غير تشذيب، لا تكاد تسترعي نظر المارة قط وقال هنا مقر صلاح الدين بجانبه قائده نور الدين، فوقفت خَجِلًا مبهوتًا، وقلت في نفسي أهذا الضريح يناسب مقام بطل الإسلام الذي اعترف له بالفضل حتى ألد أعدائه وضربوا المثل بعظمته وشهامته! إنها والله لوصمة عار في جبين الإسلام أن يكون جزاء حاميه هكذا. وممن يدفن في دمشق معاوية نفسه.

المتحف

وإلى جوار المسجد الأموي دار قديمة أقيم بها متحف الآثار وهو على صغره مقسَّمٌ إلى ثلاث غرف، الأولى للآثار العربية، وبها مجموعة قيِّمة من أسلحة وأحجار ولعل أجمل ما بها مجموعة النقود التي أهداها تيمور المصري، وتحوي نماذج من أغلب نقود الخلفاء كلهم، وقد استرعى أنظارنا دينار هارون الرشيد وصلاح الدين وعبد الملك بن مروان وأعجبها دينار فيصل الذي سكه يوم حكم سوريا وظن أن ملكه سيدوم، ولم يظهر من هذا الدينار سوى أحد عشر فقط، إذ لم يدم ملكه أكثر من ستة أشهر.

وفي الغرفة الثانية مجموعة من الآثار الإغريقية والرومانية. وفي الثالثة خليط من آثار بابل وأشور والكلدانيين وغيرهم، وأمام المتحف دار الكتب العربية، وبها مجموعة قيِّمة

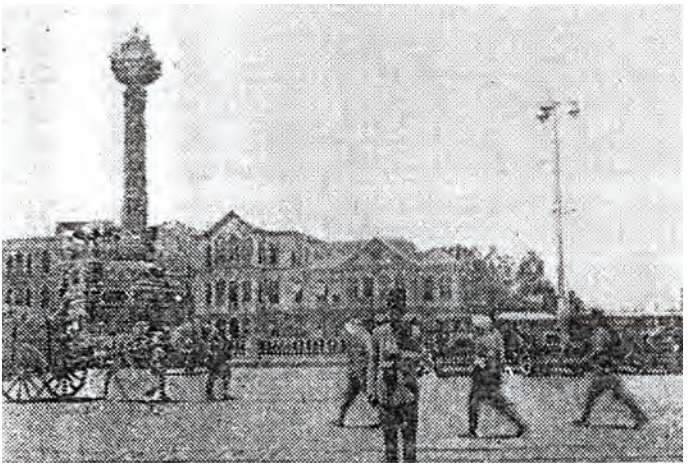

وسط ميدان مرجة الرئيسي في دمشق.

من المخطوطات رتبت في صنوف مختلفة من التفسير، والتوحيد، والحديث، والجغرافيا، والكيمياء، إلخ، وبها حجرات أعدت لمن أراد الاطلاع من الناس جميعًا.

وفي المدينة كثير من البيوت الأثرية القديمة على الطراز العربي والتركي أجملها دار العظم، فناؤها فسيح تتوسطه نافورة جميلة وتطل عليها حجرات وليوانات من رخام رصع في نقوش عربية ساحرة.

ومن الطرق التي تروق السائح كثيرًا الشارع المستقيم؛ سمي كذلك لأنه يمتد وسط البلدة القديمة كلها من باب الشرق وهو جزء من السور القديم إلى ما يجاور سوق الحميدية، ولكنك تدهش إذ تجده ملتويًا وفي غير استقامة، ويسميه الناس أحيانًا شارع مدحت باشا، ونصفه المجاور لسوق الحميدية شبيه بالسوق في تقوس سقفه وانتظام المتاجر حوله، أما باقيه فأزقة لا شأن لها، على أنه يروقك ما فيه من بيوت قديمة وصناعات يدوية دقيقة، وفي آخره زرنا مصنع النحاس «للنعسان»، وهو أشهر مكان في دمشق في أشغال النحاس المثقل بالفضة في نقوش ومخطوطات جميلة، وتلك شهرة لدمشق من قديم، وغالب طرق البلدة ترصف بالحجارة الصغيرة التي تؤلم الأقدام في السير، وهي حجارة من بازلت أسود عظيم الصلابة يكثر مستمده حول المدينة.

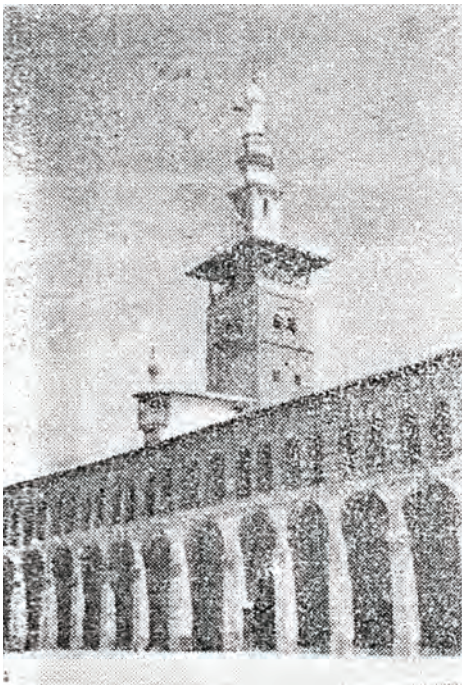

مئذنة المسجد الأموي في دمشق.

وفي دمشق خمسة خطوط للترام واحد يؤدي إلى الميدان وهو اليوم مكان خرب من أثر قنابل الفرنسيين، وآخر إلى ناحية يسمونها «دوما» على بعد خمسة عشر كيلومترًا نصفها الأخير بساتين يانعة ممدودة ثمارها دانية تتوسطها المقاهي، ولك أن تتناول من الفاكهة ما طاب لك بدون حساب أو رقيب، وكان شجر المشمس إذ ذاك مثقلًا بثمره في أنواع قد تفوق الاثني عشر في حلاوة ومذاق شهي، ولعل أجمل ناحية «المهاجرين» وهي على ربوة تشرف على دمشق كلها، فيبدو المنظر ساحرًا، هناك جلست على مقهى فأسرع الرجل إليَّ يقدم كوب ماء مثلوج وإلى جانبه كأس صغيرة «بيشة» في قرارها قطرات من القهوة «السادة»، وتلك من آدابهم في تحية القوم ثم طلبت الشاي الذي أنعشني وسط تلك الجنة الخلابة، والحي مسكن الطبقات الراقية، كله بيوت مشيدة من الأحجار في جمال وجدة والمارة يسيرون في وقار، والنساء محجبات بقناعٍ أسود ثقيل ويرتدين ملاءات على النظام المصري

السابق والرجال مختلفو الأزياء المتقدمون في السن مطربشون يلبسون «القفاطين» عليها «الجاكتة» والشبان في حللهم الغربية بعضهم بالطرابيش والبعض بالقبعات، والعامة في سراويلهم الثقيلة المنتفخة والأحزمة العريضة والكل مؤدبون وهم أهل كرم وميل إلى اللهو، وخصوصًا يوم السبت والأحد، حيث لا يشتغلون إلا بالمجون والتهتك، وتلك سمعة البلدة من قديم حتى منذ عصرها الذهبي وهو العصر الأموي، فهي كانت عاصمتهم، ولما انغمس أولئك في ملاذها دالت دولتهم على يد الوليد بن يزيد.

وهم يحبون المصريين إلا أن في حديثهم شيئًا من الجفاء فمثلًا، سألت أحدهم عن ترام لجهة خاصة وكان قريبًا فنظر إليَّ مقطبًا وقال: هيك بتشوف الرقعة بتشوف الرقعة! في نغمة آلمتني.

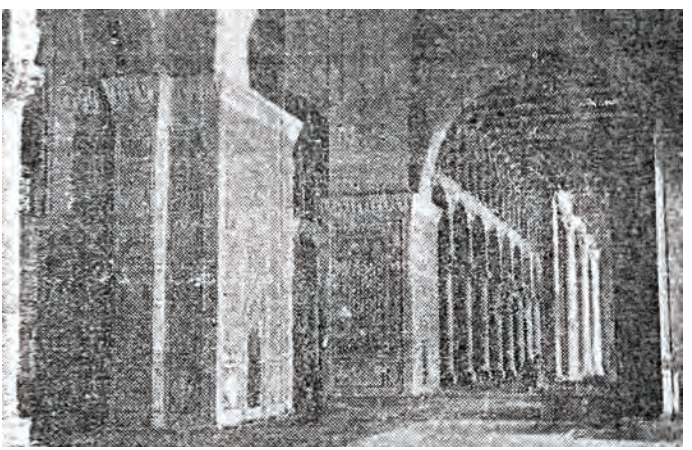

المسجد الأموي من الداخل آية فنية ومفخرة إسلامية كبرى.

ومظهر دمشق بل وبلاد الشام جميعًا إسلامي بحت، إذ أغلب القوم من المسلمين، وقد تجلَّى هذا المظهر ليلة مولد النبي، فلقد قصدت المسجد الأموي لصلاة العشاء، فكان غاصًّا بالناس على سعته، وبعد الدعاء خرج الجميع في مظاهرة يتقدمها الشباب يحملون السيوف والأعلام والعصي، وكان بعضهم يصيح بالأدعية الدينية والبعض بالنداءات الوطنية مثل: (ابن سوريا ما بيهان! الحرية والاستقلال!) وانتهوا إلى ميدان مرجة ووقفوا يهتفون طويلًا

أمام دار الشرطة، ثم ساروا إلى دار مجلس الوزراء وهتفوا طويلًا، ولم يتدخل البوليس حتى انصرفت المظاهرة بسلام، وكانت تزين أضواء الكهرباء دور الحكومة كلها وتطوق أبواب المتاجر أقواس من أغصان الشجر وسطها الثريات، وتكسى الجدران كلها بالبسط «السجاد» في كثرة تسترعي النظر، وفي التاسعة مساء آويت إلى النزل، وإذا فيه مهرجان لقراءة قصة المولد، وكان يحضرها حفل حاشد، وتلك عادتهم في كل بيوتهم وغالب فنادقهم، فأعجبني ذاك المظهر الإسلامي وشدة محافظة القوم على تقاليدهم أكثر مما نراه عندنا، وفي آخر الحفلة طافوا علينا يرشون ماء الورد ويقدِّمون أكياس الحلوى.

ومن المسلمين هناك أقليات غير سنية، وبخاصة طوائف الشيعة الدينية، رأيت بعضهم هناك وعلمت أن جلهم يقطنون قرى الجبال الغربية، وجلهم من فلول طائفة الإسماعيلية، وهم من غلاة الشيعة قاموا لهدم الإسلام في فارس وامتدوا إلى جميع العالم الإسلامي، أساس مذهبهم أن الغاية تبرر الواسطة وأن كل شيء مباح، ويرون أن روح الإنسان من روح الله العليا، ويشكُّون في وجود الله، وكان الاغتيال المنظَّم مرماهم، يدبرون لقتل الخلفاء وذوي النفوذ والسلطان من المسلمين، وهم الذين نظموا طائفة «الباطنية» نسبة إلى الإمام الباطن المستور وفئة «الفدائية» يلقون في أفهام بنيهم أن الدين يأمر بالاستهانة بالحياة نظير المتاع الكامل في الآخرة، فكانوا يربُّون الأطفال على المخاطرة والقتل في غير خوف، وكان لهم معاقل فوق رءوس الجبال يحوطونها بالحدائق الغَنَّاءِ بشلالاتها وجداولها وقطوفها وزهورها ويدعون الفتيان إلى حضرة شيخ الجبل، وهناك يسقيهم الخمر والمخدِّرات، فإذا ما غاب لُبُّهُم نقلوهم إلى تلك الحدائق ومقاصيرها التي زُوِّدَتْ بالرياش الفاخر، وهناك تشجيهم أنغام الموسيقى، فإذا ما أفاقوا لمسوا نعيم الجنة في القطوف الدانية والكئوس الذهبية والغيد الحسان، وبعد أخذهم بقسطٍ من هذا المتاع يسقون المخدِّر ثانية فتغيب عقولهم، ثم ينقلون ثانية إلى حيث أتوا، ويُوهَمون أنهم لم ينقلوا من مكانهم، وأن ما رأوا طيف الجنة التي وعد الله بها من ضحَّى بنفسه، ولقد قال البعض بأن الذي كانوا يسقونه هو «الحشيش»، يزرعونه بكثرة في تلك الجهات، ولقد أطلق الأوروبيون على تلك الفئة من السفاحين الذين كان لهم شأن في الحروب الصليبية فئة الحشاشين Assassins ولا تزال منهم بقية في جبال الشام، ومعنى تلك الكلمة الإفرنجية اليوم «السفاحون».

والمعيشة في بلاد الشام رخيصة، ولعل الأجنبي يلاحظ ذلك أكثر من ابن البلاد لأن الجنيه الإنجليزي كان يساوي ٤٣٠ قرشًا سوريًّا أي نحو أربعة ليرات سورية وربع، ووجبة الطعام التي كنت أدفع فيها عشرة قروش مصرية من أفخر الأكلات الشهية، حدث

تحت تلك القبة المتواضعة يُدفن صلاح الدين بطل الحروب الصليبية.

مرة أني اشتهيت «الكباب» فدخلت أحد المطاعم، وجاء الغلام يقول: طلبك خيو. فقلت: كباب وكفتة ولعل الكفتة عندكم شهية؟ قال: أكتير شلبية! قلت: هات لي نصف رطل. فوقف الرجل دهشًا، فكررت عليه الطلب، فجاءني يكدِّس أمامي مقدارًا هائلًا من اللحم هو رطلان ونصف، فقلت: ما هذا كله؟ قال: نصف رطل. وعلمت أن الرطل السوري يقارب خمسة أرطال مصرية، فأكلت ما يقارب أوقية على حسابهم، وتركت الباقي وهو ثلاثة أرباع ما قُدِّم لي، ولم يكن ثمن كل هذا كبيرًا، إذ طلب مني اثني عشر قرشًا مصريًّا.

وفي مطعم آخر قرأت قائمة الأطعمة، فتخيرت الأسماء الغريبة التي لا أعرفها كي أجربها، فكان الصنف الأول «مألوبي شامي»، أي مقلوبة شامي، فجاءني الرجل بطبق من الرز أُغرق في لبن حامض وفي وسط ذلك نثير اللحم، فذقته وإذا به منفر، وكان الصنف الآخر «بقلى» وإذا بها الباقلة الحمقاء «الرجلة» التي أحبها فوليت صوب الحلوى، وطلبت

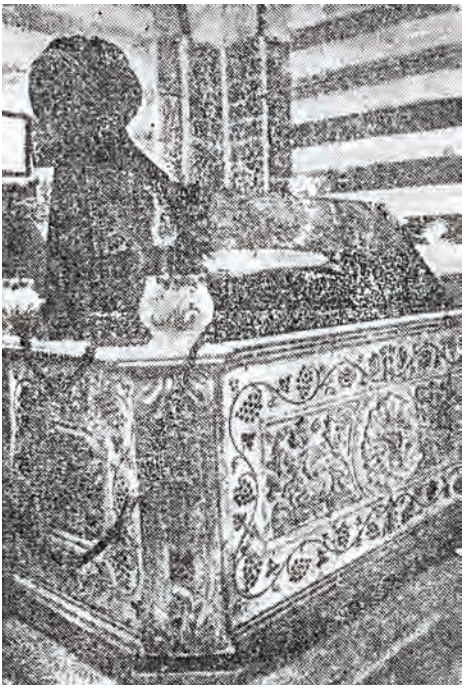

ضريح صلاح الدين الأيوبي.

صنفًا اسمه «بوظة شامي» فأسفرت عن «دندرمة» من الفستق والشمام والبطيخ مختلطة، فكانت منعشة نوعًا، ولو أني لا أشتهي «الدندرمة» كثيرًا، فقلت في نفسي كفاني فأنا اليوم غير موفق في الطعام، فلأطلب بعد اليوم من الأصناف ما أعرفها.

غادرت دمشق تلك البلدة التي تموج بنحو ربع المليون من السكان في أزيائهم المختلفة وسحنهم الجميلة، وإن أفسد هذا الجمال منطق منفر ممطوط وروح تعوزها الرشاقة والخفة، قمنا صوب:

بعلبك

مسيرة مائة وعشرين كيلومترًا بالسيارة سلكناها في طرق ملتوية واسترعى نظرنا في الطريق قبر «العظم» من قواد السوريين الذين قُتلوا في الحركة الوطنية في هذا المكان، هنا دخلنا

حدود لبنان الكبير. وفرنسا تقسم إدارة البلاد قسمين: سوريا وهي جمهورية لها رئيس وطني تحت إشراف فرنسا، وتلك خطوة أُرغمت عليها فرنسا لما رأت من شدة مقاومتهم لحكمها، أما القسم الثاني فلبنان وعاصمته بيروت، وتلك ولاية فرنسية لم تُعطَ من المنح ما أخذته سوريا، وفي أكثر من نصف الطريق مررنا بزحلة إحدى المصايف الهامة، وكانت تكثر حولها المزارع الوفيرة الثمر، فأرجأنا زيارتها حتى نعود وأخيرًا دخلنا.

بعلبك

آخر الآثار العظيمة لروما الوثنية وعلى مقربة من نهر العاصي، وهي قرية قديمة ليست بذات بال، اتخذها الروم محلة لأن موقعها صحي إلى جانب نبع ماء كبير يتفجر من تحت شرفات الصخر في غزارة هائلة، فيتجمع في نقيعة ممدودة أقيمت عليها المطاعم التي تناولنا فيها الغداء الشهي، واستمتعنا بهوائها البارد المنعش العليل؛ لأن البلدة تعلو البحر بنحو ١١٢٠ مترًا تقريبًا، وأجلُّ ما يزوره المرء بها الآثار الرومانية التي أقاموها في هندسة خليط من الرومية والبيزنطية، ويقولون: إن الذي بنى المدينة في الأصل سليمان بن داود، ولما جاء الروم جدَّدوها، وكان «بعل» معبودًا فيها من الصابئة الذين بنوا هذا الهيكل ليدلُّوا على اقتدارهم وهو الذي يقول الله تعالى فيه: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾، ولما ظهرت المسيحية وأيَّدها الروم أخذوا في تخريبه مخافة أن يُفتَن الناس به لأنه كان أفخم من كنائسهم، رأيناه فراعتنا فخامته وبخاصة معبد «جبتر بعل» بقي من عمده الأربعة والخمسين ستة فقط تشمخ في الجو في علو ستين قدمًا ومحيط تيجانها ٢٢ قدمًا، وقد نُقلت صخورها من محاجر البلدة التي تبعد عن المكان بنحو كيلومتر، وهناك بعض أعمدة من رخام استُحضرت من مصر؛ مما أيد مبلغ جبروت القوم وتقديسهم لآلهتهم وكم قاست المعابد من مغيرين حاولوا تدميرها وزلازل أوشكت أن تدكَّها، لكن ما بقي من تلك الآثار يؤيد صمودها لمختلف الديانات التي تعاقبت عليها في أزمنة كانت العصبيات الدينية آخذة من الناس كل مأخذ، ولقد أشار قدماء المصريين والأشوريين إلى بعلبك في آثارهم، وأسموها «بلبيكي» مقر عبادة «بعل»، وجاء الإغريق وألفوا بين الإله بعل وإلهتهم «هيليوس» وأسموها «هليوبولس»، ولما تملَّكها الروم ألَّفوا بين «هيليوس» و«جوبتر»؛ ومن ثَم خصوا المعبد الرئيسي بجوبتر إله هليوبولس، وانتشرت عبادته حتى في إيطاليا نفسها، والذي شاد تلك المعابد التي أثارت إعجابنا هو «أنطونيوس بيوس بين ١٣٨، ١٦١م» ولقد أذكرتني تلك الآثار الشامخة بمخلفات أجدادنا التي نطاول بها الأمم، ففي جدران البناء رأينا صخورًا

هائلة طول الواحد ٦٤ قدمًا، رفعت إلى علو ٢٣ قدمًا، فعجبنا كيف أمكنهم رفع هاتيك وفي المحاجر المجاورة للبلدة رأينا صخرًا قُدَّ في الجبل كأنه المسلة العظيمة، لكن لم يتم القوم استخراجه كالمسلة التي رأيناها في محاجر الجرانيت بأسوان، وطول هذا الصخر سبعون قدمًا وزنته ألف طن، ولما جاء العرب أقاموا بالمدينة عدة مساجد من الصخور والأعمدة التي انتزعوها من تلك المعابد، ولا يزال جانب من المسجد الكبير يُرَى ببوائكه وأعمدته إلى جوار تلك الآثار وفي قرية بجوارها اسمها «كرك نوح» قبر سيدنا يعقوب.

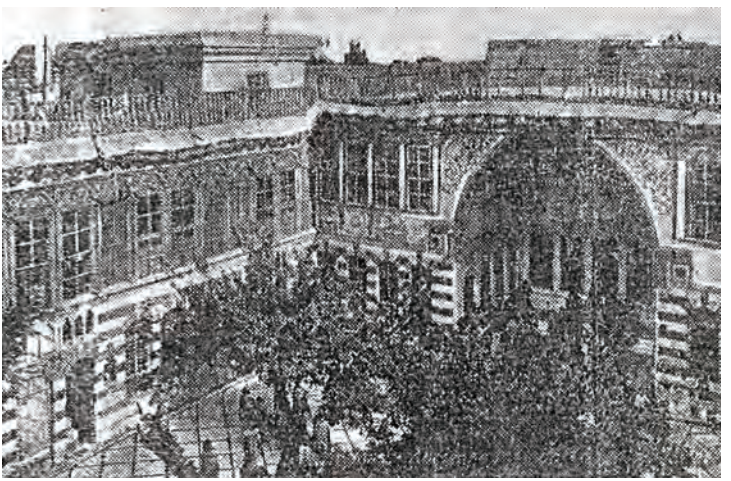

أقدم بيوت دمشق وأجملها في الحي الإسرائيلي.

زحلة

مدينة أنيقة من أشهر مصايف لبنان تحل مأزقًا من وادي تحوطه الجبال وتتدلى منها سيول الماء في كل مكان وتقوم على المنحدرات الفلات البديعة بسقوفها الحمراء المنحدرة ويتوسطها النبع الرئيسي، وقد قُدَّت في الجبال طرق ملتوية بعضها يعلو البعض حتى يبلغ بنا الذرى، ويكاد الشجر والنبت يسد الوادي سدًّا، وأينما سرت أو جلست أطربك خرير الماء وراقك منظر هداراته، ومن النبت البري ما له زهور جذابة ورائحة عطرية، واسترعى نظري شجر الجوز الضخم عريض الورق، فكان يحكي شجر المطاط، وكان يحمل وسقًا

ثقيلًا وإذا نضج أزاح القوم قشره الخارجي لتُتَّخذ منه الأصباغ، وما بقي هو الجوز الذي يباع في أسواقنا ولورقه رائحة عطرية هادئة تعطر اليد إذا لمسته وتعبق المكان إذا وضعت فيه، وقد نسق القوم جوانب الوادي وضفافه وأقاموا عليها الأنزال التي يبلغ عددها أربعة عشر والمطاعم والمقاهي التي لا يحصيها العد، وتفننوا في حبس الماء الدافق وتحويله إلى قنوات تسير يمنة ويسرة، فأينما جلست كانت المساقي تنساب تحت قدميك وطعم مائها لذيذ كأنه مثلوج وأنت تشرب منه المرة تلو الأخرى دون أن تشعر بامتلاء ويقولون: إنه مصلح للمعدة لما حوى من المركبات الجيرية المفيدة، وكم أعجبني نشاط القوم وعصبيتهم، فكل المشروعات في أيديهم، قاموا فحبسوا الماء في جهات عدة وأداروا به الهدارات المولدة للقوة، بعضها يستخدم لطحن الغلال والبعض للإضاءة الكهربائية والبعض لعمل الثلج والبعض للسقي، ولا تكاد ترى وسطهم أجنبيًّا وقد كان الوادي مهمَلًا، وهو من أملاك اليسوعيين شروه بجنيهات قليلة لكنهم اليوم يستغلونه استغلالًا مدهشًا، فإيجار الفندق الواحد قد يناهز ألف جنيه في العام، وغالب سكان البلدة من المسيحيين والتعليم في أيدي المبشرين. وجو البلدة منعش أميل إلى البرودة حتى كنت أشعر وكأني في شتاء مصر؛ لأن علو البلدة فوق تسعمائة متر والمعيشة فيها رخيصة، فلو أني أرغب في مقام هادئ لما آثرت على زحلة غيرها لما فيها من طبيعة غنية وهدوء شامل وجمال ساحر وهواء منعش وماء شافٍ سلسبيل. ولرواد الجبال هناك مجال عظيم، فللتسلق غرام لا يُقدِّره إلا هاويه، علمت بأن النبع الرئيسي للجدول (ويسمونه أم العين) يهوي في شلال علوه ٢٤٠ مترًا، فقصدته وإذا المرتقى إليه وعر يكاد يكون عموديًّا، لكن منظر الماء وهو يهوي ويتعثر على نواتئ الصخر في شلال هائل أغراني أن أصعد، وبعد لأي كنت في ذروته وإذا به يخرج من قلب الصخر السماوي في اندفاع مخيف.

إلى حلب

غادرنا زحلة بالقطار الساعة العاشرة صباحًا صوب حلب، فوصلناها في ثماني ساعات، وكانت الطريق أشبه بسهلٍ جافٍّ إلا في بقاع نادرة يزرع القوم فيها الغلال وبخاصة الشعير والقمح، وأكبر البلدان التي مررت بها: حمص: وهي مدينة كبيرة متحضرة بها مسجد عظيم بناه خالد بن الوليد، والسهل حولها خصب كثير المنابت وبجوارها قبر خالد بن الوليد، ثم تبعتها في الأهمية حما، وتقع على نهر العاصي الذي يصب في البحر الأبيض عند أنطاكية، وقد بدا جدولًا صغيرًا كان يتلوى أمامنا في ليات عجيبة، وقد أقيمت عليه

سوق الحميدية في دمشق ويؤدي إلى المسجد الأموي.

النواعير التي تدور بدفع التيار لرفع المياه إلى الأراضي المجاورة، ويرجع بعضها إلى زمن الرومان وفي المساء دخلنا:

حلب

فجبت بعض أرجائها فبدت مدينة كبيرة صبغتها إسلامية بحتة بمساجدها المتعددة غالبها على الطراز التركي بمنائره الدقيقة وقبابه المتكررة.

وقد زرت من بينها المسجد الجامع ويعدونه المسجد الخامس في الشرق الأدنى، وهو عظيم الامتداد ترصف أرضه بألوان الرخام المنسقة، وتحوطه البوائك ويضم رفات سيدنا زكريا أبي يحيى عليهما السلام، وأعجب ما فيه مئذنته المربعة ويرجع عهده إلى بني أمية.

إلى جوار أنقاض بعلبك.

وبالمدينة قلعة قديمة تشرف من روبة شاهقة بنيت فوقها من أحجار ضخمة وحولها حفرة كأنها الخندق العظيم نجتازه بقنطرة، ويحتل القلعة جنود فرنسا. وفي أقاصيص العرب أنها أقيمت على ثمانية آلاف عمود، ولعل أعجب شيء في البلدة أسواقها، فهي واطئة مغلقة تحت قباب حجرية كأنها السراديب المشعبة، وهنا قلب المدينة النابض من الناحية التجارية إلا في بعض الحوانيت الحديثة التي صفت على جانبي الشارع الجديد وهو يصل المدينة بمحطة الشام، وهو أكبر الشوارع وأجملها، وكثير من الدور أقيم على النمط التركي كي يبدو كالمساجد وتطل منه المشربيات العديدة، ومياه حلب رديئة شحيحة غالبها من الآبار تباع بسعر قرش «للتنكة»، ويشق البلدة نهر جاف تقوم عليه القناطر العدة، وكان غامرًا بالماء إبان حكم الأتراك ثم قطعوه اليوم عن البلاد وحولوا ماءه إلى بلادهم، والمدينة غاصة بالمقاهي ودور الملاهي في قسمها الجديد، وغالب الملاهي مراقص بعضها عربي

والبعض فرنسي، شهدتها فكان الرقص شائنًا تكشف الراقصة عن فخذيها وصدرها في شكل ينافي الآداب والشعب يهتز لتلك السخافات ويهتاج. ويظهر أن موارد البلاد محدودة لدرجة أن الحكومة توقفت قليلًا عن دفع المرتبات أول هذا الشهر (يوليو) على الرغم من أن أنواع الضرائب كثيرة متعددة، ومن أعجبها ضريبة المتعة، وهي ليرة وربع في العام على كل راشد بين ١٦ و٦٠ سنة، فقيرًا كان أو غنيًّا، وكذلك ضريبة النشر، فكل إعلان يخرج للناس يُلصق عليه طابع الضريبة، حتى إعلانات السينما ترى طابعًا بربع قرش سوري عليه، فانظر كيف يحصلون على الأموال ونحن في مصر لا نستطيع تحصيل شيء من الضرائب ونتساءل فيقال الامتيازات البغيضة، فهلا تكاتفنا على إلغائها فنوفر مبالغ طائلة ننفقها في رفع الأمية ونشر الثقافة في البلاد.

وسط بقايا المسجد القديم في بعلبك.

ويظهر أن العصبية الدينية شديدة هنالك فكل طائفة تحاول الإضرار بغيرها وهم متفرقون يكيدون لبعضهم، على أن العنصر الإسلامي هو السائد وفي البلاد حركة للتخلص من كل ما ليس سوريًّا في الوظائف والأعمال الحرة، والجرائد ناشطة في الكتابة تشجيعًا لتلك الناحية، ولو أفسدها اتهام كل حزب الآخر بالتعصب، وقدمًا كانت بلاد الشام نكدة

الحظ رغم كثرة خيراتها؛ وذلك لأنها عرضة للغارات بين الشرق والغرب وهذا ما يقوض من عمرانها ويزيد تدهورها ما هم فيه أبدًا من شقاق وتحزب، فكأن ظهور المرسلين فيهم هو الذي دعا إلى هذا التحزب المقيت.

إلى الأناضول

قمت مبكرًا في قطار ٦,٤٠ صباحًا إلى أنقرة، فسار بنا القطار وسط سهول ممدودة غالبها صخري شبه صحراوي مهمل، ولما دخلنا الحدود التركية بدأت الجبال والربى المعقدة، وأخذت تتلوى سكة الحديد ودخلنا أنفاقًا لا حصر لها، وكلما واصلنا السير أخذنا في الصعود لنغالب ليات الجبال وارتفاعها المتزايد، وأخذت تكسوها الشجيرات، ثم أوغلنا في تيه من الأنفاق بعضها كان القطار يستغرق في اختراقه ربع الساعة، وكانت المناظر حولنا ساحرة خصوصًا كلما فاجأتنا الوديان السحيقة تتلوى في قيعانها الغدران النحيلة. أما الأهلون فنادرون في تلك البقاع، فلا يكاد البصر يقع على القرى إلا الصغير النادر، وتلك هي مجموعة جبال طوروس بصخورها الجيرية، وبين آونة وأخرى كانت طيات الصخر تبدو في ألوان قاتمة أو براقة؛ مما يشعر بقدم الصخر، وكثرت رقائق الشيست؛ ولذلك لم نعجب لما سمعنا بكثرة المعادن هناك مثل: الحديد، والنحاس، والفضة، والكروم، والميكا.

وحوالي الرابعة مساء دخلنا سهولًا اختفت من حولها الجبال وزاد النبت وكثرت مسايل الماء، على أن ماءها كان ضحلًا شحيحًا، فكان المنظر شبيهًا بمصر المحبوبة وفي وسط هذا السهل وقفنا على:

أدنا

من كبريات مدن جنوب تركيا وبعدها عادت الجبال وأنفاقها ومناظرها الساحرة. والحق أن سكة الحديد هناك تدل على مبلغ جبروت القوم في مغالبة القوى الطبيعية الهائلة، ويفاخر الأتراك أن هذا الجزء المعقد كله أقيم بمجهود أبنائهم ولم يكن للأجانب فيه دخل قط، وسكة الحديد كلها بيد الحكومة التركية بعد أن كان جلها لشركة فرنسية، وقد شروا كل المشروعات الأجنبية في سائر بلاد الأناضول فأضحت تركية بحتة. ظل القطار في صعوده ولياته وأنفاقه حتى أقبل على سهل فسيح تتوسطه قونية: وكان وقوفنا بها الثانية صباحًا، فبدت مدينة ممدودة هائلة تحكي إحدى البنادر الرئيسية عندنا وكانت

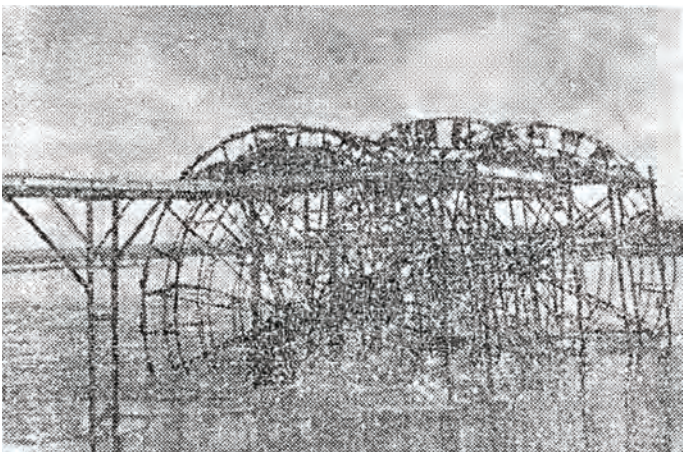

نواعير الماء التي شُهرت بها حلب.

أضواؤها الكهربائية منثورة وضاءة، وقد علمت أن فيها مدفن أفلاطون الحكيم وقبر جلال الدين الرومي المعروف بمولانا وإليه تنسب طريقة «المولوية»، ولبثنا نسير في تلك السهول الغنية طويلًا وهي تزرع على المطر ويعوزها المران المصري الزراعي كي تغل أضعاف ذلك، فمشروعات الري تكاد تكون معدومة والأيدي العاملة نادرة وأدوات الزراعة عتيقة كالمحراث المصري يجره البقر والشادوف ينزل دلوه إلى الآبار الغائرة وينتشل منها باليد أو الدواب ومظهر البلاد كلها يبدو إسلاميًّا بحتًا، ففي كل القرى تبدو المآذن التركية الدقيقة، ولم نلمح كنيسة واحدة في كل تلك البلاد إلى أنقرة، وكثيرًا ما كنا نمر بالناس يقيمون الصلاة في حقولهم وعلى رءوسهم قبعاتهم في كثرة أشعرتني بأن النزعة الدينية ما زالت قوية. وكانت تُحصد الغلال كالقمح والشعير، أما المراعي من البقر والضأن فلا حصر لها إذ هي المورد الرئيسي، وكان اللبن والجبن يبيعه الصبية في كل المحاطِّ وبخاصة اللبن الحامض الذي يشربونه بدل المرطبات جميعًا. والخيل مطيتهم الرئيسية وبيوت القرى بالحجارة الصغيرة متحدرة السقوف، لكن طرقها ضيقة مهملة رديئة والأهلون يرتدون حللهم الإفرنجية وعلى رءوسهم القبعات (في شكل الكسكت) والنساء سافرات لا يفترقن عن الإفرنجيات، وقد ساغ هذا الانقلاب الاجتماعي اليوم للناس بعد أن كان معارضوه كثيرين في بدئه شأن كل جديد، وشتان بين حالتهم يوم زرتهم في إسطنبول سنة ١٩٣٠

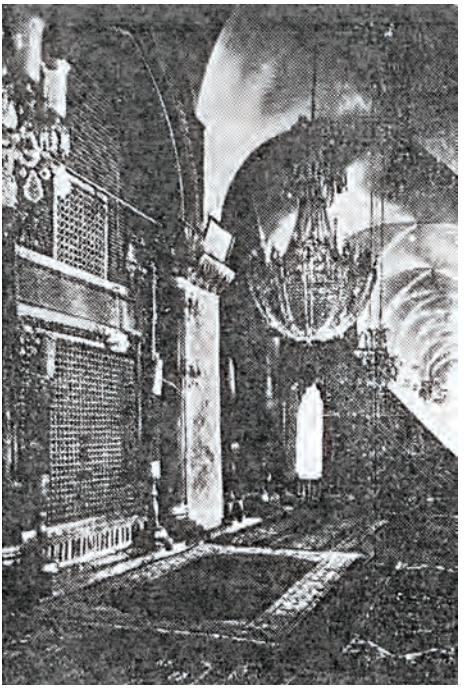

مقبرة سيدنا زكريا داخل المسجد الجامع في حلب.

وبينها اليوم، دخلنا أفيون قره حصار: ومعناها «قلعة الأفيون السوداء»؛ لأن أحسن منابت للأفيون تقوم حولها، ولأن قلعتها تعلو فوق ربوة سوداء هائلة (٨٠٠ قدم) جعلتها منيعة والمدينة كبيرة وتقوم وسط سهل تربته مختلفة بعضها في لون أسود والبعض أصفر والبعض جيري يكسوه الحصى، ولا تقوم المدن الكبيرة هناك إلا وسط الوهاد المبسوطة التي تنأى عنها الجبال وعندما وصلنا اسكي شهر: أخذت سكة الحديد تتفرع إلى عدة نواحٍ وهي مركز زراعي وتجاري هام، وبها مصنع لسكر البنجر يموِّن قسمًا كبيرًا من البلاد، وبيوتها حجرية ومن طابق واحد، وبجوارها رأينا مدرسة الطيران التي لا يزال البناء فيها مستمرًا، وفي جوار المطار هناك استشهد في حرب الاستقلال خمسة آلاف تركي سفك اليونان دماءهم ظلمًا، فأقامت الدولة لهم مدفنًا خاصًّا كُتب عليه «مدفن شهداء الوطن»، وكان يرمقه المسافرون جميعًا بنظرات الإكبار، وعند الأصيل قبيل دخولنا أنقرة بساعتين

وقفنا بمحطة كبيرة اسمها: بولاتلي وهنا كانت الموقعة الفاصلة بين الأتراك والإغريق الذين اجتاحوا البلاد من أزمير إلى هنا، وكانوا يطمعون في احتلال أنقرة ومحو تركيا من الوجود، وكانت تعاونهم على ذلك بعض الدول العظمى وأمدتهم بالمال والأسلحة، ولكن بفضل وطنية الغازي وسحر بيانه استحث الحماسة التركية فاستمات الأتراك في الدفاع عن حوزة الوطن نساءً ورجالًا، فسحقوا في هذا المكان الجيش اليوناني عن آخره، وقد حفزهم على ذلك ما كان يأتيه اليونان من الفظائع في قتل أهل القرى وإحراقهم، وهناك أيضًا أقاموا مدفنًا فاخرًا للشهداء سرت إليه وانحنيت إكبارًا وقرأت لأولئكم الأبطال الفاتحة، وقد نزل معي من القطار أغلب ركابه وهم يشيرون إليهم قائلين: هؤلاء بقيادة الغازي هم الذين طاردوا العدو واكتسحوه حتى ألقوه البحر وراء أزمير وطهَّروا البلاد منه وكان عدد العدو الذي هلك ٢٤٠ ألفًا، مع أن عدد الأتراك لم يزد على ٤٥ ألفًا. ذكريات خالدة كان يقصها عليَّ بعض أبناء الأتراك والوطنية تكاد تنفرج من وجناتهم، وكان الغازي يأخذ نصف أملاك الناس ومتاعهم جميعًا للإنفاق على الجيش على أن يردها إليهم بعد النصر، وكان القوم يقبلون ذلك قبولًا حسنًا، ولا تزال الدولة تسدد لهم ديونهم هذه إلى اليوم. وبعد أن أجلوا الإغريق ومكَّنوا لأنفسهم في الجهات الغربية ولوا وجوههم صوب الحدود الداخلية، فطاردوا الأرمن إلى ما وراء أرضروم وبحيرة فان، وأخذوا بلاد الأكراد وأعادوها لحظيرتهم، وانمحت دولة كردستان من الوجود، ثم طاردوا الفرنسيين وألزموهم حدود سوريا الطبيعية وراء جبال طوروس. دهشت من هذا الفوز في أناس يكادون يكونون عزلًا، وكان يطوقهم العالم من جميع جوانبهم، ولكن كيف يكون أعزل من صح عزمه وصدقت وطنيته وجعل نفسه فداءً لوطنه. كانوا يحاربون العدو بقلوبهم الراسخة وإيمانهم الوثيق نساءً ورجالًا، وبعد أن استتب لهم النظام العسكري قام الغازي العظيم يصلح البلاد من وجوهها الأخرى اجتماعيًّا واقتصاديًّا، فبدأ سياسة الإنشاء والتعمير وأخذ في تعبيد الطرق ومد سكة الحديد وهي في نظري تعادل أرقى الخطوط الأوروبية نظافة ودقة، يديرها الأتراك في نشاط حميد، ثم أخذ يمهد للشركات الوطنية ويعاونها بالقروض والتسهيلات حتى كثر عددها جدًّا وأسس المصارف الوطنية، وأخذ يقيم الأبنية في البلدان الكبرى — وبخاصة أنقرة — على أحسن طراز، ثم إنه لم يغفل حالة الفلاح فقد كانت الأراضي ملكًا لطائفة قليلة من الأغنياء، فمثلًا كانت سهول أدنا الشاسعة ملكًا لعائلة واحدة، فابتاع كل المساحات الشاسعة وقسَّمها قطعًا صغيرة باعها لصغار الفلاحين بشروطٍ سهلة، واتخذ نفسه مثلًا حسنًا إذ وهب من أرضه الكثير، وأعلن أن أملاكه جميعها لن تورث أحدًا من عائلته بل سترثها الدولة، وهو يكاد يكون معبود القوم جميعًا كلما حدَّثك أحدهم عن البلاد

ذكره بالخير وفاخر باسمه، وحتى معارضوه قد قل عديدهم جدًّا، وذلك شأن المصلح الذي يغامر ويخدم مبدأه دون خوف، وكلما ظهرت ثمرات أعماله أحبه الناس وأيده خصومه ويكاد يتفق الجميع على أنه ليس في البلاد سواه هو ووزيراه عصمت ورشدي، فهم القوة المنشئة المنفذة، يرتب الغازي الفكرة ويغامر بتنفيذها واثقًا من النجاح. وفي شئون التعليم قام بقسطٍ من الإصلاح كبير، فأدخل في المدارس أحدث النظم ومحا العتيق وسهَّل اللغة بالحروف اللاتينية التي تعلمها الجميع وقد فرضها على الناس إلى سن الأربعين نساءً ورجالًا، ومن زادت سنه فله الخيار، وقد علمت أن الجميع حتى الشيوخ يقرءونها اليوم بسهولة، يؤيد ذلك كثرة الجرائد التي كان يقرؤها الفلاحون ويتخاطفونها من القطار على سذاجة منظرهم ورث ثيابهم، ولقد جعل التعليم إجباريًّا وقسَّم المدارس إلى ابتدائية وثانوية وعليا، وجعل برامج التعليم قومية وطنية لا يتعلم الطالب اللغة الأجنبية إلا في المدرسة الثانوية، ولم يختصها بلغة معينة، فبعض المدارس تعلم الإنجليزية، والبعض الفرنسية وهي الغالب، والبعض الألمانية وهلم جرًّا، وهو لا يحتم على الطالب إضاعة جل وقته في اللغات الأجنبية كما نفعل في مصر؛ لأن ذلك لا شك سيكون على حساب التوسع في العلم نفسه، فهو يعلمهم مبادئ اللغة ويترك التبحر لمن تخصص بعد، وهناك قسم لترجمة مستحدثات العلم إلى لغة البلاد؛ لذلك وجدنا صعوبة كبرى في التفاهم معهم؛ لأن من يعرف الفرنسية أو الإنجليزية لا يجيدها قط بل لا يكاد يتفاهم بها، وهم متعصبون للغتهم جدًّا لا تراهم يكتبون بطاقاتهم ولا عنوانات متاجرهم، إلا بها في حروفها اللاتينية والغازي يتعقب بنفسه الكلمات التي من أصل عربي ويمحوها ويمنع استخدامها منعًا باتًّا ويحل محلها كلمات تركية صميمة، وقد كانت الألفاظ العربية شائعة بين الطبقات الممتازة وفي اللغة الرسمية من قبل أما اليوم فيحاول محوها.

أنقرة

دخلناها ليلًا فبدت أضواؤها خاطفة وثريات الكهرباء بها منثورة على الربى وفي السهول في مشهدٍ جميل، وقد أقيمت قبل أنقرة مباشرة ضاحية «الغازي»، حيث يقوم قصره وتمتد حدائقه المنسقة امتدادًا فسيحًا، وهي تكاد تلتهب ضوءًا، حللت نُزُل «أناضول» وقمت في الصباح أجوب أنقرة، وإذا بها قسمان قديم وحديث، فالقديم في أزقته الحجرية المتحدرة وبيوته المكتظة الصغيرة المطلة بشرفاتها نصف العربية ولياتها غير المنظمة تشرف عليها قلعة المدينة في ربوة شاهقة وتقوم كثير من الأبنية على منحدراتها وتعوزها النظافة وحسن

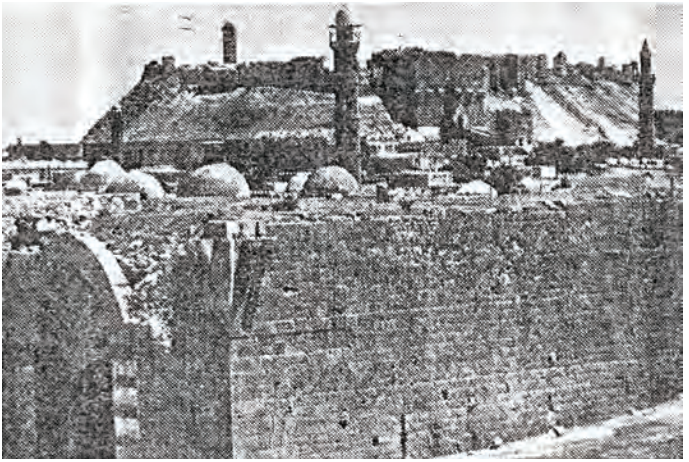

مدخل سوق القطن في حلب وتشرف عليه قلعة المدينة وكأنها الطود الشامخ.

البناء، وفيها يدفن امرؤ القيس وقد فتحها المعتصم الخليفة العباسي وفيها وقع السلطان «بلدرم بايزيد خان» أسيرًا في يد تيمور لنك سنة ١٤٠٢. والقسم الحديث يعادل أرقى البلدان نظامًا قصوره فاخرة بولغ في ضخامتها وتجميلها والطرق به فسيحة ومنابت الكلأ تحفها الأشجار في امتداد رائع وفي وسط غالب الميادين تقوم تماثيل الغازي، ولعل أجملها ميدان «ملت ميدان» والغازي يمتطي جوادًا ووراءه تركيا في امرأة عجوز تحمل قنبلة ووجهها مقطب كئيب وقد أعياها التعب، وإلى جانبها الأمامي جنديان بأسلحتهما يكشفان الطرق ويتأهَّبان للفوز. والمدينة على صغرها كثيرة الحركة أهلها أهل نشاط وشعور عجيب بالعزة القومية شأن كل أبناء الأتراك، وهم جميعًا مؤدبون كريمو الطبع يزين ذلك وقار ورزانة جعلت لهم مهابة وأنفة وهم فخورون بفوزهم لا يفتأ الواحد يقص عليك نبأ حرب الاستقلال ويمجِّد لك في تركيا وما فيها ويعتذر عن بعض النقص والتأخر في البلاد التركية، فحركة الإصلاح لم يمر عليها عشر سنين، وقد خلَّفت الحكومات الماضية للحكومة الحاضرة تراثًا موبوءًا ثقيلًا يتطلب الاضطلاع به وإصلاحه مجهود الجبابرة وأموال الملايين، وكم كان عجبي عظيمًا عندما كنت ألمس حركة النهوض في كل شيء وفي سرعة عجيبة رغم عوز البلاد المالي الشديد، لكن الإخلاص وخلو البلاد من الدخيل هو الذي أكسب القوم قوة تدفع بهم إلى النجاح المتواصل، وحتى في الناحية الدينية هم يمتدحون

للغازي تصرفه، فقد أوقف كل الترهات والشعوذة التي تحطُّ من شأننا وشأن ديننا كثيرًا، وحرَّم الزواج بغير واحدة، وأباح للشاب انتقاء خطيبته، وحتَّم على المرأة التعليم على قدم المساواة مع الرجل، فما دخلت مكتبًا أو متجرًا إلا وكان للنساء فيه عمل واضح، وحتى في الصلاة تقام الشعائر الدينية ويدخل الناس المساجد بالقبعات، وإن شاءوا خلعوها ووضعوها على الحمالات في جوارهم، وإن شاءوا أداروا أفاريزها إلى أقفيتهم وأدوا الصلاة، مثبتًا بذلك أن الدين لا يحتِّم زيًّا خاصًّا قد يقعد بتقدم الشعب حتى عن الحركة والنشاط، وكنت كلما جلت في البلدة وتفقدت مختلف نواحيها زادني الإصلاح الذي يجري بها سراعًا دهشة وإعجابًا. صعدت الربوة المشرفة على أنقرة حيث القلعة القديمة ونقبت في أزقتها التي تضم طائفة من الأهلين في أكواخٍ بائسة وكان يبدو على الناس الفقر وهم في أسمالهم المهلهلة، ولكنهم كانوا رغم ذلك فخورين بتركيتهم واستقلالهم، وما فائدة الغنى في الأسر والأغلال! وكانت تتجلى من دوننا أنقرة الجديدة في طرقٍ فسيحة وقصورٍ مشيدة بولغ في تنسيقها وتضخيمها وبخاصة دور الحكومة، والدولة آخذة في إقامة العمارات في كل مكان، وفي تنسيق المتنزهات للشعب تفتح أبوابها دائمًا وتعرف فيها الموسيقات كل أصيل، وبخاصة في متنزه البرلمان الذي تزيِّنه الأبنية وأحواض من الماء مدرجة صفت المقاعد حولها، فكنت أرى الجماهير يغص بهم المكان والنساء سافرات يختلطن بالرجال في رزانة وصمت وهدوء حتى كان يخيَّل إليَّ أني في مونت كارلو تمامًا.

والدولة تقصد بعزف الموسيقى هكذا أن تدرِّب آذان الناس على الأنغام الغربية، فإذا طوَّحت ببصرك لمست إخلاص الدولة وتفانيها في النهوض بكل شيء، وكنت أتساءل من أين لهم تلك الأموال ونحن رغم توافر مواردنا لا نفي بالواجب؟ حقًّا إن كل قرش يدخل خزانة الدولة ينفق في التعمير والإنشاء. ويزيد إعجابنا إذا علمنا أنهم ينفقون على جيش كبير بمعداته وطياراته وبواخره، هذا إلى الهمة المدهشة التي يبذلونها في ربط أطراف البلاد بسكة الحديد رغم تكاليفها الباهظة في تلك البلاد الجبلية الوعرة، فالخط إلى البحر الأسود مد إلى طربزون وفي شرق أنقرة كاد يصل إلى أرضروم، وفي الجنوب وصل البحر الأبيض وفي الجنوب الشرقي وصل إلى نصيبين، كل هذا كان يدهشني والحكومة فقيرة والناس معوزون، ولكن كفى بالاستقلال معينًا على ذلك، فغياب الأجنبي من المجال الاقتصادي أفسح المجال لأبناء البلاد فعدوا إلى التقدم سراعًا، وأنت لا ترى اليوم للأجنبي في بلادهم من أثرٍ قط.

ونساء الأتراك رغم سفورهن بعيدات عن الخلاعة والإسراف في التزين، فهن يسرن في وقار، وهن في نظري لسن ساحرات في الجمال، والجمال الفاتن نادر بينهم، فالشاميات

سوق حلب كأنه السرداب الحجري.

أوفر جمالًا كذلك تعوزهن الرشاقة، ولم يقع نظري على سيدة تحكي «كرمان هانم» ملكة الجمال لديهم، ولذلك لم أعجب لانتخابها رغم أنها دون ذاك المقام في ظننا، لكني أعود فأمتدح فيهن هذا الاتزان والوقار، فالتركية زوجة فاضلة لا محالة، وكنت ألاحظ كثيرين منهن يلبسن ملاءات وفوق الرأس قناع أسود كالستار لكنه بدل أن يُسدَل على الوجه يُرفَع فوق، الرأس فظننت أن هذا من أثر الرجعية الأولى.

وتكثر هنالك المقاهي والمقاصف، وفي غالبها تسمع الحاكي بأنغامه التركية وأغانيها الشجية، ويظهر أن الكثير منهم ميَّال إلى المسكرات، وبخاصة «العرقي والزبيب»، فما يكاد الليل يقبل حتى تراهم عاكفين على شربه ولا يخف قرع النرد ليلًا ولا نهارًا. دخلت مرة مُغنًّى تركيًّا شرقيًّا على نمط «ألف ليلة» في مصر، فكانت الآلات الموسيقية: الكمان والعود المعدني والقانون يعزف بالمضارب لا بالأصابع، ثم الرق والناي، وأمام كل أولئك سيدتان

الغازي مصطفي كمال باشا بطل النهضة التركية.

في حشامة ووقار، وكانت الأغاني مقطوعات على نمط الموشحات تتقدمها الموسيقى الصامة في بشارف قصيرة ومقطوعات مثل «اللونجا»، ولم ألاحظ بينهم عادة التقاسيم الفردية من العود والكمان وغيرها. أعقب ذلك فاصل آخر عرض فيه العازفون بعض الموسيقى الإسبانية في شبه طنبورة ومزمار طويل ودف، وكان يلبس العازفون أردية عجيبة من سراويل ضيقة «وجكتات» زرقاء ورئيسهم في معطف أخضر طويل، وأمام أولئك صف من السيدات تغطي رءوسهن بمنطقة بيضاء، بدءوا العزف في دور موسيقي صامت، ثم أعقبه مغنًّى حماسي، ثم رقص إسباني يصحبه تصفيق من الفتيات وصيحات من الرجال فيما يحكي «الرقص البلدي» عندنا، فكان الطرب آخذًا منا كل مأخذ فقلت في نفسي لِمَ لا يحاول معهد موسيقانا عرض مثل هاتيك الشرقيات، فيعطينا فكرة عن موسيقى جيراننا: الأندلس والمغرب والشام والترك والعرب، وهي أقرب إلى أسماعنا من موسيقى الغرب التي لا تروقنا كثيرًا؟

قصدت إلى مقر الغازي حيث قصره المنيف يشرف على ربوة حولها حدائقه ودونها حي «تشان كايا» الحديث في طرقه الممدودة وقصوره الفاخرة، وهي مسكن الطبقات

مثل من الأحياء القديمة الأثرية وتحتها القلعة.

الأرستقراطية ودور السفارات، ومن بينها سفارتنا، وكنت أعجب لاختيارهم أنقرة في ذلك الموقع المجدب الجاف تحيطه الربى التي عريت عن النبت في منظرٍ غير جذَّاب، على أن موقعها المتوسط من هضبة الأناضول وسهولة تحصينها بسبب ما يحوطها من ربًى يبرر في نظري هذا الاختيار، إذ لو أقيمت في أطراف الدولة وهي أوفر خصبًا لتعرضت لهجمات العدو، والقوم مبالغون في نشر المتنزهات ووسائل التجميل في كل ناحيةٍ، وترى أفراد الشعب يدخلونها بدون قيد حتى متنزهات دور الحكومة وقصور الغازي، وكنت أرى ديمقراطيتهم بادية في تجاور الفقراء بأسمالهم الرثة وهم الأغلبية إلى جانب الأغنياء. وعناية القوم بأطفالهم زائدة فكنت أرى الأب المدقع في ثيابه البالية يحمل طفله في هندام نظيف ووجه أبيض ناصع لا تشوبه قذارة قط، والرجال يعنون بأطفالهم ونسائهم، فترى زوجة هذا الفقير في أردية نظيفة فلا تكاد تصدق أنها زوج ذاك الصعلوك. وأجمل ما

تمثال الغازي وسط ملت ميدان.

يروقك هندام الضباط من الجيش والبوليس، مظهرهم مهيب في ملابس أنيقة، على نقيض الجنود، فأرديتهم رديئة مهلهلة، والغريب أن كل أولئك الأفراد على مظهرهم الرث يقرءون ويكتبون، وقد علمت أن نسب من يعرفون القراءة من عامة الشعب ٨٩٪ بعد أن كانت لا تزيد على ١٠٪ من قبل، وذلك بفضل الجهود الجبارة التي بذلها الغازي منذ افتتح المدارس الشعبية والليلية في جميع القرى، وأجبر الأميين أن يحضروها إلى سن الستين، ومن تخلَّف عوقب، فهل هذه جهود سنوات عشر؟ ونحن في مصر الغنية الموارد لبثنا فوق العشر سنوات في نهضتنا، ولم نستطع رفع نسبة القراءة إلا قليلًا؟ فهم لم يشترطوا للتدريس مكانًا كامل العدد والشئون الصحية كما نفعل، ولم يحتم أن يكون المدرسون ممتازين، فإن ذلك يصعب توافره في البدء، فالأمر الهام لديهم أن يصبح جميع الناس ممن يستطيعون القراءة، أما المثل العليا فسبيلنا إليها لا يكون إلا بعد محو الأمية كلها.

أول ما بدأ الإنشاء فيما جاور القلعة.

ويحرم القانون التركي الكتابة بغير الحروف اللاتينية، وهي أسهل على الناس كثيرًا من الحروف العربية، كذلك الصلاة لا تكون إلا بالتركية، فلا يقول المؤذن «الله أكبر»، بل يصيح بمعناها التركي، وقد تُرجِم القرآن، وتلك الترجمة هي التي تدرس في المدارس، ولمن خالف ذلك وقرأ أو صلى بالعربية سُجن ثلاث سنين.

والمعيشة في أنقرة أغلى منها في البلاد الأخرى؛ لأنها تقع وسط إقليم جاف قليل الإنتاج وغالب حاجاتها تردها منقولة من الخارج، أما الطعام التركي فشهي لذيذ يفوق كل ما تناولته من أطعمة في البلدان التي زرتها في جميع جولاتي، وللترك شهرة قديمة في الطهي على أن الغريب بينهم يصعب عليه التفاهم معهم؛ لأنهم لا يكادون يتكلمون سوى التركية، وطالما تورطت في مطاعم كانت تقدم إليَّ قوائم الطعام بالتركية والخدم لا يفهمون غيرها، فكنت أتخيَّر الأصناف مصادفة. حدث مرة أني بعد أن كدت أفرغ من الطعام طلبت صنفًا كُتِب هكذا Cirez Salaten فخُيِّل إليَّ أنه خشاف فاكهة الكريز، فجاءني الغلام به دهشًا، فنظرت وإذا به مجموعة من السردين والفجل والزيتون وموالح أخرى لم أعرف اسمها، فأكلته إيهامًا بأن أكل الحوامض عندنا في آخر الطعام، ثم تخلصت من الموقف بطلب القهوة. أما في النزل فكانت حيرة التفاهم أدهى وأمر، وكل يوم كانت لنا فصول كلها تزيد الموقف لذةً وتفكهةً.

نزل الغازي إلى تلك السهول وأقام عليها أنقرة الجديدة.

اعتزمت السفر إلى نصيبين فالموصل مخترقًا بلاد كردستان، ولم أكن قد بدلت نقودي، فقمت مبكرًا يوم الجمعة (١٤ يوليو) وإذا بالبلدة كلها مغلقة؛ إذ هو يوم العطلة الأسبوعية، وكنت أخاله من قبل يوم الأحد، ولم أجد حتى صرَّافًا، فحرت في أمري واضطرني ذلك أن أسافر في الدرجة الثالثة، حيث لم يكف ما كان معي من نقود ثمنًا لتذكرة الدرجة الثانية، والحكومة تحتِّم على الناس جميعًا أن يغلقوا متاجرهم كلها إظهارًا لقوميتهم، وحتى محال البدالة والفنادق كانت تغلق أبوابها وتُعَلَّق عليها الأعلام وفي الحق لم أتمالك أن أحترم الأتراك ففيهم وحشية الطورانيين تلك التي هذَّبها الأثر العربي والدين الإسلامي، فالتركي في أرضه عامل مُجِدٌّ صادق رزين شريف غير منافق متقشف يقطن أكواخًا فقيرة من طين ليس بها من وسائل الراحة شيء، مظهره جدي مقطب ويكاد يكون فدائيًّا، ورغم حكوماته السالفة التي كانت تستبد به ظل التركي ديمقراطيًّا في مجتمعاته وبعيدًا عن الإجرام كل البعد، وأنت تراهم في الطرقات يسيرون في نظام وفي غير جلبة ولا ضحك، ففي أخلاقهم شيء كبير من الخلق الإنجليزي والياباني، وهم مؤدَّبون في الحديث، فبدل أن يقول لك الواحد عند لقائك مثلًا: «مسرور بلقياك»، يقول: «إن أسعد ساعات السعادة ساعة ألقاك فيها».

قام بنا القطار ووقف على محطة الغازي حيث مزارعه الشاسعة، فكان سيل المتريضين دافقًا من كافة الطبقات، فكنت أرى الفقراء المدقعين مسافرين إليها بعائلاتهم

مثل من المباني والمتنزهات والطرق الجديدة في أنقرة.

ليمضوا في الخلاء وسط تلك المناظر الساحرة سحابة يومهم، والغازي يشجع ذلك تشجيعًا للديمقراطية وإصلاحًا لصحة بني قومه. بعد ذلك سار بنا القطار وسط تلك الهضاب الفقيرة التي لا يكاد يكسوها سوى العشب القصير إلا في بقاعٍ نادرة كان بها نبات القمح والشعير والطباق والأفيون، ومررنا ثانية بأسكى شهر وأفيون قره حصار وقونية، وبعدها أوغلنا في عقد الجبال، وتحسَّن المنظر لما أن دخلنا عقد جبال طوروس بلياتها وأنفاقها المدهشة، ثم كساها الشجر وكانت بقع الثلج تكسو ذراها تنزل منها مسايل الماء، وقبيل أدنا بدا خانق كيلكيا المنيع الذي هزم الأتراك فيه الجيوش الفرنسية هزائم سُجِّلت لهم بالفخار، وكنا نشاهد الأخشاب التي تقطع من تلك الغابات توسق في تلك المحاط، وأخيرًا وصلنا أدنا وبعدها «فوزي باشا» حيث غيَّرنا القطار صوب حلب، ثم اخترقنا جبال «انتي طوروس»، وهي أقل من جبال طوروس روعةً، وفي حلب غيَّرنا القطار ثانية بعد أن مضى علينا ٤٨ ساعة من أنقرة، وقمنا إلى نصيبين فدخلنا الحدود التركية كرة أخرى.

في أرض كردستان

بعد أن قطعنا ثلث المسافة إلى نصيبين (مسافة ٤٠٠كم) دخلنا أرض كردستان فغابت الجبال إلا في شبح فاتر عند الأفق الشمالي، وهي الحافة الجنوبية لهضبة الأناضول، وكانت

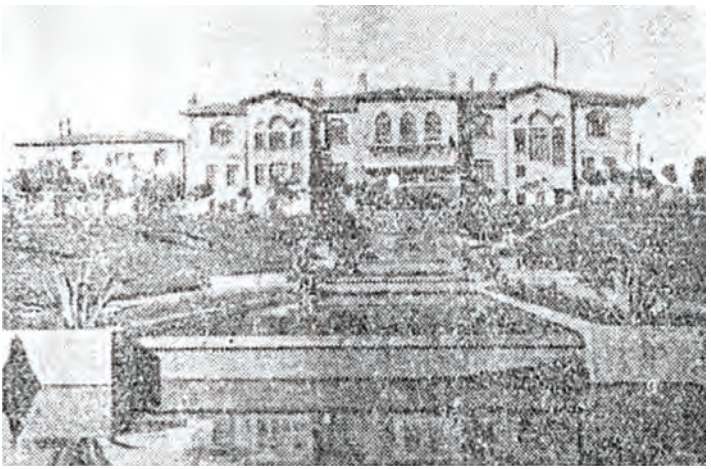

الدار الجديدة للبرلمان ومن شرفته تُعزَف الموسيقى كل يوم عند الأصيل.

السهول مهملة تكسوها أعشاب برية يابسة وعند بلدة اسمها جرابلس عبرنا نهرًا باسمها عظيم الاتساع وإن كان ماؤه شحيحًا آسنًا إذ هو موسم الجفاف هناك، وكان الإقليم شبه صحراوي حره لافح ممض ولم نستطع شراء شيء من المرطبات على المحاط سوى القثاء والبطيخ، وكدت أسمي تلك الجهة ببلاد «البراغيث»؛ لأنك تسمع تلك الكلمة على لسان الجميع، والبرغوت عملة البلاد الرئيسية، وهو من بقايا النقود التركية القديمة؛ لذلك كنا نراه ذائعًا في شمال سوريا أيضًا، وهنا تغيرت القرى فأضحت بالطين بدل الحجارة، وكان المنظر شبيهًا بمصر في انبساطه إلا في عدم وجود شجرة به قط، والناس هناك يتكلمون أربع لغات: التركية (ثلثها عربي وثلثها فارسي وثلثها تركي)، والكردية (غالبها فارسي)، والأرمنية، والعربية، وفي باكورة الصباح وصلنا نصيبين أي بعد سبع عشرة ساعة من حلب، فإذا هي قرية كبيرة ليس بها ما يُذكَر سوى حصن قديم، وفيها يقيم جيش الحدود التركي، وفي ملصقتها تمامًا يقف جيش فرنسي؛ لأن حدود سوريا تبدأ بعدها مباشرة، والناس هناك خليط عجيب من الأرمن والكرد والعرب والشوام في أشكال قذرة ومظهر مخيف فكأنهم جميعًا من قطاع الطرق، وكان يسترعي النظر الكردي بعيونه السوداء البراقة الواسعة وأنفة الأشم وقامته الطويلة وشعره الأسود الغزير، ونساؤهم يلبسن خرقًا

مرقعة ويدلين من الصدغين خصلتين ثقيلتين طويلتين من الشعر وتربط الجبهة بمنديل ملون وكأنهن «الغجر»، والبلاد يظهر عليها الفقر والجوع بشكلٍ مخيف.

إلى الموصل

قمنا بالسيارات مسافة (٢٠٥كم) قطعناها وسط سهول ممدودة إلى الآفاق ليس بها نتوء واحد، تربتها سوداء يعوزها الماء وتُزرَع بقاع منها غلالًا وأعشابًا، وفي نحو نصف المسافة دخلنا حدود العراق دون تغير في تلك المناظر المملة، وكم كان يضايقنا في تلك البلاد كلها تشديد البوليس في مراقبة جوازات السفر، ففي تلك المسافة فُحصت ست مرات مما أشعرني باضطراب الأمن فيها.

العراق بلاد ما بين النهرين «مسوبو تاميا»

نبذة تاريخية

حوالي ٤٠٠٠ق.م. كان الناس يعيشون جماعات في المدن يروحون ويغدون بين الجزيرة ومصر، وكان أولئك المستقرون يُسمَّون السومريين والأكاديين، وسُمِّيت بلادهم الناشئة سومر وأكاد، ولا نعلم من أين أتوا، ولكن المرجح أنهم وفدوا من منطقة جبلية متحضرة، ولم يجد هؤلاء في أرض الجزيرة الخصبة المنبسطة جبالًا، بل ألفوا السكان الأصليين لتلك السهول من الهمج؛ لذلك أقاموا عددًا من «الزجورات» أو البروج وفوق ذراها قامت معابدهم التي قدموا فوقها الضحايا لآلهتهم، ولقد استعبدوا أهل البلاد الأصليين. والجزيرة أو أرض ما بين النهرين «مسوبوتاميا» التي تعرف اليوم بالعراق من أخصب بقاع الدنيا، وكان نهر دجلة يسمى في اللغة السومرية أدكنا أو أدكلا، ومن هذه أخذ السامريون كلمة أدكلات أو دكلات التي حرَّفها العرب إلى دجلة، وكان يسمى الفرات بالسامرية «پوراتن» أو الماء الوفير، وأحيانًا يعرف باسم پورا أي ماء، ثم حرَّفتها اللغة السامية إلى پورات، والعرب إلى الفرات.

وتشمل العراق اليوم كالديا وبابل وأشور، فكالديا كانت القطعة المجانبة للخليج الفارسي، وكان الخليج يمتد شمالًا إلى أبعد مما يصل إليه اليوم، ثم طمرت رواسب النهرين جزأه الشمالي، وفي شمال غرب كالديا كانت بابل ومعناها «باب الله»، وإلى الشمال الغربي من بابل كانت أشور مقر عبادة الإله أشور. والأشوريون كانوا من الشعوب السامية، وكانوا مهرة في القتال والغارات إذ لم يخلفوا إلا آثارًا حربية فقط. أما البابليون والكلدانيون فمن أصل مختلط من الساميين وغيرهم، وهو الذي يسمى السومريين الذين اخترعوا الكتابة المسمارية وكان لهم شغف بالثقافة والعلوم المختلفة. ولم نكن نعرف شيئًا عن أشور وبابل منذ قرن مضى إلا ما رواه التوراة.

النساء يغسلن الثياب على ضفة دجلة في الموصل.

وفي سنة ١٨١٨ ظن القنصل البريطاني أن تلال كويونجيك تحتوي على آثار قيِّمة وفي ١٨٤٢ جاء الفرنسي «بوتا» فكشف مع لايارد الإنجليزي مدينة «سارجون» المسماة اليوم «خرسباد» ونينوى التي تسمى اليوم كويونجيك، وفي الوقت عينه بدأ «تيلر» يكشف أعلى ذرى «أور» لكنه اضطر أن يوقف العمل بسبب مقاومة البدو، وفي ١٩١٩ بدأ الدكتور هول يُتم هذا العمل ثم جاءت بعثة «وولي» فنجحت في كشف مقابر ملوك أور ومعبد إله القمر «نانار» ببرجه الضخم الذي يعلو مائة قدم وبهو العدل وبعض المخازن ومصنع النسيج والمطبخ ومجموعة أخرى من معابد صغيرة ولعل أهم مستكشفاته الألواح الطينية التي كتبت منذ خمسة آلاف سنة وخطها حفظة معبد أور، وهي تعد أقدم الوثائق التاريخية في العالم.

ولقد بنى نمرود بابل منذ ٢١٠٠ق.م. وشاد نينوس بطل ملوكهم مدينة أسماها باسمه وهي نينوى، وفي الوقت نفسه وُلِد إبراهيم أب الجنس الإسرائيلي في أور من الكلدانيين، وهي التي تسمى اليوم «مُقَيَّار»، وفي ٢٠٠٠ق.م. هجر وطنه وحل جنوب الشام حيث أكرم وفادته «ملك صادق»، وهو الملك السوري الذي ولي ملك جيبوس «القدس الآن». ولقد نما نفوذه ونفوذ شعبه الذين حاربوا أهل البلاد وأجلوهم وحلوا بلادهم حتى تفرق اليهود أنفسهم بالسيف، كما فعلوا بالسكان الأوائل وتفرقوا في أرجاء المعمورة، وبعد ذلك بقرن

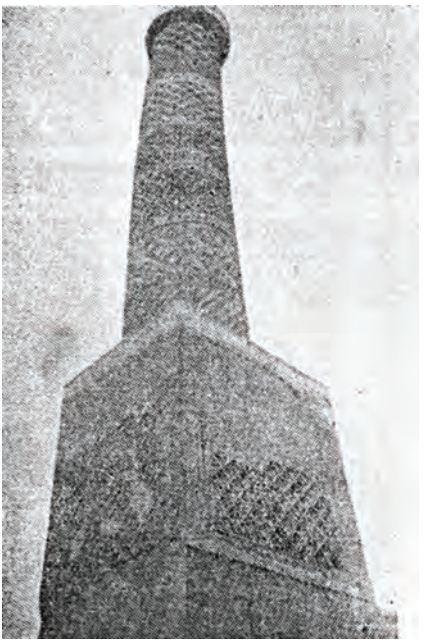

مئذنة الموصل المعوجة وكأنها برج بيزا المائل.

من الزمان ظهر حامورابي ملك بابل العظيم والمشرِّع المبدع، ولقد حارب جيرانه وضم أشور لملكه، ولقد كانت قوانينه قيِّمة تسترعي النظر، من بينها: العين بالعين والساق بالساق، وإذا تسبب أحد في فقء عين أحد الفقراء أو كسر ساقه فعليه أن يدفع «مينا» من الفضة، وإذا أجرى طبيب عملية جراحية بمشرطه البرنزي وتسبَّب عن ذلك موت المريض قُطعت يد هذا الطبيب، وإذا شاد بنَّاءٌ بيتًا فهوي البناء على ساكنيه وجب أن يُقتَل.

ومن ذلك نستنتج أن القوانين الموسوية قامت على أساس قانون حامورابي، خصوصًا فيما يتعلق بالقواعد الخلقية والاجتماعية وما ارتبط بالعدالة، وقد وُجِد العمود الذي خُطَّت عليه تلك القوانين مهشَّمًا في ثلاث قطع تراها اليوم في متحف اللوفر في باريس.

وبين ١٦٠٠، ٦٠٠ق.م. تحول مقر الحكم والنفوذ إلى الشمال، إذ ظهر الأشوريون من الساميين، ولم يسجل لهم التاريخ سوى الحرب والنضال؛ لذلك اتخذوا حضارة بابل أساسًا لهم، ولقد مدوا نفوذهم إلى سوريا ومصر والعرب وأرمينية وميديا وبابل، وسادت

الأكراد في أردية الحفلات.

الغلبة حينًا والفوضى حينًا حتى كانت سنة ٧٠١ق.م. حين حاصر سنخريب القدس ودمَّر بابل نهائيًّا وزاد في تجميل نينوى وقد أعاد بناء بابل، ومما يذكر له أنه فتح طيبة عاصمة مصر، وتقدم له بالولاء من ملوك الأرض في نينوى اثنان وعشرون ملكًا، ثم أعقبه ابنه أشور بانيبال الذي كان إلى عظمته في الحروب محبًّا للعلم والأدب، أعاد إخضاع الثائرين ومن بينهم مصر وليديا، وغزا عيلام وفتح شوشان (سوسا اليوم)، وهدَّأ الأرض المجانبة للخليج الفارسي التي كانت مثار اضطراب له، وأوفد بعثة حربية إلى بلاد العرب، ومن أوامره لأهل الخليج الفارسي وقد كُتبت في ألواحه الطينية: «وصية الملك لأهل السواحل والبحار من بني خدمي. السلام عيلكم أرجو لكم الخير، إني أرقبكم بعيني مراقبة دقيقة، ولقد فصلتكم عن وجه الشر «نابوبل ذكرى»، وإني أرسل خادمي «بل ابني» مشرفًا عليكم، وإني أزوده بأوامري وقوتي، وسأكون معكم أرعى مصلحتكم وأضع خيركم نصب عيني».

وفي ٦٠٦ق.م. غزا الكلدانيون والميديون نينوى وأحرقوها ومحوا دولة أشور من الوجود، وأعاد الكلدانيون بابل التي ظلت إلى ٥٣٨ق.م.

زعماء اليزيديين عبدة الشيطان.

ولقد بدأ بختنصر حكمه سنة ٦٠٠ق.م. ونهب معبد بيت القدس وساق كثيرًا من اليهود إلى بلاده وهزم نكو فرعون مصر في قرقميش، وإليه ينسب «حصن بابليون» في مصر القديمة، وهو الذي أقيمت عليه الكنيسة المعلقة، وفي ٥٨٨ق.م. أسر يهوذا ودمَّر القدس، ثم أخضع فينقيا وأعاد بناء بابل ورصف طريق مروره بالصخور، وكتب على كل حجر منها: «أنا بختنصر ملك بابل، وأنا الذي رصفت شارع بابل بحجر الجير لمرور حفل سيدنا الأعظم مردوك. يا سيدنا مردوك هبنا ملكًا أبديًّا!»

وفي ٥٣٩ق.م. حارب كورش الأكبر بابل موفدًا ولي عهده «بلشازار»، فأخذ بابل وأسس الإمبراطورية الفارسية، وقد كانت التوراة قد تنبأت بخراب بابل بكلمة نقشت على أحد الأحجار في قصر بابل الشهير، ولقد أذن كورش لليهود أن يعودوا إلى فلسطين، وكان خلفه قمبيز هو الذي فتح مصر، وفي إبان حكمه أعيد بناء معبد القدس، وكانت موقعة ماراتون الإغريقية الشهيرة، وفي عهد خلفه أجزرسيس دُمرت جيوش فارس وأسطولها في سلامس.

ولقد استخدم الفرس الكتابة البابلية المسمارية، وبفضل مخطوطاتهم التي كتبوها بثلاث لغات استطعنا فك رموز الألواح البابلية، ومنها عرفنا تاريخ بابل، وكان أول من قرأها الألماني فردرك جروتفد، وفي ٣٣١ق.م. جاء الإسكندر ودمر جيوش الفرس في أربيل، وفتح فارس كلها والأفغان إلى نهر السند، ومن هنا عاد بجيشه، وقد تململ عليه، عن طريق البحر، وفي بابل وافته الوفود تقدم خضوعها، وبسبب إسرافه في الخمر والمجون التي لم يألفها تدهورت صحته فمات سنة ٣٢٣ق.م. في سن لم تزد على ٣٣ سنة بعد أن فتح كل ما كان معروفًا من بلاد العالم إذ ذاك، ولما سئل عمن يُوصي به خلفًا له على ملكه أجاب قائلًا: «الملك يكون للأجدر به». ثم نقلت جثته إلى الإسكندرية حيث دفنت. وقد تنازع القوم فيمن يخلفه إلا أن سليوكوس أحد قواده حكم البلاد من سوريا شرقًا، وظلت أسرته ١٧٣ سنة، وسُمِّيت الأسرة السليوسية، وقد أقام سلوقية واتخذها عاصمته.

وفي ١٤٠ق.م. هزمهم الفرطانيون من الفرس وأقاموا عاصمتهم في طيشفون في مجانبة سلوقية، وأعقب الفرطانيين ملوك الساسانيين من الفرس سنة ٢٢٦ ميلادية، وفي ٢٢٧ هزم هرقل جيوش كسرى الثاني قرب نينوى، وفي ٦٤١ فتح الإسلام طيشفون وانمحت دولة فارس.

وفي ٧٦٢ أقام المنصور مدينته المستديرة بغداد، وكان يواصل العمل مائة ألف عامل، وقد كلفته تسعة ملايين من الجنيهات، وأسماها دار السلام وإن ساد فيها بعد اسم بغداد، وهو اسم زاهد كان يعيش هناك، وقد غطَّت عظمتها على نينوى وبابل وسلوقية وطيشفون، وبلغت أوجها إبان حكم الرشيد، وبعد ذلك أخذت في الخمول حتى غزاها السلجوقيون سنة ١٠٧١، وفي ١٢٥٨ دمَّرها هولاكو، وفي ١٣٩٣ تيمورلنك، وبعد ذلك وقعت بغداد فريسة الحروب الداخلية والثورات حتى فتحها الأتراك، وظلت تحت حكمهم حتى احتلها الإنجليز في الحرب العظمى.

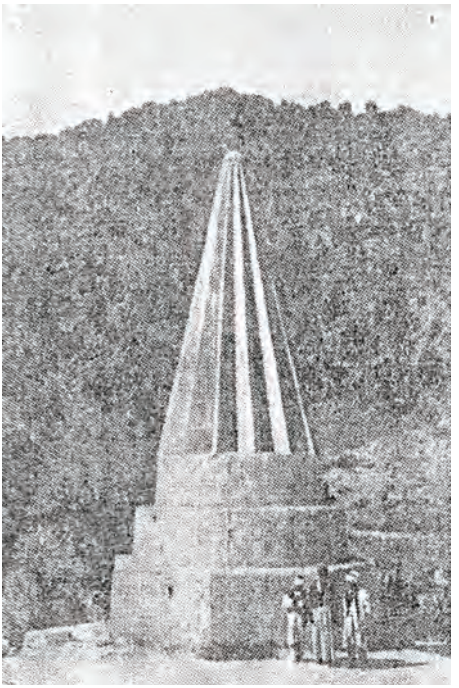

حول هذا النصب المقدس يقدم اليزيديون ذبائحهم في «شيخ عدي» بقرب الموصل.

بغداد اليوم

أقيمت سنة ٧٦٢ في مكان قريتين من القرى الفارسية «بغداد والكرخ»، وقد وضع المنصور نفسه أول لبنة بيده. وتعجب إذ تعلم أن تلك العاصمة — دار السلام — وهي أحدث عهدًا من أثينا وروما والقسطنطينية ولندن لم تترك أثرًا يدل على عظمتها الأولى، على أنها لا تزال تغص بذكريات الماضي المجيد وخيالات ألف ليلة وليلة. تلمَّست ذلك في أزقتها المختنقة التي كان يجوبها هارون الرشيد نفسه متخفِّيًا ومعه بعض صحبه ليقف على شئون الناس ومظالمهم بنفسه، وليرى مبلغ صلاح إدارته للبلاد، وفي تلك الطرق الضيقة والأسواق الملتوية تذكر شهرزاد والسندباد البحري ولصوص بغداد وما إليها مما قرأت في أقاصيص ألف ليلة. ولقد اختلف القوم في موضع بغداد الأصلي بالضبط، فبعضهم

يرى أنها مجاورة الكاظمية، والبعض عند محطة «بغداد غرب»، ولا يكاد يربطها بالماضي سوى أسماء ضواحيها ومدفن الإمام الأعظم أبي حنيفة، وكان تصميم بغداد على نمط معسكر روماني ببواباتها الأربع تواجه الجهات الفرعية للبوصلة: باب خراسان والبصرة والكوفة والشام، وكان يقوم على كل بوابة بيت مشيد، وكان يحب المنصور أن يأوي إلى باب خراسان كلما طلب الراحة، وكان بالمدينة ثلاثة أسوار، اثنان متقاربان لدفع غارات العدو، والثالث حول دور الإمارة والحكم، وكان أبو حنيفة ممن أشرفوا على بناء المدينة، ولقد جلبوا مهمات البناء من كل فج، فأبوابها الحديدية التي ظُنَّ أن شياطين سليمان هم الذين صاغوها جُلبت من واسط، ومن بابل جلبوا الآجر، وقد حاولوا هدم طيشفون لهذا الغرض، وفي سنة ٧٦٨ بدءوا في بناء مسجد جديد وضاحية أسموها الرصافة Causeway ولا يزال يُطلق على شرق بغداد، وكانت تتجمع دور الصناعة والتجارة خارج الأسوار، ولقد أدَّت كل الطرق الرئيسية العالمية إذ ذاك إليها، فمن باب خراسان يبدأ «الطريق الذهبي إلى سمرقند وحي الشعراء والمنفذ المؤدي إلى ذهب الشرق وعلمه»، ومن باب الكوفة يبدأ طريق الحج إلى مكة، وقد أقامت زبيدة المحاط لراحة الحجاج في مواضع عدة منه، وكانت جهات الحركة خارج الأسوار تسمى الكرخ. ولقد عاش المنصور ثلاث عشرة سنة بعد بناء مدينته، وأعدوا له مائة مقبرة لكيلا يهتدي أعداؤه إلى مثواه الذي لا يعرف إلى اليوم، وكان المنصور صارمًا في العدل شحيحًا في المال حتى عُرف بين الجميع بابن دويك أي ابن النقود، ولقد ظل سلائله في الحكم خمسمائة سنة.

الموصل

مثوى أبي تمام الطائي، ومنها الطغرائي صاحب اللامية المشهورة وأبناء الأثير الثلاثة، وكانت عاصمة بني حمدان ثم عاصمة الدولة الزنكية؛ لذلك كنت أحسبها بلدة مشيدة جذَّابة، فإذا بها مجموعة من أبنية تحكي أبنية القرون الوسطى، كلها أقبية فطساء كالسجون، والبلدة قذرة مهدَّمة ليس فيها حي واحد يُمتَدح، فكأنها بلدة أثرية، وحتى نهر دجلة الذي تقع عليه تراه قذرًا منتنًا، وتطل عليه البيوت القديمة في غير نظام، وأسواقها أجحار صغيرة، وأنت أينما سرت اشمأزت نفسك من الروائح الكريهة التي تنبعث من كل مكان، وزاد الطين بلة جوها اللافح المحرق، فأنت لا تكاد تبصر من كثرة الدخان والتراب الذي يخيم في هوائها ويحرج الصدر، ولقد أذكرتني بهجير بلاد الهند. وعلى ضفاف دجلة يلقي القوم قماماتهم وأقذارهم، وترى جميع النساء يغسلن ثيابهن وبيد كلٍّ مطرقة لدق

اليزيديون في حفلة الزواج.

الثياب. والبلدة غاصة بالمقاهي الوطيئة، ترى الناس قعودًا بها كأنهم الذباب، والمساكن كأنها الجب، تنظر فترى أهلها نيامًا على الأرض داخل ذاك الظلام في خمولٍ منكر، وهناك معبر لدجلة بقنطرة تحملها الزوارق وتكملها قنطرة من حجارة إذا طما الماء مر خلال عيونها، وقد كان النهر إبان جزره، إذ لا يفيض بالماء إلا في الشتاء.

وأهل البلدة أخلاط من أجناس لا عد لها، من بينهم الأكراد بأرديتهم الفضفاضة يحملون أسلحتهم معهم دائمًا، واليزيديون في مظهرهم الوحشي بقمصانهم الحمراء الغريبة، والأشوريون من الجبال وسحنهم تدل على أنهم من قطاع الطرق، والكلدانيون في سراويلهم وقد وفدوا من القرى المسيحية، والبدو بوجوههم التي كادت تحرقها الشمس وكثير غير أولئك. والعراقيون قوم نحاف طوال القامات أنوفهم منقارية سامية كأنوف اليهود، ويلبسون اليوم فوق رءوسهم «الفيصلية» في ألوان مختلفة وشكل مضحك يُذكِّر

وسط أطلال نينوى التي تطل على الموصل.

المرء بعرف الديك، ولا أرى فيها وقاية من شمس أو مطر، أما المحافظون فيلبسون العقال، ونساؤهم أكثر رشاقة من التركيات، وأعجب شيء في هندامهن المعطف الخارجي «العبا»، فهو كالعباءة من الحرير الأسود يرسل من فوق الرأس فيرفرف في حرير مهفهف فضفاض وشكل أنيق.

والبلاد رخيصة، فالفندق الكبير لم يزد أجره على عشرة قروش، ووجبة الطعام الفاخرة كذلك، غير أن الطهي هناك دونه في تركيا بكثير، وأساس نقودهم «الفلس»، والدينار يساوي ألف فلس، وهو يعادل جنيهًا إنجليزيًّا، وأنت لا تكاد تسمع من القوم إلا حديث «الفلوس»، فكأني قد انتقلت من بلاد «البرغوث» إلى بلاد «الفلس»، وهم يعطون صنوف الطعام أسماء غريبة لا نفهمها، فالبطيخ مثلًا يسمونه «شمزى».

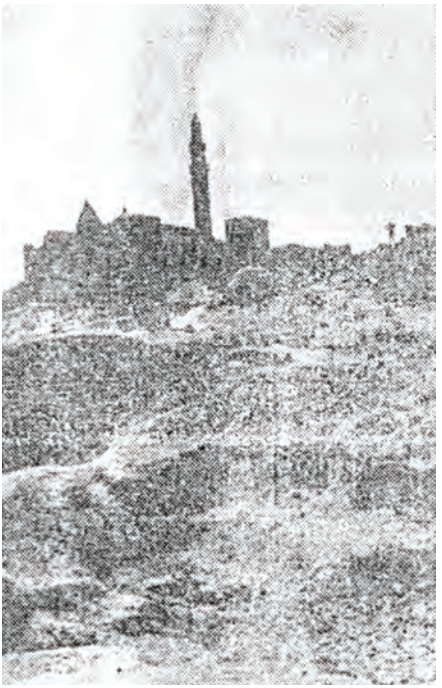

مقام النبي يونس فوق أنقاض نينوى.

والموصل محرومة من السكة الحديدية مع أنها كانت في الزمن الغابر أكبر مركز تجاري وصناعي، وكانت تتوافر بها الغلال، وكانت تقع على الطريق التجاري الهام بين حلب وبغداد إلى الشرق، وفي زمن العباسيين كانت تُشتَهر بنسيج من القطن الناعم سمي «موسلين» أو «موصلي»، وهو لا يزال يحمل هذا الاسم في الدنيا، رغم أنها لا تصنع منه شيئًا اليوم، وحولها منطقة عظيمة الخصب وتجاورها منابع البترول، كل ذلك يجعل الزائر يدهش لعدم وصلها بسكة الحديد، وحول المدينة بقايا سور زرنا منه جزءًا بجانبه مدفن المؤرخ العربي «ابن الأثير»، ولم تكن الموصل منطقة صالحة للسكنى في الحرب الكبرى، إذ داهمتها التيفوس والطاعون الذي دفع بالسكان هناك أن يأكلوا اللحم الآدمي، وكان يباع خفية، وقد ضُبط بعضهم وشُنق في الميدان الرئيسي، ولعل أحسن ما يزار فيها المسجد الكبير الذي زاره ابن بطوطة في رحلته وكتب عنه.

اليزيديون عبدة الشيطان

وأعجب من رأيتهم في الموصل اليزيديون في أرديتهم الحمراء الغريبة، يرون أن الله روح عليا سامية حلت قدرته في ملك الطاوس (الشيطان) الذي يتصرف في العالم كيفما شاء، ويصيب الناس بالأمراض والأذى كما يسبغ عليهم نعمة الصحة والرخاء وشعار الشيطان لديهم طائر شبيه بالطاوس وهم لا يسمونه الشيطان، فتلك كلمة مزرية مهينة، بل يسمونه «أمير الظلام» أو «ملك الطاوس»، وهم يتوسلون إليه بالصدقات والقرابين، ولا يعلِّمون أولادهم قواعد للصلاة ولا التعبد، ويقولون: إن الصلاة في القلب، ويجب ألا تكون لها شعائر ظاهرة، ولم يأمرهم كتابهم المقدس بشيء من ذلك لكن عليهم أن يؤدوا كثيرًا من الواجبات لقساوستهم ومعابدهم، وهم يشركونهم فيما لا يقل عن ربع إيرادهم السنوي، وميلهم للتصدق عظيم أضحى مضرب الأمثال، ويقال: إن أمراءهم وهم في مقام القسس من سلالة يزيد؛ ومن ثَم جاءت تسميتهم باليزيديين، ولكل مجموعة من عائلاتهم قسيس أو أمير أمره مطاع وعطاياهم إياه واجبة، فإن قصَّر أحدهم في ذلك حلت عليه لعنة الأمير فأضحى من الخوارج، وتلك الضرائب يتقاضاها القسيس عند الميلاد والزواج والموت، وفي وقت الشدة والرخاء شكرًا لله. وقساوستهم طبقات، منهم طائفة يسمونها «كوشيك» يلبسون أردية سوداء، ولا يُختنون كباقي اليزيديين، وهم الذين يتولون الموتى بالغسل والدفن. فتفتح المقبرة ويقبل الناس وبيدهم القرابين وبعد قليل يتمتم «الكوتشيك» ويرغي ثم يغيب عن العالم وهو ملقًى على الأرض، ثم يفيق بعد أن يكون قد اتصل بالأرواح، وعندئذ يخبر الناس عن مآل روح الفقيد، وهل حلت مولودًا آدميًّا جديدًا — وذلك إن كانت العطايا كافية على ما أظن — أو حلت جسد كلب أو حمار أو حيوان خسيس، وفي جميع الحالات يقدم له الطعام لمدة سنة، وتهدى إليه كل ملابس الفقيد. وهم لا يعتقدون في جهنم. ويقص البسطاء منهم نبأ طفل كان اسمه «إبريق الشوطة» فأصيب بمجموعة من أمراض وعاهات، فأخذ يبكي بدموع جمعها في جرة مدة سبع سنين، ثم صبها على نيران الجحيم فأطفأها، فشكرته الآلهة على فعلته، ويرون أن الله خلق ٧٢ آدمًا ظلت ذرية كل منهم عشرة آلاف سنة، وبين كل واحد والآخر فترة مثلها لم يكن بها من الناس أحد، واليزيديون أبناء آدم الأخير لا عن طريق حواء، بل عن طريق حورية، التي زفها ملائكة الجن لآدم، وهم ليسوا أبناء حواء، فإن قالوا ابن حواء قصدوا غيرهم، وهم يقولون بأن جدهم نوح، وإن لغة الجنة هي اللغة الكردية التي يتكلمونها اليوم.

ومن عاداتهم أن تُقرَع الطبول عند زواج أي فرد منهم؛ لإشهاد الناس أن فلانًا قد تم زواجه من فلانة، وهم يبيحون تعدد الزوجات، لكنهم لا يبيحون الطلاق قط، ونساؤهم

سوق كركوك.

سافرات إلا في الأسبوع الأول من الزواج حين تظل الزوجة في عزلة تامة، والأمير يستطيع بسلطته أن يسلب أية فتاة شاء، ولا عيب على الفريقين في ذلك. والشيخ هو الذي يقود الزوجة إلى بيت زوجها ليلة الزفاف ولا تخطو عتبة الباب إلا بعد ذبح شاة تطأ دمها وهي داخلة، ولتوثيق صلة الزوجية يضرب الزوج جرة (قلة) بها مجموعة من أجراس في الحائط فوق رأسها، ثم يكسر رغيفًا ليعلمها كيف تكون شفيقة بالجائعين.

وغالب اليزيديين في مقاطعة الموصل، وعددهم بين ١٨، ٢٠ ألفًا، ومنهم بقية ضئيلة في الشام وأخرى في القوقاز، لكن ثلاثة أرباعهم في الموصل حول جبال «سنجار» وكعبتهم المقدسة «شيخ عدي» على مسيرة ٣٥ ميلًا من الموصل، يزورونها في عيدهم الأكبر في أكتوبر، والشيخ عدي قديس سوري نزل هذا المكان ونشر مذهبه في القرن العاشر وأخرج كتابه المقدس، وقد قبض عليه جنكيز خان وساقه إلى فارس حيث قُتل، ومن سلائله «شيخ عدي ابن المظفر» الذي دفن في هذا المكان ونبع تحته الماء المقدس الذي يخالونه متصلًا بزمزم، وقد وجدت تلك العقيدة في بلاد الأكراد منبتًا خصبًا؛ لأنها كانت تدين بالوثنية وعبادة الطبيعة من شمس وقمر وشجر وينابيع، لذلك لا تزال ترى لهذا أثرًا في مذهبهم، فهم يقدسون الشمس والقمر، ويقبِّلون الأرض جهة المشرق والمغرب. ولشدة خوفهم من الإسلام أخفوا أسرار كتبهم المقدسة، وكل من أفشى شيئًا أُعدم فورًا، لكن حدث أن أحدهم اعتنق

النصرانية فأفشى سر تلك الكتب إلى القسيس آنسطاسي أحد زعماء المسيحية الذي دفع للرجل مبالغ طائلة كي ينسخ الصفحات نسخًا مضبوطًا ففعل وتُرجِمت، وهما كتابان: «كتاب جلوه» ومعناه الخلاص، والكتاب الأسود «مصحف راش». والآيات مخطوطة على الجلد وتحفظ في صندوق من فضة وعليه صورة طاوس، ومفاتيحه بيد الأمير ولا يقرؤه إلا القسس، أما أفراد الناس فممنوعون حتى من تعلم الكتابة لهذا الغرض.

وسط عيون البترول في بابا جرجر «كركوك – الموصل».

وأكثف جموعهم حول «باعذرى» بقرب الكوش في كردستان، والمعبد الرئيسي فوق جبالهم التي شهرت بقطاع الطرق، وتطلى معابدهم وبيوتهم ومقابرهم باللون الأبيض؛ لأن الشيطان يحب ذلك اللون، وحول المعبد مجموعة من مبانٍ حقيرة أُعدَّت لإيواء الحجاج في موسم الحج. وتراب المكان مقدس عندهم يعجنون منه أقراصًا يكسرون واحدًا منها لتبريك الزوجية، وتوضع قطعة منها في فم الميت قبل الدفن، وباب المعبد مزركش بالنقوش، وهناك ترى أفعى ذات رأس أسود وهي شعار للشيطان، وقبيل زيارة المكان يجب تقبيلها ثم تخلع الأحذية قبل الدخول، ولا يجوز لمس عتبة المدخل لأنها مقدسة.

نينوى

أقلتني من الموصل «عُربانه» إلى نينوى في مواجهة الموصل من الضفة الأخرى لدجلة، وفي نحو ثلث ساعة بدت كومة كبيرة من الثرى والطين المتماسك في ارتفاعٍ كبير، تسلقتها فتجلت الموصل على بعد وراء النهر في مشهدٍ جميل بمآذنها العديدة، أما ذاك الطلل فلم أرَ

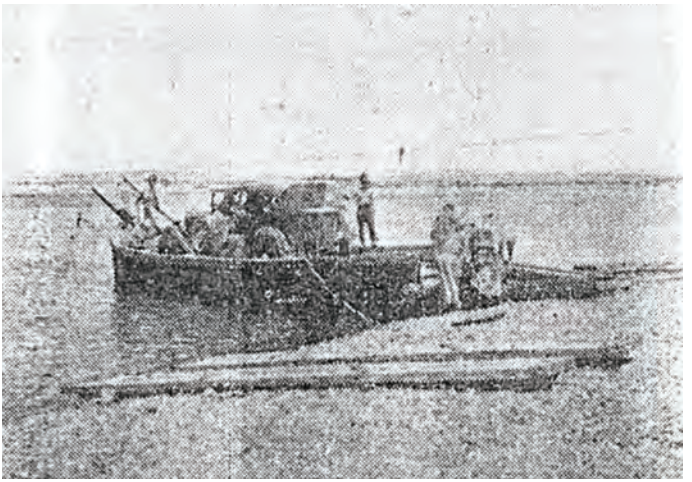

نعبر نهر الذاب بسياراتنا على تلك السابحة.

به إلا سراديب ومغائر لم تنم عن شيء من العظمة البائدة، فلقد كان أهلها حربيين بواسل، وملكها قائدًا عظيمًا، ولم يكن لهم دراية قط بالزراعة والصناعة كليهما، ولا بأي نوع من أنواع العمل سوى الحرب، وكانت تزود نفسها بحاجياتها من الأسلاب، وحتى المهندسين الذين شادوها كانوا من أسرى الحرب، وكم نقل ملوكها من عشائر وشعوب أخرى، ولقد كان إلههم الأكبر «أشور»، شادوا له المعابد الهائلة وشنوا باسمه الغارات وأخذوا الغنائم وأخضعوا جميع جيرانهم لسلطانهم وأرغموهم على دفع الجزية، ومن بينهم آسيا الصغرى وقبرص وفلسطين وكردستان وحتى مصر نفسها، وكان نزلاؤها الأوائل من أهل بابل، ولا نعلم متى احتلوها باليقين، لكنها كانت قائمة سنة ٣٠٠٠ق.م. وكان حكامها الأُول أتباع ملوك بابل وأهلها أقرب شبهًا بالدم السامي من أهل بابل، فهم بنو عمومة الإسرائيليين، وكانت لغتهم أشبه بلغة آل يهوذا، ولقد خرَّبها الميديون سنة ٦٠٦ق.م. ومحوا آثارها حتى لم يكن يعرف موقعها أحد، ولما جاء العرب وأسسوا الموصل أبصروا بالتلال قبالتها فتخيَّلوها مقر الجن الذين رُصدوا لحراسة كنوزها القديمة حتى كشف الأوروبيون عن الكثير من آثارها، وبخاصة الألواح الحجرية التي نُقشت بالخط المسماري وتماثيل هائلة لثيران لها أجنحة الطير ووجوه الآدميين بلحًى مرسلة أيدت أن تلك لا شك أطلال لمدينة عظيمة. وكنت أرى آثار الاحتراق والتخريب بادية في بقاياها من أثر الغاصب. ولقد بلغت

أوجها إبان حكم «سنخريب» أخريات القرن الثامن قبل الميلاد، ويظهر أن ذاك الملك أراد أن ينشئها من جديد فشاد لها الأسوار المنيعة التي تراوح علوها بين خمسين ومائة قدم، وعرضها وسع مرور أربع عربات متجاورات تتخللها أبواب من خشب الأرز، تزيِّنها مقابض النحاس، وكانت تجانبها السباع ذوات الأجنحة، يزن الواحد خمسين طنًّا، ويطل الباب الغربي على دجلة وكان يشق الأسوار والبلدة رافد لدجلة هو «خصار»، كانت تزين جوانبه القصور الملكية الفاخرة، وقد مررت في تجوالي بمكانها من هذا التل الذي يسمونه «كويونجيك»، هنا ذكرت «أشور بانبال» في قصره الفاخر وسط كنوزه القيمة وقد أحاط به الغزاة، فآثر أن يموت بنار العدو التي التهمت القصر وما فيه، وكم كان تشفي أنبياء بني إسرائيل ناهوم وسفانيا عظيمًا إذ شهدا تدمير مملكة أشور التي عاثت في الأرض قتلًا وسلبًا.

نزلت من ذاك التل الخرب صوب تل آخر يقع إلى جنوبه بقليل ويسمونه «النبي يونس»، وهو أيضًا من بقايا ضواحي نينوى، ولم يتعرض للتنقيب فيه أحد لأن رفات النبي يونس الذي ابتلعه الحوت تدفن فوقه في مسجد ذي مئذنة مشرقة دقيقة، وفي داخل الحجرة الوسطى رأيت قطعة من سمكة كبيرة من ذوات السيف يقول القوم عنها: إنها السمكة التي ابتلعت يونس عليه السلام، وقد استرعت نظري البسط الثمينة التي يُفرَش بها المسجد والضريح، وقد أهداها إليه سلاطين آل عثمان. ويقول البعض: إن ذاك المدفن لا يحوي عظام سيدنا يونس، بل عظام قديس مسيحي كان يقوم حولها دير قديم! وفي جوانب ذاك التل عثر بعض علماء الألمان على المكتبة الملكية لنينوى، وفي الألواح الطينية التي بحثت في مختلف العلوم، والتي نقلها ملوكهم وبخاصة «أشوربانيبال» من مختلف بلدان العالم ونقشها على الطين كُتَّاب أخصائيون بالخط المسماري، ومن أشهر ما تُرجم منها قصة الطوفان والبطل «جالجاميش».

إلى كركوك ومنابع البترول

قمت مسرعًا من الموصل تلك البلدة التي استقبلنا جوها اللافح أسوأ استقبال، ولم تترك البلدة في ذاكرتي فضيلة أذكرها بها اللهم إلا كرم أهلها، والعراقيون قوم كرام بحق، فقد جمعوا بين كرم الخصب الزراعي وكرم عرب البادية، حدث أني كنت أتناول الغداء في أحد مطاعم الموصل، وكان يجلس قبالتي عراقي، فجرَّتنا مناسبة شدة الحر إلى طرف من الحديث، وما كدت أستأذن بعد انتهاء الطعام حتى قال لي: تمهل حتى تتناول «الدندرمة».

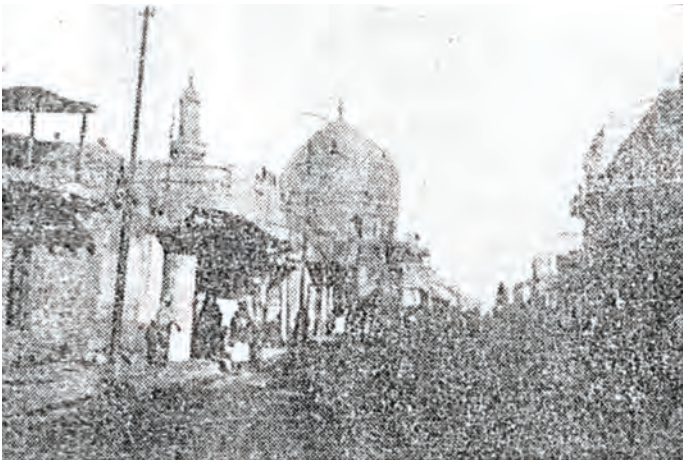

الشارع الجديد أو شارع ابن الرشيد ويكاد يكون الوحيد في بغداد.

وكان قد طلبها لي ودفع ثمنها، وحاولت الاعتذار فأبى عليَّ ذلك. وقد كان يزاملني في السيارة إلى كركوك طائفة منهم كانوا كلما وقفنا نستريح في فندق على الطريق — وقد فعلنا ذلك مرات — ألزموني بشرب الشاي وأكل المرطبات على حسابهم، ولم أستطع دفع شيء قط. قمت إلى كركوك في سيارات للبريد منتظمة تقوم يوميًّا في الصباح مقابل أجر ثلاثين قرشًا، فاخترقنا دجلة ومررنا بمتنزه كبير أقامته البلدية ترويحًا للناس، وهو فسيح لكنه في غير تشذيب، ثم أوغلنا في أرض سوداء مبسوطة إلى الآفاق ليس بها شجرة، ويبدو عليها الخصب، على أنها لا تُزرَع إلا على أمطار الشتاء فقط. ثم عرجنا إلى يميننا على:

نمروذ

وهي إحدى مدن الأشوريين التي قامت قبل بناء نينوى كمقر للحكم، ولم نرَ فيها سوى تل من تراب يعلوه شبه برج شاهق متهدم، وكان نمروذ ملكًا من ملوك بابل، يروي القوم عنه أن سيدنا إبراهيم الخليل سيق إليه وأمره نمروذ أن يعبد النار فقال إبراهيم: لكن الماء أقوى إذ هو يطفئ النار. فقال: إذن فاعبد الماء. قال: ولكن السحاب هو الذي يرسله. قال: إذن فاعبد السحاب. قال: بل هي الريح التي تدفعه. قال: فاعبدها. قال: لكن الإنسان مسيطر عليها. فغضب نمروذ وأمر أن يعبد إبراهيم النار ويلقى فيها، فأُلقي فيها سبعة

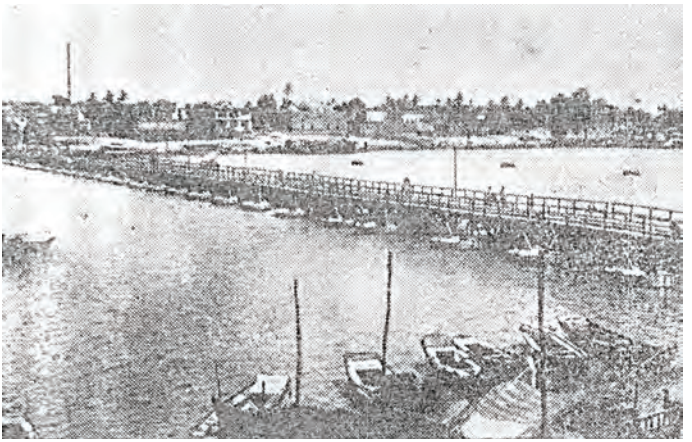

جسر مود ويقوم كسائر جسور بغداد على الزوارق.

أيام خرج بعدها سالمًا، فأراد نمروذ أن يرى إله إبراهيم، فبنى برج بابل، لكنه لم يصل السماء، فأتى بنسرين يجران عربة ودفع بها إلى السماء، فسمع نمروذ صوتًا من السماء يقول: أين تذهب يا ملحد؟ فصوَّب سهمًا إلى مصدر الصوت ورماه فعاد إليه ملطخًا بالدم، فظن أنه طعن آلهة إبراهيم وقتلها.

ويقص الناس أن برج بابل أثار غضب الله، فأنزل عليه صاعقة من السماء، وكنت أسمع اسم نمروذ يطلقه العراقيون على كثير من أبنائهم.

وكانت بلدة نمروذ قائمة قبل أشور بانيبال بنحو أربعة قرون، وإلى جنوبها رأينا أطلال «أشور» أقدم بلدانهم أسموها باسم إله الحرب، ويخال البعض أن الأشوريين من سلائل الأراميين الذين حلوا شمال دجلة، وكانوا أهل حرب ألقوا الرعب في قلوب أهل العراق جميعًا، ولم يكن لهم غرض من غزواتهم الدائمة سوى النهب والسلب؛ لذلك لم يدم ملكهم طويلًا، وفيها عثر بعض الألمان على جرار تُدفن بها بعض موتاهم، وفي أنقاض سورها كُشف حجر كتبت عليه قصة «سميراميز» أو «سيدة القصر»، وكانت زوج أحد ملوكهم سنة ٨٢٠ق.م. ويسمي الناس هذا المكان جبل القمر.

جزنا في طريقنا عدة أخوار جافة، ثم عبرنا نهر الذات الأكبر عند قرية «جوير»، وهو أحد روافد دجلة، تياره سريع وماؤه صافي الزرق، وكانت القرى صغيرة بيوتها بالطين وسقوفها منحدرة لأن مطر الشتاء كثير عندهم، ثم عبرنا نهر الذاب الأصغر، ولم نعرج

بينهما على أربل التي انتصر فيها الإسكندر على دارا الثالث سنة ٣٣١ق.م. وكانت على مقربة منا، وكان جل الناس من الأكراد والعرب والعراقيين يتكلمون التركية والعبرية والكردية، وبعد أن قطعنا نحو مائة وسبعين كيلومترًا في خمس ساعات دخلنا:

كركوك

فبدت على صغرها أجمل من الموصل وأعدل جوًّا بها قسم جديد لا بأس بتنسيقه، أما المقاهي والفنادق فأقبية تحكي تلك التي في الموصل، وكنت أعجب لعدم سماعي العربية إلا قليلًا، فالسواد الأعظم حتى من الأطفال يتحدثون بالتركية أولًا والكردية ثانيًا، فهاتان اللهجتان تكادان تكتسحان العربية، وغالب الناس مسلمون، ولكنهم في جهل عميق وسذاجة بادية وتعوز جسومهم النظافة وهندامهم التنسيق والتوحيد.

أقلتني «عُربانه» إلى بابا جرجر حيث توجد آبار البترول الشهيرة، فوصلتها في نصف ساعة، وهناك بدت ميادين البترول في سهول ممدودة إلى الآفاق يكاد ينز البترول الأسود من كل أرجائها، وقد حفرت الشركة — وهي إنجليزية فرنسية ألمانية — ٣٦ عينًا أقامت على كلٍّ شباك الحديد «والفناطيس» والساريات والمضخات، وكلها تتصل بأنابيب ترى ملقاة على الأرض وكأنها الشباك، تجمع البترول في المركز الرئيسي حيث يكرر تكريرًا جزئيًّا ويُدفَع بمضخات في أنابيب تمتد إلى ثغر بيروت. وفي كثير من الحفائر كنا نرى سيل البترول الأسود الناعم يتدفق ويسيل مختلطًا بالماء، وهذا يخول لمن أراد أن يملأ صفائحه منه وهو يستخدم في الرصف، وفي بعض البؤرات وبخاصة المسماة «بابا جرجر» — ومعناها أرض النار — يشتعل لهيب من مسارب وفوحات في الأرض، ويظل متقدًا صباح مساء، وأنت إذا حفرت بؤرة وأشعلت بها عودًا من ثقاب ظلت الأرض ملتهبة باستمرار، مما يُشعر بغنى الأرض المفرط في الزيت، وفي مناطق الآبار نفسها يحرم القانون إشعال النار أو التدخين. وقد وقفت وسط الفوهة الكبرى وكأنها كأس لبركان متأجج، وكانت ألسنة اللهيب مندلعة من حوله. وصخر الإقليم يبدو كالطفل المصفر تشوبه حمرة ونواتئ الصخر خليط من الجير والخرسان، وأينما حفرت ظهر نز الزيت والعيون المفتحة التي يخرج منها القار لا تدخل تحت حصر، وقد كان للأتراك نصيب فيه لكنهم باعوه للشركة الحالية، والشركة قد وضعت الطرق ومدتها هناك أميالًا، وأقامت المباني على الربى للسكنى ومكاتب الإدارة، ويدلك على مبلغ عظم إنتاج هذه المنطقة أن الشركة قد أنفقت مبلغ ١٥٨ مليون جنيه على أعمال التحسين والاستثمار.

مختلف الأزياء فوق جسر مود واستعراضهم عند الأصيل.

إلى بغداد

قام بنا القطار إلى بغداد مسافة ٣٢٥كم في عشر ساعات وسط سهول نصف مهملة منظرها موحد ممل ليس به شجر وكانت القرى شبيهة بقرى صعيد مصر، وبعد نصف الطريق عبرنا رافدًا كبيرًا لدجلة اسمه (ديالا) بعده زادت المزارع والنخيل وكثرت القرى فحاكى المنظر بلادنا، إلا في ندرة القنوات وأخيرًا أقبلنا على بغداد من مورد متهدم مترب منفر، فكنا كأنا ندخل قرية صغيرة ووقفنا قليلًا على محطة (بغداد شرق)، ثم نزلنا في (بغداد غرب) فكانت مني خيبة أمل لأني كنت إخال بغداد رائعة المناظر طلية البنيان تليق بعاصمة دولة ناهضة ذات ماضٍ مجيد، نقلتني عربة واخترقنا الشارع الوحيد فيها وهو شارع الرشيد الذي يقطع البلدة من طرف إلى طرف وبه كثير من المتاجر ودور الملاهي والمقاهي، مبانيه قديمة وفي غير انسجام ولا تكاد الأبنية تعلو طابقين وتمتد على جانبيه الأعمدة على نحو ما

لا يزال نساء الإسرائيليات في بغداد محجبات.

نراه في شارع محمد علي بمصر وفي جانب منه وقف بي السائق أمام (نزل هلال)، وما كاد يستوي بي المجلس ويخيم الليل حتى كان الفناء الرئيسي للفندق وهو الذي تشرف عليه كل الحجرات مكانًا للغناء والموسيقى والرقص مما أذكرني برفه بغداد إبان عزها البائد وجال الفكر في ألف ليلة وما روي لنا من أعاجيب، نزلت فإذا المكان غاص بالمستمعين المترنحين الذين لعبت الخمر بعقولهم، ثم خرجت إلى الطريق فإذا سيول من الناس في لهو ومجون رغم أن هندامهم الشرقي العربي يتنافر مع كل أولئك، وفي الصباح تفقدت كثيرًا من نواحيها فلم يرقني بها شيء كثير سوى جسورها التي تعبر دجلة وتصل ما بين الرصافة في الشرق والكرخ في الغرب، وتلك الجسور تقام كلها على الزوارق فتراها تهتز صعودًا وهبوبًا مع مد الماء وجزره وأهمها جسر (مود) على اسم القائد الإنجليزي، وهو أحدث الجسور جميعًا يصل ما بين أزحم جهات المدينة ويؤدي في الجانب الغربي إلى قسم

جديد به المتنزهات والمقاهي ودور الملاهي ويتوسطه طريق فسيح به تمثال للملك فيصل يمتطي جوادًا وهو في زي عربي بالعقال، وعند الأصيل يدهش المرء لسيل المارة الدافق فوق القنطرة وجماهيرهم المتلاصقة الأكتاف من نساء ورجال يروحون ويغدون في نشاط وحركة كأن البلدة في يوم عيد؛ هنا يعتقد المرء أن الشعب العراقي مرح ميال إلى الرفه والمجون بشكلٍ يفوق كل وصف، وقد استرعى نظري جمال السيدات ورشاقتهن يسير السافرات منهن — وغالبهن من اليهود — في هندام أنيق عليهن المعاطف المهفهفة تتدلى من فوق الرءوس وكأنهن يفاخرن بإزارهن هذا فهو لا يقل ثمنًا عن عشرة جنيهات وللأغنياء بأضعاف ذلك والمسلمات يسمونه (العبا) ويلبسه حتى صغار البنات وهو من حرير ينسج على اليد وبعضه تتخلله خيوط الذهب، ويلفت النظر في نساء العراق شعورهن المرسلة الغزيرة التي تزيدهم جمالًا، ويقولون: إن الحناء التي يغسلون بها الرأس عند الاستحمام هي سبب ذلك ولعل نقطة الضعف في جمال النساء طول الأنوف ودقتها، ويندر أن ترى بينهم القامات الطويلة والأجسام الممتلئة السمينة بين كلا الجنسين على أن منطقهم جميعًا منفر غير موسيقي.

وفي المدينة مجموعة من مساجد على الطراز الفارسي بمناراتها الدقيقة والقباب التي يكسوها القيشاني الأزرق، وقد بدأت زيارتي بمسجد الأعظمية: وفيه يدفن الإمام الأعظم أبو حنيفة شيخ المشرعين وكان مولده سنة ٨٠ ووفاته سنة ١٥٠هـ والضريح تحيطه شباك الفضة الثقيلة وفي أطرافها زينة في شبه حراب ذهبية، وقد كتب حولها بالفضة كثير من آي الذكر والحكم المأثورة والقبة يغشاها القيشاني من داخلها والنحاس الأصفر البراق من خارجها، وقد جدد طلاؤه بأمر صاحب الجلالة الملك السني فيصل الأول وفيه دفنت رفاته بعد زيارتي بأيام قليلة، ولم يكن بالمسجد منذ زيارتي أحد سوى خدامه، بعد ذلك عبرت النهر إلى الضفة الغربية صوب الكاظمية وهي بلدة عتيقة يقدسونها؛ لأن بها مدفن الإمام موسى الكاظم من قادة الشيعة والمسجد فاخر يأخذ بالألباب أقامه نادر شاه من ملوك فارس وزاد فيه سلاطين الفرس بعده وقد أمر أحدهم بعد زيارته للحرم أن تكسى مناراته بطبقة من ذهب خالص، ثم زاد فيه الترك بعد ذلك وفيه جانب أقامه سليم الأول والمدفن تعلوه قبتان وتحوطه أربع منارات، بريق الذهب الأصفر الذي يكسوها جميعًا يخطف الأبصار وحول القباب فناء مفتوح تحوطه البوائك التي يزينها القيشاني وتحتها غرف للطلاب والزهاد، وأنت ترى الأركان والزوايا والأقبية معقدة ترصع بقطع المرايا وتحوط الضريح شباك الفضة الثقيلة وما كدت أدخل الباب حتى أسرع إلي رهط النقباء المشعوذين بأرديتهم المميزة: طربوش عليه نصف عمامة خضراء وعباءة سوداء فتلسمني واحد منهم

مثل للجمال الإسرائيلي في بغداد.

بالقوة وأخذ يصيح صيحات ويقرأ تعاويذ وعبارات توسل، وطاف بي وهو يأمرني أن أقول أدعية خاصة وراءه، ولما كنا أمام باب الضريح قال: اركع وقبل الأعتاب فأبيت وقلت: كفى فقد قرأت الفاتحة، أما سيل الناس في داخله فحدث عنه هذا يقبل وذاك يمسح وتلك تصيح وأخرى تبكي في مشهدٍ رهيب، هنا بدت لي ترهات البسطاء ومدى سيطرة الخرافات عليهم وأغلبية البلاد من الشيعة ومن السذج غير مثقفي العقول وكم من إناث يحضرن إلى الضريح ويلقين فيه من الحلي والجواهر، وقد حدث مرة أن ضحكت سيدة وهي داخلة فأعقب ذلك أن سقط إزارها واعتراها دوار خرت من أثره على يديها ولم تستطع الخروج إلا على أربع كأنها الكلبة المهينة، كذلك قيل: إن اللصوص إذا أحضروا إلى المقام وجب أن يعترفوا وإلا التصق بدنهم بالجدران فلم يستطيعوا الحراك!

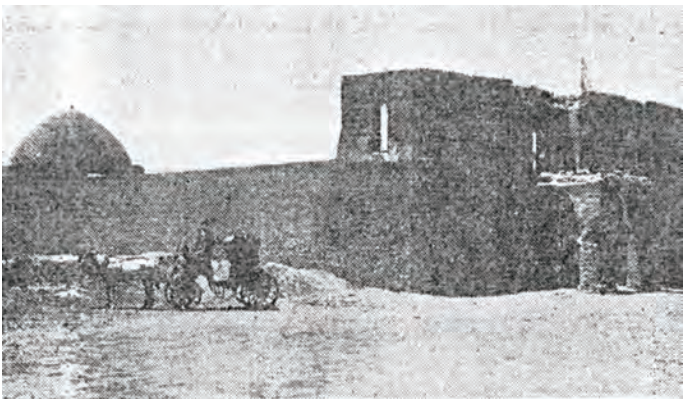

نبي الله يوشع في بغداد.

ومما راقني في بغداد أسواقها الضيقة الملتوية يعلوها سقف منحدر تقوم تحته المتاجر وأغلبها في أيدي اليهود والأرمن وجماهير المارة متلاصقة مائجة طيلة اليوم والمقاهي (البلدية) في كل مكان نجلس فيسرع صاحبها بتقديم قطرات من القهوة السادة في (فنجال بيشة) تحية للقدوم، ولابد أن يقدمها صاحب المقهى بنفسه زيادة في الترحيب ويكرر ذلك بين آن وآخر، وبغداد كلها فيما عدا شارع الرشيد الوحيد أزقة نظيفة أرضية مرصوفة يتوسطها مجرى صغير لصرف المياه وتكاد الشرفات: (المشربيات) المتقابلة تتلاصق فتحجب الطريق من الشمس والنور والبيوت جلها في هندسة شرقية ذات فناء سماوي تطل عليه نواحي البيت الأخرى ويتوسطه حوض الماء وأبواب البيوت مثقلة بالحديد والنحاس كأنها أبواب القلاع في نظام شرقي بحت، هنا ذكرت المجتمع عهد أبي جعفر المنصور وهرون الرشيد فلقد بناها المنصور ووضع أول لبنة بيده سنة ١٤٠هـ بغضًا بأهل الكوفة وتجافيًا عن جوارهم، وكان ثلثها على الضفة اليمنى لدجلة ويسمى الكرخ والثلثان على اليسرى ويسمى الرصافة، وقد أطلت البحث عن أثر يرجع إلى ذاك العهد فلم أجد إلا حائطًا مطلًّا على دجلة على مقربة من الجسر القديم نقش عليه: بني في عهد أبي جعفر المنصور بالخط الكبير وكان معهدًا علميًّا يسمى المستنصرية، لكنه اتخذ اليوم مكانًا للجمرك رغم أنه جدير بالرعاية والحفظ؛ لأنه الوحيد من نوعه وهناك بقية للسور القديم والقلعة وحولها أقيمت دور الحكومة وقصر الملك يطل على ماء دجلة في تواضعٍ كبير، ومن المساجد القديمة تبقى مئذنة متهدمة، ذلك كل ما تخلف من عصر العظمةِ

الأولى. وقفت أسائل نفسي عن الزوراء ودار السلام بلد المنصور والرشيد الذي أنفق عليها أبو جعفر فوق أربعة ملايين دينار، وطوقها بسورين وكانت أبواب السور الداخلي مزورة ومن هنا سُميت المدينة الزوراء، وفي عهد الرشيد أقام سراة القوم الجانب الشرقي قصورًا فاخرة وأسموه الرصافة وأصبح الحي الأرستقراطي الحديث، وقد بلغ سكان بغداد إذ ذاك مليونًا ونصفًا، وكان الترف آخذًا كل مأخذ فكان الرشيد ينفق على طعامه كل يوم عشرة آلاف درهم وعلى السماط ثلاثون صنفًا من الطعام تقدم في أواني الذهب والفضة، وقد أقام وليمة لزبيدة كلفها خمسة وخمسين مليون درهم وكان يقدم للناس أطباق الذهب تُملأ بالنقود الفضية وأطباق الفضة تُملأ ذهبًا وقد أثقل زبيدة بالحلي حتى أنها لم تستطع النهوض والسير خطوة، ولقد كانت زبيدة مسرفة من ذلك أنها صنعت بساطًا من الديباج جمع صورة كل حيوان وكل طائر: الأجسام بنسيج الذهب والعيون باليواقيت والجواهر، وقد كلفها مليون دينار وكان ثمن ثوبها الواحد خمسين ألف دينار، هنا ذكرت أيضًا البرامكة وما وصلوا من رفه وسلطان فقد كانوا أكثر ترفًا، مجالس الطرب في دورهم كل ليلة والراقصات من الغواني أمثال (فوز وفريدة ومنة) لا يغبن عن تلك المجالس، وقد كانت تعرض الغانيات من كافة جهات الدنيا للبيع في سوق النخاسين، وكان الدلال ينادي ويصف الجواري ويعدد في جمالهن ومحاسنهن فسلط الله عليهم زبيدة وقد أسلم الرشيد لها كل شيء حتى مالية البلاد فأخذت تنفق عن سعة وإسراف فأحصوا لها أنها أنفقت وحدها ثلاثين مليون دينار وبنت مسجدًا على دجلة باسمها وأنشأت عين زبيدة في الحجاز، وأوصلت ماءها إلى مكة وكلفتها مليون دينار وقد بلغت موارد بيت المال في عهدها خمسمائة مليون درهم من فضة وعشرة ملايين دينار ذهبًا، وهي أوفر ما حصل في دولة الإسلام جميعًا ولما مات أبو جعفر قال للمهدي في وصيته: إنه خلف له من الأموال ما إن كسر عليه الخراج عشر سنوات كفاه لأرزاق الجند ومصلحة البعوث وغيرها!

وقفت أتلمس من كل هذا بقية لكن يد الزمان قد أتت على كل أولئك لكثرة من أغار على بغداد وأعمل فيها حرقًا وتدميرًا، نخص هولاكو التتاري الذي اجتاحها في القرن الثالث عشر وأحرقها وسلب قصورها ورمى بذخائر مكتباتها في دجلة وهدم قناطرها التي ظلت من قبل آلاف السنين تنشر الخصب وتروي المساحات الشاسعة، فاستحالت تلك السهول اليوم إلى قفار مهملة أو منافع يربى بها البعوض والملاريا، وبعد هذا العهد قامت بغداد ثانية على الأنقاض الأولى وما كادت تظهر حتى فاجأها تيمور لنك الأعرج في القرن الرابع عشر وتركها أطلالًا وفي ١٥٢٤ دمرها للمرة الثالثة الشاه إسماعيل وكذلك فعل الشاه عباس في القرن الرابع عشر وفي سنة ١٦٣٨ أخذها مراد الرابع التركي من الفرس وبدأت

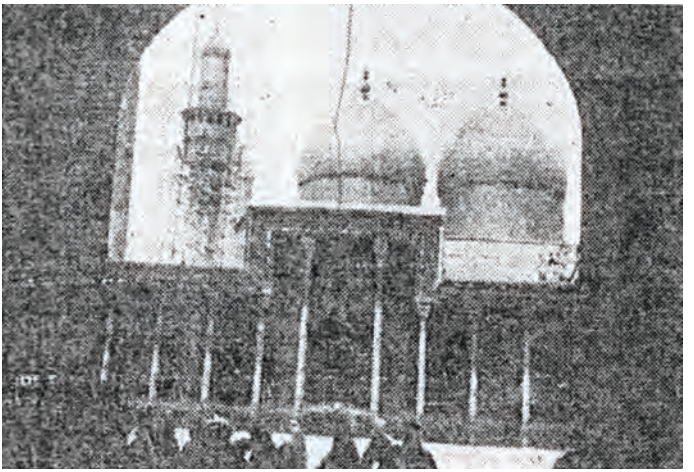

قباب مسجد الكاظمية يكسوها غشاء من ذهب براق.

تنشأ من جديد، إلى ذلك فكم قاست من هجمات فيض دجلة الذي طالما اجتاحها بأكملها، وفي سنة ١٨٦٠ جاء مدحت باشا حاكم بغداد فهدم سورها وباع أنقاضها الهائلة لينفق منه على مشروعاته الإصلاحية ولم يترك سوى ما بين (الباب الوسطاني وباب الطلسم) وكان السلطان مراد دخلها من باب الطلسم لأن الرواة قصوا أن منقذ بغداد سيدخلها منصورًا من هذا الباب.

خرجت يومًا إلى مقابر بغداد وزرت قبر زبيدة زوج هارون الرشيد ويمتاز عن باقي القبور حوله بأنه تحت مثمن تعلوه قبة في شكل مخروط مجزع يسترعي النظر وحولها مدافن أخرى ممدودة أهمها مدفن:

بهلول

سمير هارون الرشيد يؤمه كثير من الناس وبخاصة السيدات يوم الأربعاء، دخلته فإذا في فنائه عدة مبانٍ نموذجية صغيرة من القش والخرق وتسد منافذها بالحنا، منها واحد وضع داخله مهد طفل أقامته سيدة عقيم لا تلد رجاء أن يمن الله عليها بمولود، وآخر داخله سرير تنام عليه دميتان متجاورتان وضعته فتاة تطمح إلى الزواج فإذا ما أجيب السؤل ذهبت صاحبة البيت وهدمته وقدمت القرابين.

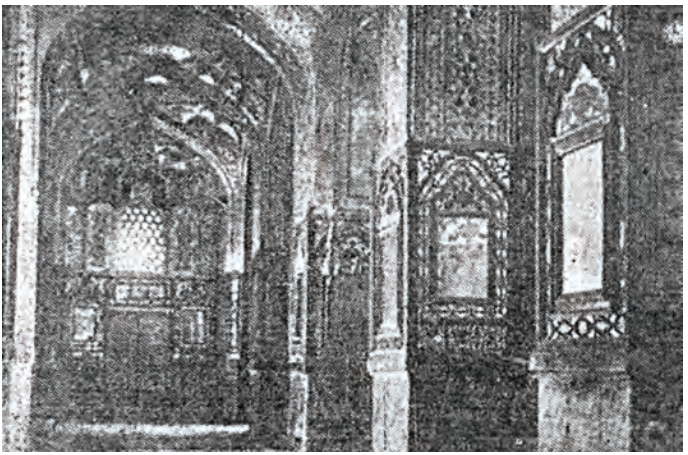

الإسراف في الزخرف داخل مسجد الكاظمية.

ومن الأضرحة المقدسة هناك مدفن منصور الحلاج يجاور مدفن الشيخ معروف الكرخي يقدسه المسلمون من الأفغان والفرس والهند، وهو فارسي كان ورعًا متدينًا زاهدًا، وكان يخلع على الناس رداءً من الصوف — ومن ثَم نشأت فئة الصوفية — وظهرت له كرامات فاتهمه السنيون بالزندقة وسجنوه ثم قتلوه ذبحًا على جسر دجلة ورموا بقاياه بعد حرقه في النهر، ويقول الناس: إن ماء النهر قد فاض وطفا الرماد المقدس فوقه وهو يقول: «أنا الحق»، فجاء شيعته وجمعوا ثراه ودفنوه، ويقدسه اليزيديون عبدة الشيطان ويقولون: إن رأسه لما رمي في النهر طفت الروح منها وصادف أن كانت أخته تملأ جرتها، فدخلت الروح فيها، ولما شربت منها حملت وبعد تسعة شهور وضعت طفلًا شبيهًا بأخيها، تناسخت روحه المقدسة في ذاك الطفل، ولهذا لا يستخدم اليزيديون الجرار قط. أما من قبور الخلفاء فلم أجد شيئًا، وقد قيل: إن بغداد لم يمت فيها خليفة قط.

إلى طاق كسرى

«إيوان كسرى» أقلتني إليه سيارة في ساعتين، فبعد أن خرجنا من بغداد قليلًا مررنا بناحية تسمى «هنيدي» مقر المعسكرات الإنجليزية، وبعد مسيرة أكثر من ساعة في أرض خصبة بدا قصر كسرى على بعد كالطود الشامخ، ولما جئناه كانت الحفائر حوله ممتدة

المستنصرية تطل على دجلة وهي الأثر الوحيد الباقي من عهد أبي جعفر المنصور.

إلى مسافات، وهو يقوم في حائط شاهق لا نوافذ فيه لكنه نقش في شبه أقبية سدت بالبناء بعضها فوق بعض، وإلى جانب الحائط قبو لا تكاد تدرك العين مداه، وقفت تحته وتخيلت كسرى إبان صولته يجلس في كمال أبهته في هذا الإيوان الذي أصبح قاعًا صفصفًا لا تجانبه إلا قرية صغيرة يزورها القوم؛ لأن فيها مدفن أحد الصحابة هو سليمان باج الفارسي تحت قبة صغيرة، وطاق كسرى أقيم بالآجر المصفر في متانة غالبت الزمن طويلًا، وقد انهدم أحد جانبيه إثر زلزال هائل، وما بقي منه مصدع الجوانب مائل الجدران، وقد لبثت أطوف بالمكان إلى الغروب حين بدا القصر شبحًا قاتمًا في ضوء الشفق الضئيل الذي أكسب المكان رهبة وأعاد إلى المخيلة ذكريات الماضي المجيد لتلك الناحية المنبوذة اليوم.

والمكان يسمونه طيشفون، وكان بلدة شادها الفرطانيون الذين لا نكاد نعرف عن تاريخهم شيئًا، ولقد كان مقرهم الجنوب الشرقي لبحر الخزر، ولما نالوا استقلالهم سنة ٢٥٠ق.م. اتسع ملكهم وظل ٤٠٠ سنة، وقاوموا الروم في آسيا، وكان ملوكهم يمضون الصيف في الشمال، وإذا ما أقبل الشتاء حلوا طيشفون شرق دجلة تجاه بلدة «سلوقية» التي بناها سليوكاس الإغريقي على الضفة الغربية، ولما كبرت طيشفون أصبحت عاصمة ملك الفرطانيين، وحاول الروم غزوها فأعياهم ذلك حتى جاء الإمبراطور «تراجان» فحمل سفنه من البحر إلى البر وسيَّرها على أسطوانات إلى دجلة، وعبره بها واحتل المدينة وبعد

هارون الرشيد يستقبل رسل شارلمان.

فترة اضطراب ظهر «أردشير» ملك فارس وغلب الفرطانيين وجعل طيشفون مقره، فأسس أسرة الساسانيين وأعاد إصلاح سلوقية وشاد حولها مجموعة من بلاد أطلق عليها العرب اسم المدائن، وفي سنة ٥٣١ ميلادية ظهر في الميدان أعظم الساسانيين «كسرى الأول أنو شروان»، وشاد القصر الأبيض ولما ظهر الإسلام وانتصر سعد في القادسية فتح البلدة وأخذ ذخائرها التي لا تقدر، وفي بهو القصر صلى سعد الجمعة بالناس لأول مرة في أملاك فارس، ولما ظهر للعرب أن موضع طيشفون ليس صحيًّا ولَّوا شطر الكوفة وبغداد والبصرة، وقد جملت بغداد بكثيرٍ من المواد التي نقلوها إليها من طيشفون وسلوقية حتى لم يبقَ فيها من أثر واضح إلا قصر كسرى الذي غالب معاول أبي جعفر المنصور الذي نقل من آجره الكثير رغم معارضة خالد بن برمك، وكان يريده أثرًا خالدًا فشك الخليفة أنه يتعصب للفرس قومه، ولما أعياه الهدم استشار خالدًا في إيقاف الهدم، فقال له: كنت أرى عدم

الهدم، ولكن أما وقد بدأته فلا يصح إيقافه لئلا يقال: عجز سلطان العرب عن هدم مصنع من مصانع فارس، فندم المنصور وأوقف الهدم.

وكم ضم القصر من آيات البذخ والغنى لملوك فارس الأقدمين، وقعت كلها غنائم للعرب على يد سعد من أكداس الذهب والفضة والملابس الموشاة والأحجار الكريمة والأسلحة المرصعة إلى ذلك مقادير المسك والعنبر والكافور والأعطار، وجواد من ذهب خالص أسنانه رُكِّبت من زمرد ورقبته رصعت باليواقيت، وكان له سرج من فضة وداليات من ذهب، إلى جواره ناقة من فضة ومن ورائها رضيعها من ذهب. ومن بين ما حوت أسلحة كسرى درع كامل من ذهب تزينه اليواقيت، ولعل أجل مخلفاته بساط ذرعه سبعون ذراعًا في ستين، وكانت رسومه تمثل حديقة حيكت أرضها من ذهب وطرقها من فضة ومروجها من زمرد وجداولها من لآلئ وأشجارها وثمارها وزهورها كانت مزيجًا من الماس والأحجار الكريمة، وقد أرسل سعد إلى الخليفة بالأشياء الفنية القيِّمة وبخمس ما لقي من الغنائم ووزع أربعة أخماسها على جنوده الذين ناهزوا ستين ألفًا، فنال كلًّا منهم ما قيمته ثلاثمائة واثنا عشر (٣١٢) جنيهًا.

وقد كان القصر الأبيض زينة طيشفون وأجل ما خلفه فن العمارة الساساني، بناء شامخ قام مدخله على اثني عشر عمودًا من رخام، وكان ذرعه ١٥٠ قدمًا في العلو و١٨٠ عرضًا و٤٥٠ طولًا، ولقد كانت سعة البهو الكبير الأوسط ١١٥ في ٨٥ قدمًا، وكان يحمل قبوًا سقفه مجموعة من نجوم الذهب والكواكب السماوية تبدو فوق الأفق، هنا كان يجلس كسرى على عرش من ذهب يستمع للشكاوى ويقيم العدل، وقفت أستظل بذاك القبو الهائل وسرعان ما توالت ذكريات العظمة البائدة، فكنت أنظر فلا أرى لها أثرًا، وكان حفيف الريح في أوراق الغاب البري الذي أحاط بتلك الخرائب كأنه صوت ينعى أولئك الجبابرة، فسبحان مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء.

عدت في المساء وقبيل بغداد عبرنا نهر ديالة رافد دجلة، وقد دفعت سياراتنا رسم عبور القنطرة سبعة قروش ونصف (روبية) وتلك قاعدة متبعة في كل قناطر العراق.

إلى الحلة

قمت إليها في القطار وهي من مدن الكلدانيين وإن لم يبقَ لهم فيها أثر اليوم، وهي وسط إقليم خصيب يستفيد من سد الهندية أكبر وسائل الري في العراق كلها، وهو يروي ثلث مليون فدان، ويقول الناس: إن مياه الفرات أكثر خصبًا وأغزر فيضًا من دجلة، وهو أعذب

كل أحياء بغداد من تلك الأزقة التي تذكر المرء بعهد هارون الرشيد.

شربًا وأصلح للصحة، ولقد أقام الإسكندر المقدوني أبنية ليسيطر على مياه شط الهندية إلى الغرب وشط الحلة إلى الشرق وهما شعبتان للفرات، وقد أعاد الإنجليز اليوم بناء سد الهندية لإمداد فرع الحلة الذي كادت تسده الرواسب، بينما فرع الهندية كان يتعمق حتى كاد يودي بالمياه سدًى. قمت في سيارة مسيرة ساعة إلى:

بابل

التي بناها الكلدان على الضفة اليمنى للفرات، فإذا بها تل من الطين حوله المزارع، وفي وسط ذلك التل رأيت بعض أطلال يقولون: إنها مقر الحدائق المعلقة وقصور بابل، وكانت بابل أول الملكيات العظيمة التي أقيمت في غرب آسيا، وهي ثانية ملكيات العالم بعد مصر، وكان يطلق عليها أرض شنار، وفيها ظهر نمروذ طاغية على الأرض، ومن بابل تقدم إلى

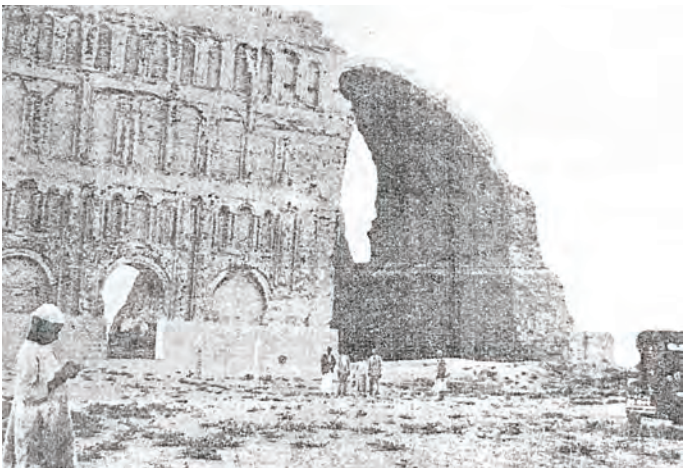

إيوان كسري.

أرض أشور وبنى نينوى ولبثت أشور ونينوى خاضعَين لبابل طويلًا، وفي القرن التاسع قبل الميلاد نال الأشوريون استقلالهم، وفي ٧٤٥ق.م. هزموا بابل وأخضعوها لملكهم، وبذلك أصبح العبد سيدًا، وظلت نينوى سيدة زهاء قرن حالف خلاله أهل بابل الميديين، وفي ٦٠٦ق.م. باغتوا نينوى وأمعنوا في تخريبها حتى أخفوها عن الأنظار، ولم يعد الناس يعرفون حتى موقعها.

وبسقوط نينوى بدأ العصر الثاني لبابل وهو عصر نبوبولصار الذي بنى الحدائق المعلقة ذائعة الصيت وإحدى عجائب الدنيا، وقد أقامها لاستمتاع زوجه الميدية بنت أحد أمرائهم الموالين، وقد ورد في إحدى الأقاصيص الإغريقية أن الحدائق المعلقة شادتها سمراميس ملكة أشور الخيالية التي تقول الخرافات: إنها بانية بابل وأشور وما كان فيهما من عظمة ورواء، فأراد نبوبولصار أن يشيد بلدة تفوق كل ما تقدمها، فسخَّر في بنائها مهندسي نينوى الذين ألزمهم بإقامتها قسرًا وهم له أسرى أرقاء، فأخرجوا بابل الثانية في رواء وجلال فاق كل ما تقدمها، وقد روى هيرودوت أبو التاريخ أنه في القرن الخامس ق.م. أقيمت بابل في مربع يشقه الفرات، وكان ذرعها ١٥ ميلًا مربعًا، يحوط كل أولئك سور علوه ٣٥٠ قدمًا وسمكه ٨٧ تتخلله مائة بوابة من نحاس، ولم تكن موطنًا لأخلاط الناس بل لمترفي القوم وملوكهم، وهي أفخر مدن العالم القديم جميعًا وأجل مبانيها.

إلى جوار قبر زبيدة زوج هارون الرشيد.

الحدائق المعلقة

أقيمت أسسها من الصخر المنحوت رغم صعوبة الحصول على الصخر وسط أرض دجلة والفرات الطينية، ولم يُعلَم من أين جاءوا بتلك الأحجار، وكم كلفهم ذلك من جهد ومال، حقًّا إن الحدائق لم تكن تفوق في العظمة والأبهة قصر نبوبولصار ولا معبد «بل ماردوك» إله بابل وحاميها ذاك الذي أقيم من طبقات يتوجها هيكلان من ذهب، إلا أن الحدائق المعلقة كانت أكثر جمالًا ورقة، ولقد شغلت متسعًا ذرعه ربع ميل في الشمال الشرقي من البهو الرئيسي من القصر الملكي، وقد أقيمت في شبه مصاطب أو شرفات الواحدة فوق الأخرى من صخر ترفعه عدة بوائك وأقبية إلى علوٍ يناهز ٣٥٠ قدمًا، وكان يدعم البناء سور سمكه عشرون قدمًا، مُكِّن لمرور عربتين متجاورتين في كلٍّ أربعة جياد، وكان

لا يزال ترام بغداد تجره الجياد.

يكسو كل إفريز من هاتيك غشاء سميك من الطين تنبت فيه أعشاب الزهور وأشجار الثمار، وكانت تُروَى تلك الحدائق من مضخة هائلة ترفع الماء إلى الطبقة العليا ومنها يجري، فيروي تلك الحدائق؛ ولاتقاء خطر الرطوبة ونز الماء بُطِّنت الأقبية كلها بطبقة من الرصاص وكان يتخلل تلك الأقبية مقاصير للراحة بولغ في نقشها وزخرفتها، تؤمُّها الملكة وحاشيتها؛ تخلصًا من وهج الشمس ولفح الحر في سهول الجزيرة المحرقة صيفًا، ولقد رأيت ما تخلف منها في قبو طويل من الطوب والحجر تحته حجرات كانت أشبه بمثالج لحفظ الطعام من العطب والفساد، وعلى جانبيه بقايا لغرف عدة، وإلى جوارها بئر لها فتحات ثلاث، الوسطى مستديرة بجانبها اثنتان بيضاويتان، ويُظَن أن روافع الماء كانت تقام عليها.

وإلى شمال بابل رأينا القصر وقلعة نبوبولصار من الآجر بجانبها أسد بابل الذي يطأ تحته رجلًا، وهو في هندسة غريبة غير بابلية، لذلك ظُنَّ أنه من أسلاب الحرب من بلاد الحيثيين في الشمال، ويعزز ذلك صخر وُجد إلى جانبه وكُتب عليه بالحيثية، وإلى جنوبه مباشرة أطلال القصر الذي شاده «نبوبولصار» على أطلال قصر أحد أسلافه، وقد بدا لنا مجموعة أحجار من آجر، ولقد تعقب علماء الألمان تصميم القصر ووضحوا لنا هندسته، وفي ركنها الشمال الشرقي على مقربة من «باب أشتار» مجموعة من بوائك مخربة ظُنَّ

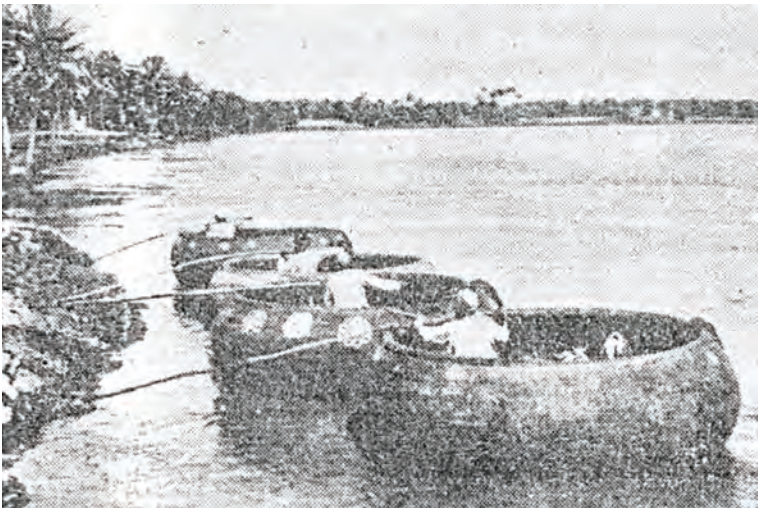

زوارق بغداد ويسمونها «جونة» وتصنع من جدائل الخوص.

أنها الحدائق المعلقة، وكان يؤدي طريق مرصوف بالحجر من باب أشتار إلى القصر الملكي من جانب وإلى معبد مردوك من الجانب الآخر. وقد رأينا بقايا جسر أو قنطرة من الطوب كان يقام على الفرات يوم كان يشق طريقه القديم إلى شرق طريقه الحالي، ولقد كان يحوط المدينة أسوار عدة، حتى إنها كانت في غاية المنعة، تشرف على أقصى شمالها قلعة بابل؛ مما يؤيد أن حصار بابل كان لا شك عملًا عظيمًا شاقًّا حتى إن الفرس لم يحتلوها إلا لما أن دخلوها عن الفرات، ويظهر أن نبوبولصار جددها من أقصاها لأقصاها لأن اسمه وآثاره تعمها جميعًا مع أنها كانت سابقة لزمانه بنحو ١٥٠٠ سنة، حين كانت عاصمة «حامورابي»، ولذلك صعب على الكاشفين أن يعثروا على أثر لتلك القرون الأولى التي تقدمت زمن نبوبولصار. وإلى جانب القصر كومة من أطلال أقامها الإسكندر وأحرق فوقها جثة صاحبه «هفستيون»، وهنا مات الإسكندر نفسه ومات فيها من قبل نبوبولصار ونبوكادرزر وبلشازار وكورش وكثير غيرهم.

وهنا جرت أكبر موقعة بين سعد بن أبي وقاص وجيوش الفرس سنة ١٦هـ حين فتح المدائن.

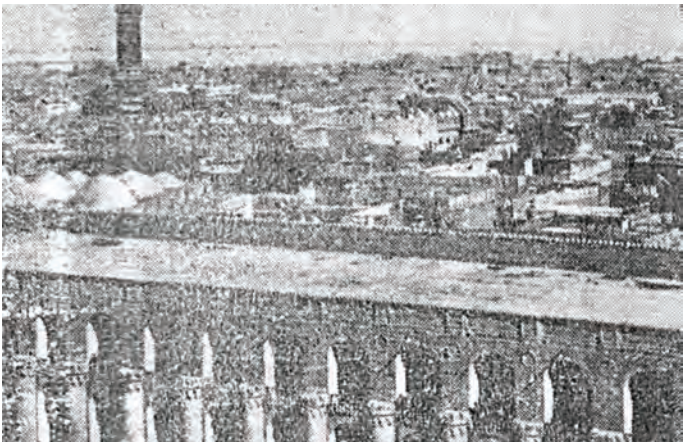

منظر عام لبغداد من السراي.

إلى الكوفة

قمنا في سيارة وأخذنا نسير وسط تلك السهول الموحدة المملة، ولم يكن يسترعي النظر فيحدث بعض التغيير في المنظر سوى التلال العدة التي كنا نراها في أطلال بقايا القدماء، ومن أهمها قلعة نمروذ، وتل أور عاصمة السومريين. بلاد يسأم السائح المقام بها اليوم لولا ما تثيره ذكريات ماضيها من عظمة. كنا نرتقي التل فإذا به أطلال لمدينة بائدة لا يكاد يرى فيها العابر العادي معنًى ساميًا ولا منظرًا جذَّابًا، لكن سرعان ما يمر بالخاطر حامورابي الذي خط قوانينه في ألواحه التي كنا نجد بعض بقاياها منثورة فوق تلك التلال من سنة ٢١٠٠ق.م. هنا يذكر المرء السومريين، وأنهم أول من أزاح الستار عن كثير من حقائق العلم والطب والفلك، وهم الذين بدءوا الكتابة واخترعوا المزولة وقسموا اليوم إلى اثني عشر قسمًا، وعنهم أخذ الإغريق.

ومن الأماكن التي مررنا بها في طريقنا إلى الكوفة: بلدة ذي الكفل التي قامت حول مدفن هذا النبي الذي يقدِّسه المسلمون واليهود، ويعتقد هؤلاء أنه من أنبيائهم وطالما حاولوا امتلاكه، يحجون إليه ويتوسلون العطايا في مواسم معينة ويكثر عددهم حوله، وكم سمعت الكثير يرددون القول بأن بلاد الجزيرة هي خير وطن لليهود؛ لأن إبراهيم الخليل عراقي، وجل اليهود عاشوا هناك طويلًا، ولا يزال عددهم اليوم هناك يفوق عددهم

إحدى وسائل الري الساذجة.

في فلسطين وبيدهم هناك معظم التجارة، وبخاصة الأغذية والصباغة والمنسوجات، ويهود العراق من سلائل أسرى اليهود الذين أحضرهم بختنصر إلى بابل بعد تدميره للقدس، وكثير من زعمائهم يدفن هناك، من بينهم عزرا ويونس وناهوم، وغالب الظن أن الطوفان بدأ في النهرين، وأن جنة عدن حول القرنة عند ملتقى النهرين على مقربة من البصرة. وفي ألواح بابل الطينية قصص كثير من الشركات المالية اليهودية التي بلغت الأوج عهد بختنصر، وكان منهم الجباة ويخال البعض أن الملكة «أستر» هي الإلهة «أشتار» البابلية، وهم الذين ابتدعوا النقود في العراق نقلًا عن «ليديا»، ورغم وجودهم وسط العرب أحب الشعوب للنقود بعد اليهود فإن فنونهم المالية فاقت فنون العرب؛ لأن العربي يحب جمع المال ويعمل له، لكنه يضيِّعه عاجلًا، أما اليهودي فيحرص عليه طيلة حياته، وهم في العراق شرقيون في كل شيء في الأزياء والعادات والخرافات، وحتى في الزواج، لا يخالط الفتى خطيبته ولا يراها إلا يوم الاتفاق على المهر، والفتيات يتزوجن مبكرات بين الثانية عشرة والسابعة عشرة وفي الزفاف يحضر «الربى» ومعه كأس يملؤها نبيذًا يباركه ثم يشرب منها الزوج نصفًا والزوجة الباقي، وفي المآتم يحتشد أقارب الفقيد في بيته ويصيحون عاليًا والجميع يشقون ثيابهم حزنًا ويلقون بالثرى على رءوسهم.

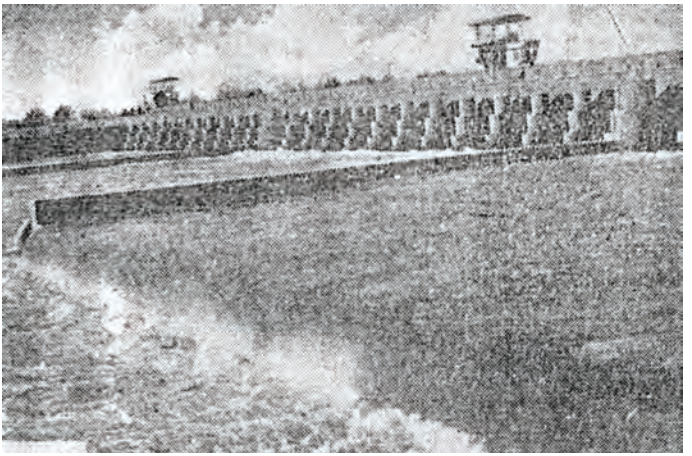

سد الهندية أكبر مشروعات الري الحديثة في العراق وفي مكانه أقام الإسكندر نظمًا للري كانت آثارها باقية.

أخيرًا بدت الكوفة في قرية صغيرة وقفت بمسجدها الجامع حيث وقف الحجاج الثقفي يتوعَّد أهل العراق في خطبته المشهورة «يا أهل العراق ... إلخ»، وكان طاغية مستبدًا مقره واسط التي تقع بين دجلة والفرات وسط الجزيرة وفي منتصف المسافة بين بغداد والبصرة، وهناك كان قصره وقد قتل نحو ١٢٠ ألف نفس، وكان في السجون عند وفاته نحو خمسين ألفًا، ولم يكن للناس حديثٌ عهدَه إلا من قُتل اليوم ومن قُطع أمس، ومن شدة ظلمه في جمع الخراج كان يتنحى الناس عن ولاية الخراج؛ لأنهم لا يمكنهم أن يجمعوا منه نصفه رأفة بالناس، ويظهر أنه كان يجد لذة في سفك الدماء، أرسله عبد الملك بن مروان ليثبِّت لبني أمية الملك في العراق، فقام على الظلم حتى انقرضت دولتهم في المشرق، وكان زياد بن أبيه في البصرة.

والمسجد محفوظ على شكله القديم يبدو كأنه القلعة بتكآته الأسطوانية الخارجية ومنارته الوطيئة، فناؤه فسيح تشرف عليه قبتان إحداهما لضريح مسلم بن عقيل، والثانية لهانئ بن عروة، وفي وسطه فتحة تحتها سرداب يعتقد القوم أن الطوفان نبع من تحتها، وإلى جانبها عمود من رخام يستخدم مزولة كانوا يعرفون به مواقيت الصلاة، وفي الركن الأيمن للصلاة مقصورة مغلقة في مكانها قتل سيدنا علي رضي الله عنه، وفي خارج المسجد من ورائه كانت تقوم قصور الإمارة والخلافة الأموية ولم يبقَ منها شيء اليوم «والحمد لله

كما يقول الشيعة هناك»، فالكوفة في نظر الشيعة بلدة ملعونة، وهي أكثر بلاد العراق بل والعالم نحسًا ونكدًا، يرمى أهلها بالغدر والجبن وضعف النفس، ففيها قُتل علي وأهلها هم الذين أغروا الحسين أن يخرج في عائلته وفي وسط الصحراء تخلَّوا عنه في جبن وخسة وقُتل أمام أعينهم، وهنا أيضًا غدروا بزيد حفيد علي، فهم الذين حضوه على مقاتلة الخليفة الأموي، ولما همَّ بذلك تخلَّوا عنه فقُتل مع الفئة القليلة التي ناصرته.

إلى النجف

معقل الشيعة: أقلنا إليها ترام من الكوفة يسير على قضبان تجره الجياد في ثلث ساعة، وأبصرنا على بعد في مجاورة الفرات: الحيرة حيث حارب ملكها النعمان بن المنذر جيوش كسرى، وحيث كانت قصة عنترة العبسي بن الأمير شداد العربي والأم الزنجية، وقد نال إعجاب عبلة من الأميرات بنات عمومته، وذلك بفضل ما أوتي من شجاعة فائقة.

وكانت بلدة الحيرة أسبق من الكوفة شأنًا، بنى فيها المناذرة بعد تنصرهم القصور والكنائس، ولما فتحها خالد تحول عزها إلى الكوفة، والمناذرة عمال فارس على العراق كما كان بنو غسان عمال الروم على العرب، وفيها بنى النعمان بن المنذر قصر «الخورنق والسدير».

بدت النجف وضاءة وسط البادية في رواء وبريق يراه المشاة من الحجاج محط آمالهم وموضع عقيدتهم وفخارهم — وكثير منهم يقوم من بغداد على الأقدام وكم أجهد منهم الإعياء والجوع فماتوا في الطريق — ويقول القوم: إن قباب الحرم تُرى من أربعين ميلًا إذا صفا اليوم وراق هواؤه لأنه يقوم على ربوة وسط صحراء ممهدة لا حزون فيها، وكيف لا يراها الأتقياء محط آمالهم وهي مقر أول خليفة للنبي ﷺ، وفي زعم بعضهم هي مقر من كان أحق بالرسالة من النبي نفسه! وللقوم قصة يروونها عن نشأة النجف، هي أنه لما قُتل علي في الكوفة حُملت جثته على جمل أُطلق في الصحراء فأخذ يسير على غير هدًى حتى وصل ربوة تطل على بحر النجف على مسيرة ساعة من الكوفة، فبرك الجمل وهنا دفن القوم الجثة الطاهرة وأخفوها خشية أن يعلمها أعداؤهم، ومضت السنون حتى جاء هارون الرشيد لصيد الغزال وتعقب فريسته وكاد يرديها لولا أن ارتقت تلك الربوة، وهناك وقف الغزال متحديًا في غير حراك ولا خوف، فنزل الرشيد وشحذ قوسه فخانته ذراعاه ولم يستطع الحركة ثلاث مرات متواليات، فذعر الرشيد وأبصر برجل كهل فسأله عن المكان فقال: إن أنا بحت بالسر نالني الضر يا أمير المؤمنين. فأقسم الخليفة أنه لن يصيبه بأذى،

على جسر الحلة.

فقال الرجل: ها هنا مقر الإمام علي، عرفه الغزال مأمنًا ولا يجرؤ أحد أن يصيبه بسوء وهو فوق العظام الطاهرة. فنقب الرشيد الأرض حتى رأى عظام علي تحت لوحة من رخام فتركها، وأقسم ألا يبوح بسر تلك البقعة حتى أقام عليها المسجد، ثم أخذت مباني النجف تحوطه إلى أن بلغت شكلها الحالي.

اخترقت سوق النجف المسقف فأدى بي إلى باب المسجد الذي بهر أنظارنا بزخرفه وطلائه، هندسته فارسية ومآذنه وقبابه تكسى بالذهب الخالص في بريق خاطف، جزت الباب إلى الفناء السماوي المربع تطل عليه الحجرات المتجاورة، ثم دخلت باب الضريح وأنى لقلمي الكليل أن يصف إبداعه من نقوش وتطعيم بالذهب والفضة وزخرف بالبلور والزجاج والقيشاني فاق فيه جميع المساجد الأخرى، نظرت فإذا أصوات البكاء وولولة النادمين وتقبيل المتبركين واستلقاء المنتحبين على الأرض تثير الشجن وتهز القلب، أصوات تشعر بمأساة قتل الإمام مجسمة فلا يتمالك المرء نفسه من البكاء، وطائفة النقباء من الأشراف يقرءون أورادًا بعضها من الكتب والبعض من الذاكرة، ويقودون الزوار ويتكالبون على مصاحبتهم مقابل أجر يتقاضونه جبرًا.

وبعد أن أديت الزيارة خرجت أطوف حول الحرم، وإذا بالمقابر تمتد إلى الآفاق من قباب فاخرة إلى أضرحة بسيطة لإيواء آلاف الجثث التي كنت أراها تنقل على السيارات أو

فوق أطلال حدائق بابل المعلقة وبجوارنا أسدها المشهور.

الأكتاف من الآفاق الإسلامية، وبخاصة العراق وفارس، ويقول العلماء هناك: إن المدافن عشرة آلاف لا تزيد ولا تنقص لأن سيدنا عليًّا يرسل ما زاد من الجثث بعيدًا، فلا يعرف أحد مقرها، والمقابر تُباع بأثمانٍ هي من الموارد الرئيسية للحرم، وتختلف قيمتها حسب قدسية الموقع، فهناك مدفن عام (في وادي السلام) ثمن الدفن به نحو أربعين قرشًا، وفي المدافن الخاصة نحو جنيهين، أما في الحرم وما يلاصقه من أراضٍ فلا تقل القيمة عن ستين جنيهًا، هذا فوق ما يستفيده أهل النجف من مستلزمات الدفن، وكم من جثث كانت تحملها السيارات وافدة من كل فج وبعد الغسل يطاف بها حول الحرم، وبعد الصلاة عليها تُدفَن وتظل كذلك حتى يتراءى لسيدنا علي أن يكشف عن مكنونها فتختفي، ويدفن في مكانها غيرها!

على باب أشتار ونقوش الثيران والتنين شعار الإله مردوك.

وفي النجف فئتان من الأهلين متباغضتان: حزب السجورت وهم الفقراء، وحزب الشمورت وهم الأغنياء، والكلمتان من أصل تركي، ولقد أثارهما الأتراك يوم أن كان حكمهم السني مبغَّضًا لدى الشيعة هناك، فلجئوا إلى سياسة الأحزاب والتفريق بينهم كما يفعل المحتلون اليوم لكن في مكر سيئ ودهاء كبير، ولكل فئة أشياع من العشائر في الخارج، وكثيرًا ما يقتتلون تحت إمرة مجتهديهم، وتعد النجف مصدر جميع الثورات والاضطرابات التي تحدث في العراق، ومنها ثورة سنة ١٩٢٠ الشهيرة ضد الإنجليز، ويلي المجتهدين في النفوذ طبقة «الكلدار» وبيدهم ثروة الحرم، وهي لا تقدر، وكلها من فيض إحسان الزائرين حتى قيل: إن الصندوق لما فُتح عقب زيارة نصر الدين شاه كان وزن الذهب والفضة سبعة أطنان، إلى ذلك مصباح نُحت في زمردة واحدة، وماثله «شمعدان» للشمع من ذهب ترصعها اليواقيت وبساط تزينه اللآلئ، وقد أمر أن تكسى القباب والمآذن

من ظاهرها بالذهب الخالص؛ لذلك ليس بعجيب أن نرى البلدة كالحصن حولها سور عتيد وخندق عميق كأنها من بلدان القرون الوسطى، كذلك فإنك ترى نصف البلدة تحت الأرض في سراديب بعضها تحت بعض في طبقات قد تفوق الخمس، نزلت بعضها فبدت كالتيه لا يُعلم لها أول ولا آخر، وهم يختبئون فيها من وهج الصيف، ويدبرون فيها ثوراتهم ويكتمون أسرارهم، وقد رأيت حول البلدة مجموعة من تلال تراكمت من الثرى الذي استُخرج من تلك السراديب، ومن فوقها بدا «بحر النجف» في مشهدٍ جميل وسط وادٍ سحيق تزينه المزارع ويصله الماء عن شعبة من الفرات، ومن ورائه تمتد بادية العرب إلى الآفاق وهي موضع فزع للنجفيين إذ منها يتوقعون غارات الوهابيين من غلاة السنيين، وكنا نشاهد قُطُرًا من حمير تثقلها قرب الماء تسير صعدًا فوق تلك التلال لإمداد النجف بالماء من ذاك البحر، وقد خُيِّل إليَّ أن أهل النجف كلهم من العلماء يسيرون وحول طرابيشهم العمامة الخضراء، ويعيشون عالة على أموال الصدقات والحجاج، وفي البلدة من المدارس الدينية أكثر من ثلاثين تئوي فوق ستة آلاف طالب، زرت إحداها، وهي في داخلها تحكي المسجد، ويقرأ الطلبة على مشايخهم، ثم بعد ذلك يأوون إلى سراديبهم ولكل مكانه الخاص، نزلت درجًا بعيد العمق أدى بنا إلى سراديب ومفارق لطرق كلما سلكنا سبيلنا في إحداها مررنا بغرفٍ بها مناور ضيقة ويجلس فيها طالب أو اثنان وسط ظلمة موحشة وسكون رهيب ينكبان على التحصيل والدرس، وهذه السراديب من أخص مميزات النجف توجد في المساجد والمدارس والبيوت يختزنون فيها متاعهم كي لا تفسده الحرارة، وقد دعاني أحد كرامهم إلى بيته ونزلنا بعض سراديبه، وكان هجير اليوم لافحًا فشعرت ببرودة ورطوبة نقلتنا إلى المنطقة الباردة تمامًا في دقيقتين، وهناك قدم إليَّ بعض البطيخ ويسمونه «الرجى»، والبطيخ عندهم يطلق على الشمام فكان مثلجًا منعشًا شهيًّا.

وصادف أن كانت البلدة في هياج طائفي شديد يوم زرتها «٢٤ يوليو» لما شجر بين الشيعة والسنيين إثر كتاب أخرجه بعض السنيين وأسماه «العروبة في الميزان»، طعن فيه الشيعة، فاهتاج أولئك، وقام شيعي يخرج كتابًا آخر للرد على أهل السنة، فطالب الناس بمصادرة الكتاب الأول، فصودر، وطالب السنيون بمصادرة الكتاب الثاني فحاولت الحكومة ذلك ولم تستطع لأن الهياج هناك بلغ أشده، وقد تشكلت هيئات ولجان طالبت الحكومة برد حقوق الشيعة وهم أغلبية السكان،[1] وإن كانوا أكثر جهلًا، أما الحكومة

[1] سكان العراق دون ثلاثة ملايين، منهم مليون وربع من الشيعة ومليون من السنيين وربع مليون أكراد، والباقي يهود ومسيحيون ويزيديون وصابئة ... إلخ، فالتفرق والتنابذ هناك يساعد نفوذ الأجنبي كثيرًا.

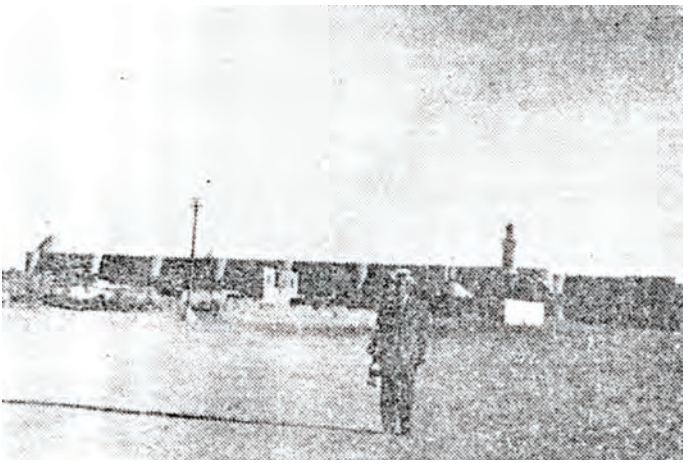

أمام مسجد الكوفة حيث وقف الحجَّاج يهدد أهل العراق في خطبته المشهورة.

فتعاضد السنيين لأنهم أكثر ثقافة من جهة، ولأن الإنجليز أميل إلى معاضدة الأقليات من جهة أخرى! لذلك ترى أكثر المتصرفين (وهم المديرون) والوزراء من السنيين، وكان المغفور له الملك فيصل في أوروبا، فأبرقوا إليه فبعث إليهم يطمئنهم ويوصيهم بإيقاف كل شيء حتى يعود، وكم كان ألمي شديدًا لهذا الشقاق الذي لا شك يضعف مركزهم أمام الغاصب، وينال من استقلالهم كثيرًا، على أني علمت أخيرًا أن حركة مذبحة الأشوريين وتصرف الأمير غازي الجريء، وكذلك موت الملك فيصل، كل ذلك قد ألف بين القلوب، فتناسوا الأحقاد ولو إلى حين.

الشيعة

لما مات النبي ﷺ في غير خلف من الذكور قام أبو بكر وأوقف المرتدين وحمل لواء الإسلام إلى الجزيرة، ولما عاد عمر بن الخطاب واصل دعاية الإسلام بفضل قائديه خالد ومعاوية، فحنق عليه قوم واعتقدوا أن الخلافة يجب أن تكون في سلالة الرسول، لكن كظموا غيظهم حتى مات عمر، ثم جاء عثمان وقُتل عاجلًا، وقام علي زوج فاطمة بنت النبي ﷺ وأب أحفاد رسول الله، وكان الخوارج هم الذين حرضوا على قتل عثمان وأيَّدوا عليًّا، لكنهم خرجوا عليه هو أيضًا لما رضي بمهادنة خصومه (ومن ثَم سُموا الخوارج)، ودبروا مؤامرة

لقتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص في وقت واحد، فقُتل علي بيد عبد الرحمن بن ملجم وهو ينادي للصلاة، إذ جرحه جرحًا بليغًا في رأسه مات بعده بيومين، وقد مثَّل الناس بابن ملجم فعذَّبوه وقطعوا أطرافه. بايع الناس الحسن بن علي، وكان معاوية قد بويع في الشام، فزحف لقتال الحسن وتأهب الحسن للقتال في العراق، لكن ثار عليه جنوده وانفضوا من حوله، فهادن معاوية وتنازل له عن الخلافة وفرَّ وقُتل، ثم بايع الجميع معاوية إلا الخوارج والشيعة (شيعة آل البيت أو آل علي)، وقد اجتمعوا حول الحسين بن علي في مكة، فقتله جنود معاوية في كربلاء هو وأفراد أسرته وأتباعه جميعًا، إلا ابن واحد للحسين أمكنه الهرب، ولقد جعل معاوية الخلافة وراثية في أولاده، وعيَّن ابنه يزيد خلفًا له، لكن ظل الخوارج يناوئون بني أمية ومن بعدهم العباسيين، وفي رأيهم أن الإمامة والخلافة لا يُشتَرط أن تكون في قريش، ويجب توافر الكفاية والعدل، فإن حاد الخليفة عن الصواب وجب عزله، فهم أبغض الفئات الإسلامية للحكم الوراثي، ويعدون نصراء الحكم الديمقراطي، كذلك قام الشيعة يناهضون بني أمية، لكن لما قويت الدولة الأموية واتسع نفوذها اختفى الشيعة وظلوا يعملون سرًّا حتى بدأ اضمحلال دولة بني أمية، فظهروا ثانية، وعاونوا العباسيين في خراسان تحت أبي مسلم الخراساني، على أن العباسيين لما تملكوا أخذوا يطاردون الشيعة.

وأخذت طوائف الشيعة تتشعب وعاونها الفرس سرًّا على ذلك؛ لأن فارس رأت فيهم خير هادم للإسلام ولملك بني العباس، أولئكم الذين قضوا على استقلال فارس وحاولوا القضاء على قوميتها. ومن فرق الشيعة من يقول بأن الصحابة كلهم كفروا بعد موت النبي إذ جحدوا إمامة علي، وأن عليًّا نفسه كفر لتنازله لأبي بكر، لكنه عاد له إيمانه لما تولى الإمامة، وهذه فرقة «الإمامية»، ومن الشيعة قسم أوجب النبوة بعد النبي، فقالوا بأن الشبه بين محمد وعلي كان قريبًا لدرجة أن جبريل أخطأ، وتلك فئة «الغالية أو الغلاة»، ومنهم من قال بأن جبريل تعمد ذلك، فهو إذن ملعون كافر.

ومن الشيعة طائفة «الاثني عشرية» الذين يقدسون الأئمة الاثني عشر، وهم: علي فالحسن فالحسين فابنه زين العابدين فابنه محمد الباقر فابنه جعفر الصادق فابنه موسى الكاظم فابنه علي الرضا فابنه أبو جعفر محمد فابنه علي فابنه محمد الحسن العسكري فابنه محمد المهدي الذي اختفى في مغارة سامرا، وسيخرج آخر الزمان ليهدي الناس ويطهر العالم من الرجس والجور، ومنهم الإسماعيلية والباطنية الذين مر الكلام عليهم في الشام، ثم القرامطة الذين تقوَّوا حول الخليج الفارسي ويعرف عنهم الإباحة

داخل مسجد الكوفة حيث قُتل سيدنا علي ومن تلك العين نبع الطوفان.

في النساء، وقد أحلوا أنفسهم من كل عبادة، واستحلوا النهب والرذائل وتركوا الصلاة والصوم، وكانوا ممن يعملون على هدم الإسلام، وفي مصر قام الحاكم بأمر الله بعد المعز ينشر مذهب الشيعة ويدرسها في «دار الحكمة»، وكان أساسها أن الشرائع خاضعة للعقل والعلم، وأن الأنبياء هم رجال عاديون وغاية ما في الأمر أنهم فلاسفة، وقد ألهه الدروز وقالوا بأنه رُفع إلى السماء وسيعود لتطهير الأرض، كما أسلفنا، ويرى جميع الشيعة أن الإمامة ليست مصلحة عامة تناط باختيار الناس، بل هي ركن من أركان الدين.

زواج المتعة

ولقد استرعى نظري في النجف كثير من الأطفال الذين يلبسون في آذانهم حلقات خاصة، هي علامة أنهم من ذرية زواج المتعة المنتشر بين الشيعة جميعًا، وبخاصة في بلاد فارس، ففي موسم الحج إذا ما حل زائر فندقًا لاقاه وسيط يعرض عليه أمر المتعة مقابل أجر معين، فإن قبل أحضر له الرجل جمعًا من الفتيات لينتقي منهن، وعندئذٍ يقصد معها إلى عالم لقراءة صيغة عقد الزواج وتحديد مدته، وهي تختلف بين ساعات وشهور وسنوات، وللفتاة أن تتزوج مرات في الليلة الواحدة، والعادة أن يدفع الزوج نحو خمسة عشر قرشًا للساعة، وخمسة وسبعين قرشًا لليوم، ونحو أربعة جنيهات للشهر، ولا عيب على الجميع

منظر النجف من السماء ويبدو مدفن الإمام علي واضحًا.

في ذاك العمل؛ لأنه مشروع، ولا يلحق الذرية أي عارٍ مطلقًا، وعند انتهاء مدة الزواج يفترق الزوجان، ولا تنتظر المرأة أن تعتد، بل تتزوج بعد ذلك بيوم واحد، فإن ظهر حمل فللوالد أن يدَّعي الطفل له ويأخذه من أمه إذا بلغ السابعة. ويرى أهل السنة في ذاك الزواج وزرًا كبيرًا، إذ حرَّمه النبي ﷺ، وكان مباحًا في الجاهلية وفي الحروب في الإسلام، ويخال البعض أن منشأ تلك العادة بابل يوم أن كان الفتيات يستأجرن للحجَّاج في معابد «أشتر ومردوك»، ولا تزال لها بقية في «عاهرات الآلهة» بين الهندوس، وقد أشرنا إليها آنفًا «في جولة في ربوع آسيا».

ويكاد يسود الشيعة في جنوب العراق بين بغداد والبصرة، وإن كان أغلب الملاك والوجهاء والموظفين والبدو من السنيين، أما الفلاحون المستقرون الذين تجري في عروقهم بقية من دماء زرَّاع بابل القديمة فكلهم من الشيعة البسطاء الذين يبتغون فتاوى المجتهدين، وهم الذين أوتوا حق تفسير القرآن وفق ما قرره الأئمة، ولعل تعصبهم الشديد راجع إلى خضوعهم طوال السنين الغابرة لسلطان الأجنبي من غير دينهم، فهم أبدًا ضد كل حكومة، ويرون كل السلطان والنفوذ في طائفة مجتهديهم ليس غير، وجل أولئك المجتهدين يرجعون إلى أصل فارسي ويطمحون إلى ضم العراق لحظيرة فارس يومًا ما، وحينذاك تتولاهم حكومة شيعية، وقد بلغ بهم شكهم في الغير أنهم يُحتِّمون غسل كل شيء

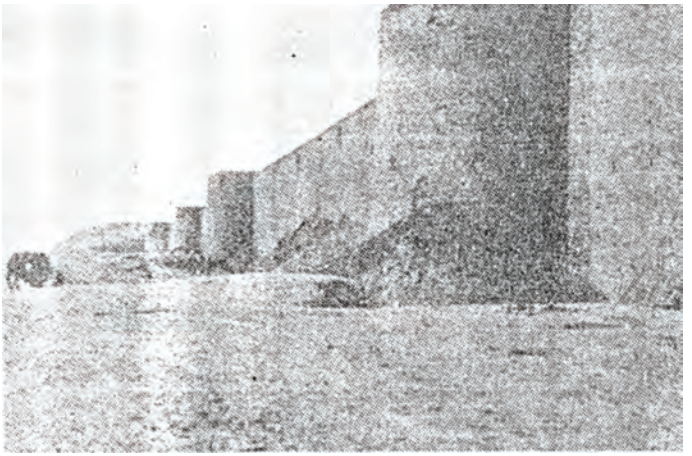

أسوار النجف وكأنها القلاع.

دخل بيتهم ثلاث مرات خشية أن يكون قد لمسه غير شيعي، وهم يغيِّرون ملابسهم قبل الصلاة، وقد حدث أني لما قمت من خراسان عائدًا إلى العراق كان يرافقني شيخان شيعيان من العراق، وكان معي بعض الحلوى والفطير قدَّمها إليَّ صديق مسيحي، فدعوتهما أن يأكلا منه شيئًا فابتعدا لأنه من يد كافر!

إلى كربلاء

قمت من النجف مبكرًا إلى كربلاء فوصلناها بالسيارة في ثلاث ساعات، فكانت تحكي النجف تمامًا في أزقتها الملتوية، تطل عليها شرفات متقاربة متقابلة تكاد تظل الطريق، وهي ثانية معاقل الشيعة، فإن قلنا: إن النجف هي الرأس المفكر للشيعة، فكربلاء قلب الشيعة النابض، فهي أكثر قدسية لديهم من النجف. هنا يبكي القوم نساءً ورجالًا وأطفالًا موت الحسين الذي تثير ذكرى فاجعته لديهم حماسة فائقة أشبه بحماسة أهل بابل وبكائهم على موت «تموز». هنا زرت مدفن الحسين تحت قبة من ذهب يسمونها «الحضرة الكبيرة»، يؤمُّها خلق كثير، وبخاصة في محرم شهر الحج، وهناك مسجد آخر يُدفَن فيه العباس، وكان أخ الحسين من أبيه، وكان يعرف القوم عن الحسين رقته وتسامحه، وعن العباس دقته وقسوته في الحق؛ لذلك قد يحنث الواحد هناك في يمين الحسين، لكنه لا يحنث قط إن

أقسم بالعباس، وقد أبصرنا بصورة لرأس رجل في سقف مسجد العباس قالوا لنا: إنه حنث في يمينه بالعباس، فطار رأسه إلى هناك ويعتقدون أن من يأتي ذلك يطير رأسه هكذا!

عدت إلى بغداد وزرت المتحف العام وهو على صغره يحوي مجموعة قيمة من مخلَّفات بابل وأشور، وبخاصة من العهد السومري منذ سنة ٣٠٠٠ق.م. وفيه من صياغة المعادن والحلي من ذهب ونحاس وحديد شيء كثير، ومجموعة من أحجار كريمة حُفرت حفرًا دقيقًا جديرًا بكل إعجاب، وقد استرعى نظري خاصة غطاء للرأس من نحاس يحكي التمثال بشعره الجعد، وآخر لسيدة تلبس الحلي الفاخر من ذهب، وثالث بقيثارة من رأس عجل من ذهب مصمت وعند الرأس والذنب تقوم شعبتان منعرجتان تُشد عليهما الأوتار، ويطعم كله بالخشب والعظم والصدف، والمتحف منسق خير تنسيق.

مثل من طرق النجف.

إلى البصرة

مدينة السندباد: أرجأت زيارتي لها إلى آخر الرحلة بعد عودتي من بلاد فارس خشية حرها اللافح، فدخلتها وافدًا من الخليج الفارسي، فأخذت باخرتنا تشق عباب مياه شط العرب الذي كانت تنأى ضفافه لعظيم اتساعه، وكانت غابات النخيل تسد الآفاق سدًّا،

تتخلل تلك الغابات مسايل للمياه لا تدخل تحت حصر وهي بعض شعاب شط العرب اللانهائية، وقد أقيمت عند مصابها مراسٍ صغيرة أقيمت حولها مساطح البلح يجهز في صناديق خشبية للتصدير، وغالب البلح من نوع أصفر اللون مكوَّر الشكل نواه صغير للغاية وطعمه لذيذ سائغ شهي، وهو أخضر فإن زاد نضجه أضحى رطبًا غزير العسل بحيث يفوق بلح الواحات عندنا، ولا عجب فالبصرة من أغنى بلاد الدنيا بالتمر الذي يُصدَّر منه بما لا يقل عن مليون جنيه في كل عام، ويجري القول على لسانهم: إن النخلة يجب أن تغمر جذورها في الماء ورأسها في النار والهجير، وتلك الظروف متوفرة في البصرة بنقائعها الممدودة وحر صيفها المحرق، ومن البلح يتخذون بعض الكحول والخمر، ظلت الباخرة تسير طويلًا وأرصفة الميناء ممدودة على الجانبين وبخاصة الجانب الغربي، وكانت حركة البواخر إنجليزية وغير إنجليزية صاخبة أشعرتني بأهمية ذاك الثغر الذي خلته من قبل أقل شأنًا والأرصفة كلها زُوِّدت بأحدث وسائل النقل من روافع تجانبها سكة الحديد، وتتجه عناية الإنجليز إلى هذا الثغر اليوم، وسيتخذون منه قاعدة تجارية وحربية هو وثغر حيفا الذي رأيت العمل قائمًا فيه وبهمة نادرة؛ وذلك تثبيتًا لمركزهم وتأمينًا لطرقهم إلى مستعمراتهم في الشرق.

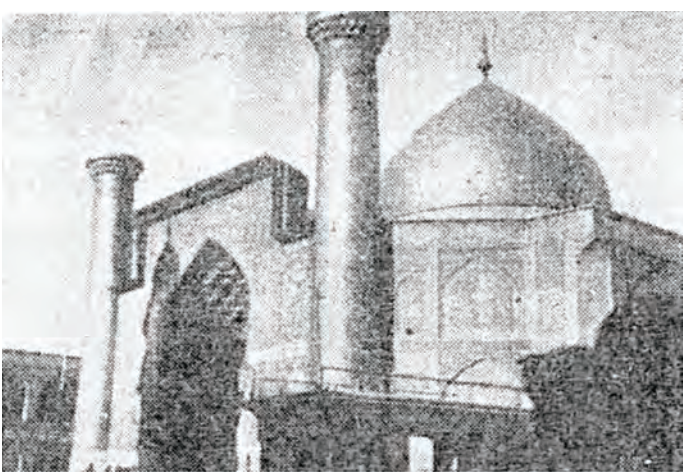

مدفن الحسين في كربلاء.

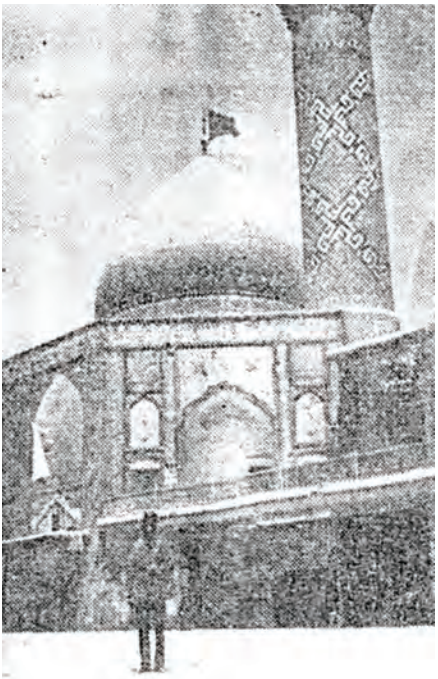

أمام مسجد العباس أخ الحسين لأبيه.

حللت الثغر ونقلت المتاع إلى الجمرك، وهناك وقف رجاله يتيهون على الناس عُجْبًا بما أُوتوا من سلطة، فلم يبدءوا التفتيش إلا دفعة واحدة، فضاع من وقتنا ساعات رغم تكرير الرجاء لهم أن يعجلوا بذلك، ثم أقلتني سيارة إلى البصرة، فإذا هي بعيدة عن الميناء بنحو عشرة كيلومترات، وتلك المسافة تخطها أيدي المهندسين اليوم في طرق مرصوفة ومبانٍ حديثة، ويظهر أنها ستكون غدًا حي طبقة الأجانب والإنجليز والأغنياء. دخلنا البلدة وإذا بها أزقة ضيقة قذرة لا نظام فيها، ولبثت أعاين النزل تلو الآخر فلم يرقني بها شيء قط لشدة إهمالها وفساد هوائها، وبعدها انتقلت إلى حي «أشار» الحديث وحللنا نزل «بيكادلي»، وهو أفخم أنزالها رغم أنه بسيط البنيان والأثاث لا يعادل أصغر نزل عندنا ولم يقبل أجر الليلة الواحدة أقل من ثلاثين قرشًا للنوم، وهو يقوم على ميدان جديد لا تزال تشق الطرق منه إلى جهات متفرقة مهملة. والبصرة أشبه ببلاد المراكز الصغيرة

في مصر ليس بها ما يروق الزائر سوى غابات النخيل الكثيفة التي تحوطها وشعاب شط العرب التي تلاقيك أنى سرت بلياتها المدهشة، على أن غالبها قذر مهمل، وإن قامت البيوت مطلة على الماء في هندسة عتيقة، ولكل بيت زورقه «ويسمونه البلم»، وحتى جانب الشط الرئيسي لا تقوم عليه سوى الأكواخ الحقيرة رغم اتساعه العظيم ومنظره الطبيعي البهيج، وبخاصة إذا ركبت متنه في «بلم»، وهو زورقهم النحيل الأنيق في أطراف معقوفة تطلى باللون الأبيض، وهو أجمل مظاهر البصرة مطيتهم الرئيسية يشقون به أرجاء البلدة؛ لأن المجاري المائية تكاد تجانب الطرق جميعًا، أما المقاهي «البلدية» على نظام نظيراتها في بغداد، فهي تغص أبدًا بكسالى القوم ليلًا ونهارًا وجلهم من لابسي العقال، وفي كل مقهى «حاكي» يردد الأنغام المصرية والعراقية.

قمت بسكة الحديد إلى حي الزبير الذي مات فيه ذاك الصحابي الكريم، وهو مكان البصرة القديمة، ويقع إلى غرب بصرة الحالية، أنشئ يوم بعث عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان سنة ١٥هـ وأمره أن ينزل مكانًا قريبًا من الماء والمرعى والمحتطب، فتخير هذا وشاد فيه البلدة والمسجد الجامع الذي قوَّاه فيما بعد أبو موسى الأشعري، ثم جاء علي وأقام مسجده، وكان أكبر مساجد الإسلام طرًّا بمآذنه السبع، وكان فيه مصحف شريف عليه قطرات من دم ظُنَّ أنه المصحف الذي كان يقرأ فيه عثمان حين قُتل، على أني لم أجد للمسجد من بقية تدل حتى على مكانه. وقد اختط العرب البصرة نكاية في الفرس لتحويل التجارة من سواحلهم إليها، وكان عددها إذ ذاك نصف مليون نفس؛ بدليل أن أبا جعفر لما فرق نصف مليون درهم على أهلها لم يصب الفرد منهم سوى درهمين، ولقد لاحظت على أهلها ضعف البنية وشحوب اللون لرداءة جوِّهم كثير النقائع والعفونات شديد التقلب في الهواء، حتى كان العرب يسمون البصرة «بالرعناء»، وفي طريقي إلى الزبير مررت ببقايا برج متهدم يسمونه «برج سندباد»، وأشار القوم إلى مكان قالوا: إنه كان منزل واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري؛ ولذلك سُمِّي أشياعه بالمعتزلة، خصوصًا وأنهم اعتزلوا جانبًا فلم يكونوا مع علي ولا مع خصومه. وفي البصرة كانت واقعة الجمل سنة ٣٦هـ، وفيها اجتمع إخوان الصفا أصحاب الرسائل المشهورة، ومنها بشار بن برد وسيبويه والحريري والأصمعي والجاحظ وكثير من أهل الفضل والأدب.

إلى القرنة جنة عدن

طالما حنت نفسي أن أرى جنة عدن (التي وعد الله المتقين)، فقمت إليها في زورق سار بنا صعدًا في شط العرب ومناقعه اللانهائية حتى رسا بنا عند ملتقى النهرين دجلة والفرات

عند بلدة اسمها القرنة، وإذا بها قرية هي أبعد من البصرة حقارة وأمعن قذارة، ويظهر أنها كانت فيما مضى مجموعة من جنات خصبها وافر وزرعها عميم وقطوفها دانية تجري من تحتها شعاب النهرين، أما اليوم فلم أرَ سوى نقائع إلى مد البصر يؤمُّها البعوض، وأهلها مائيون بالمعنى الصادق، تقوم قراهم وسط المياه في بيوت من غاب ويسمونها «بيوت القصب»، ويتصلون بالزوارق، والناس عوامون مرحون لا يكادون يلبسون شيئًا حتى في الشتاء، وقلما ترى بينهم مريضًا بالعين أو الساق، على أني سمعت عنهم انحلالًا كبيرًا؛ وتلك نتيجة لازمة لشدة تجاورهم وقلة وسائل الترف والسرور لديهم، غالب أرضهم اليوم تُزرَع أرزًا، وهي ملك الحكومة تؤجرها مساحات كبيرة لا تقل عن خمس سنين، وغذاؤهم الأرز والسمك وبعض أوراق الغاب، وكلهم كلف بالوشم حتى على الخصر وفي داخل الجسد، وأظرف ما في مساكنهم أنها سهلة النقل، فقلما يستقر البيت في مكان واحد ويتخيرون من أعشاب الماء الطافية دواءً لأمراضهم هم وماشيتهم، وقد لاقيت رجلًا من الصابئة الذين يقطنون حول دجلة إلى شمال القرنة حول عمارة، ولما كانت الحرب الكبرى وتَهدَّد إقليمهم هذا نزحوا إلى بغداد، وقد ساعدتهم الحكومة على ذلك، وانتحوا ناحية من السور القديم يقومون فيه بأشغال النحاس الدقيقة، وقد زرت بعض متاجرهم عند عودتي إلى بغداد.

والصابئة

يخالهم المسلمون «أهل سبأ»، ويقال لهم أحيانًا عبدة النجوم، وهم أهل كتاب يخالهم النصارى من شيعة القديس حنا، يجاورون مسايل المياه الغزيرة؛ لأنهم مغالون في أمر الظهور والغسل والنظافة. لهم زعيم اسمه «الشيخ جودة»، يحرِّم على نفسه القهوة والشاي والطباق والسكر والخمر، ويغتسلون جميعًا مرة كل يوم أحد، وكلما دخل أحدهم سجنًا أو قبَّل طفلًا أو اهتاج غضبًا أو فرحًا، وإذا نسي أحدهم حركة من حركات الطهر التي تستغرق ساعتين أعاد الكرة من جديد، وعقيدتهم أن الله واحد لكنه وضع سره في ٣٦٠ من المخلوقات، أوتوا من الأسرار والكرامات شيئًا كثيرًا، ومن عقائدهم أن البكاء على الميت حرام، فكل قطرة دمع تُذرَف تصبح نهرًا كبيرًا يعبره الفقيد يوم القيامة، كذلك فهم يحرِّمون التقطيب ويمتدحون البشاشة والابتسام في جميع الظروف، والرجل منهم لا يكلف الغير بشيء يعمله له حتى ولا زوجته، فهو الذي يخدم نفسه، ومن عادات زعماء الدين أنه عند انتخاب أحدهم يظل الأسبوع الأول دون أن ينام، ويلبث ستين يومًا يغتسل ثلاث مرات

مثل من شوارع كربلاء.

كل يوم بمراسيم خاصة، ويؤدي الصلاة بملابسه المبللة، وهم يقدسون يوم الأحد؛ لأنه يوم الشمس، ويؤدون صلاتهم باللغة المندية Mandai التي يتعلمها الجميع في الصغر.

ولا يبقى من هذا المذهب إلا بقية آخذة في النقص، وعددهم بضعة آلاف، غالبهم يقطن حول عمارة على دجلة شمال القرنة، وكذلك في بلدة الناصرية، وسوق الشيوخ على الفرات وعملهم الرئيسي بناء الزوارق الصغيرة ويظهر أن لهم صلة بالكلدانيين وبالشعوب التي تقدمتهم يؤيد ذلك أنهم يعتقدون في التنجيم ويشتركون معهم في كثير من العقائد والأسماء، لكن دينهم يشجع طهارة القلب والإيمان الوثيق في الآخرة.

قمت عائدًا إلى البصرة، ومنها أقلني قطار بغداد مسافة ٥٥٠ كيلومترًا قطعناها في يوم كامل، فلبثنا نسير وسط سهول رملية لم يتخللها شجر ولا عشب، ولبثنا الليل كله وسط تلك الرمال التي كان هباؤها يتطاير فيدرك كل شيء، وفي الصباح كنا في «أور» الكلدانية

بصرة تشقها شعاب شظ العرب وتلك الزوارق «بلم» مطيتهم الرئيسية.

التي وُلد فيها سيدنا إبراهيم، وعندها شعبة للسكة تؤدي شرقًا إلى الناصرية، ومن هنا بدأت المزارع تتزايد في بقع متناثرة وكانت القرى نادرة صغيرة في بيوت من الطين، وكلما تقدمنا زاد خصب الأرض وكثر عدد القرى، وفي نحو نصف الطريق وقفنا ببلدة السماوة، وتمتد إلى غربها بادية السماوة المشهورة، وعندها عبرنا الفرات إلى الديوانية فالحلة، وعند الغروب دخلنا بغداد.

قمت باكورة الصباح (الاثنين ٢٥ سبتمبر) عائدًا إلى الشام مودِّعًا بلاد العراق، تلك التي كانت مهد الإنسان الأول، والتي فاخرت بمدنياتها القديمة وبأنها مقر جنة عدن ومدفن كثير من الأئمة الأطهار وموطن هارون الرشيد والسندباد البحري، على أن تلك الظروف الطبيعية الجميلة التي جعلت الجزيرة مهد الإنسان الأول هي التي كانت عوامل هدمها، إذ أطمعت فيها مَن حولها، فغزاها جنود أشور وميديا والإغريق والفرس والروم ثم الساسانيون من الفرس وهم بناة إيوان كسرى، ثم المسلمون، وأخيرًا الإنجليز. قمت وذكريات ذلك الماضي خالدة مجيدة يراها الزائر ماثلة في خياله فحسب، ويزيدها إمعانًا في الخيال ما رأيته من اعتقاد القوم إلى اليوم في السحر والسحرة، مما أذكرني بسحر بابل وهاروت وماروت، ولا يزال كثير من الناس يسمي العراق ببلاد السحر؛ لأن خرافاتهم لا حد لها رغم أن الإسلام محا منها الكثير، من ذلك: اعتقادهم في الحسد وأثر العين

الصابئة مهرة في أشغال النحاس.

الخبيثة فبعض الناس حساد بفطرتهم تؤثر عيونهم في الغير أثرًا سيئًا، ولو كان ذلك خارجًا عن إرادة أولئك الحساد، والويل لمن عرف عنه ذلك، وكم من مرة طلق الزوج زوجته لاعتقاده أنها حاسدة، وهم يتقون العين بلبس اللون الأزرق وتعليق الخرز الأزرق في بيوتهم وزوارقهم وسياراتهم — ويظهر أن تلك العادة أثرت حتى على بعض بلاد أوروبا — لذلك كنت أرى لون القيشاني بالمساجد جميعًا في لون أزرق، وحتى السيدات يحكن في طرف إزارهن بقعة زرقاء. كذلك كنت أرى كثيرًا من أبواب البيوت قد دق عليها حذاء قديم وأنت تسمع دائمًا عبارة «ما شاء الله» يقولها الناس جميعًا. ويتركون عيون الأطفال قذرة وأرديتهم مهلهلة مخافة العين، وقد تطوف الأم على سبع فتيات عذارى في بيوتهن، وتعطي كل واحدة قطعة من رصاص تضعها في فمها وتبصقها بين ثوبها وجسدها حتى تسقط على الأرض، ثم تأخذها الأم وتصهرها في روث البقر، ويوضع ذلك على رأس الطفل، وكثيرًا ما كنت أرى الطفل يرسل شعره ويلبس لباس الفتيات خشية أن يحسده الناس؛ لأن الفتيان مفضَّلون على الفتيات.

وكثيرًا ما يلجأ الزوج إلى «فتاح الفال»، فيكتب له ورقة يضعها على رأسه ثم يقرأ تعاويذ ويأمره أن يذيبها في الماء ويشرب بعضه ويحاول أن تشرب زوجته الباقي، ثم يعطيه بخورًا يحرقه عند الغروب، وبعد ذلك تحبه زوجته، ورأيت رجلًا يغسل يده من دجلة، ثم رمى فيه بيضة وعقَّب وراءها بحجر، وذلك لكي يُحبَّب فيه من يريد. ولشفاء السعال الديكي الذي يسمونه هناك «حميرة أو خنزيرة» يذهب الرجل إلى بائع أحذية

القطار يشق بنا سهول الجزيرة المهملة.

ويفاجئه قائلًا: «يا كلب سوي لي كلب خاطر الكلب ابن الكلب»، فيسلخ له قطعة جلد يحملها الطفل المصاب فيشفى! وبعضهم يسقي الطفل ماء ولغ فيه كلب أو خنزير.

ويجب أن تحبو المرأة العقيم تحت جمل واقف لينفك عقمها، والمسيحية تركع تحت نعش في الكنيسة، وكل النساء من مختلف الديانات يعلقن خِرَقًا حول مدفع قديم يسمونه «أبا خزامة» رأيته عند القلعة القديمة في بغداد، وقد رأيت سيدة تضع رأس طفلها في فوهة المدفع ليعيش طويلًا. وروى لي البعض أن سيدة من الأغنياء مرض طفلها فلبست خرقًا مقطعة وخرجت بها وهي عارية الأقدام تستجدي من سبعة بيوت بقولها «من بركتكم»، وابتاعت بما تجمَّع لديها قطعة ذهب وكتبت عليها «يعيش»، ثم لبسها طفلها. وقد تستجدي من سبعة أطفال باسم محمد، ثم يصهر ما جمع ويعلق في رقبة الغلام ليعيش طويلًا.

وإذا خشيت فتاة ألا تتزوج أدت فريضة الحج إلى الكاظم أربعين يومًا، تخرج كل يوم مبكرة عارية القدم ولا تكلم أحدًا، وإذا وصلت الضريح قرعت بابه ونبَّهت الإمام أنها حضرت إليه، وبذلك تضمن زوجًا سريعًا، كذلك يهتم فتيات العراق بأخذ نصيب من الحلوى التي توزع في الأفراح ويأكلن منه؛ لأن ذلك يعجل بزواجهن. والشيعة يعدون الأيام الأولى من محرم شؤمًا لأن الحسين قُتل فيها، وكذلك أيام صفر لأن النبي مات فيه، ويوم

المدفع المحوط بأسرار السحر ويسمى «أبا خزامة» في بغداد.

السبت والخميس أسعد الأيام، وإذا القمر خسف في رمضان وجب إزعاج الحوت الذي يقترب من القمر في زعمهم، وقد يبتلعه لذلك يعمدون إلى الطبول والصفائح يقرعونها إرهابًا له. وفي تقليم الأظافر يجب البدء بالخنصر ثم الوسطى ثم الإبهام ثم البنصر وأخيرًا السبابة هذا في اليد اليمنى، أما في اليسرى فيُبدَأ بالإبهام فالوسطى فالخنصر فالبنصر فالسبابة، وكثيرًا ما يلجئون إلى سيد من سلالة الرسول — حتى اليهود والمسيحيين — لطرد الجن من الأطفال وأكل قلوب الصبية الصغار شفاء لبعض الأمراض؛ لذلك يحاول الكثير اختطاف الصبية وقتلهم لهذا الغرض، ويعتقدون أن الجن قد يحب فتاة آدمية قد يناديها فتقوم وراءه ليلًا إلى سراديب الدار، ثم تعود، والجن في زعمهم لا يتعرض لمن يحمل طفلة صغيرة بأذًى قط؛ لذلك لا تجرؤ امرأة أن تمر في مكان مظلم موحش إلا وهي تحمل طفلة، والبيوت لا تُسكَن إلا إذا شاع عنها الخير، وقد يبقى البيت الجديد طويلًا دون أن يستأجره أحد خشية أن يكون مجلبة للنحس، وكثيرًا ما يسمون الأطفال «مش عاوز» أو «وحش» أو «حصبة» خوفًا عليهم. وإذا سقط إناء ولم ينكسر وجب كسره وإلا كان شؤمًا، وإذا طارت بومة فوق النائم صاح قائلًا: «ملح وسكين»، وإلا حل النكد لا محالة، ومن أمثال تلك الخرافات شيء لا يحصى، ويُخيَّل إليَّ أن كثيرًا من خرافاتنا وصلت إلينا عن طريق الجزيرة وبابل، وما فيها من تخمين وأوهام وسحر.

هضبة إيران

بلاد فارس

نبذة تاريخية

فارس بلاد ذات مدنية قديمة وماضٍ مجيد، وهي مقر الآريين الأصليين الذين كانوا منبت اللغة الآرية التي انسلخ عنها كثير من لغات أوروبا، وأنت تلمس ذلك في كلمات كثيرة تراها مشتركة في لغتهم ولغات أوروبية أذكر من بينها ما يلي:

كلمة أخ = برادر بالفارسية، فراتر باللاتينية، برودر بالألمانية، برات بالروسية.

وكلمة أب = پدر بالفارسية، باتر باللاتينية، فاتر بالألمانية.

وكلمة أم = مدر بالفارسية، ماتر باللاتينية، موتر بالألمانية.

وكلمة ابنة = دُختر بالفارسية، تختر بالألمانية، دوتر بالإنجليزية.

وكلمة باب = دِر بالفارسية، تر بالألمانية، دور بالإنجليزية.

وكلمة يحمل = بردِن بالفارسية، برد بالألمانية، بردن بالإنجليزية.

وكثير من الأفعال الفارسية تنتهي بمقطع en مثل الألمانية تمامًا، كذلك النفي بالفارسية ني أو نيست، وكذلك كلمة باد بمعنى رديء وكلمة جرم بمعنى دافئ، وهاك تشعب اللغات الآرية:

ولقد دخل الفارسية كثير من الألفاظ العربية بنسبة ٢٠٪ في لغة العامة، و٣٠٪ في لغة الخاصة، ٤٥٪ في لغة الصحافة، ٦٠٪ في لغة القانون، و٨٠٪ في لغة الدين والأدعية.

وإليك أظهر الخطوات والحوادث في تاريخ فارس:

في سنة ١٠٠٠ق.م. كانت أول هجرة الآريين.

الشارع الرئيسي في كرمان شاه.

وحوالي سنة ٧٠٠ق.م. انتشر دين زرادشت في فارس كلها.

وحوالي سنة ٥٥٠ق.م. جاء كورش.

وحوالي سنة ٥٠٠ق.م. جاء دارا واخاميس، وكان مقرهما في الربيع برسبولس، وفي الصيف همدان (اكباتانا)، وفي الخريف بابل، وفي الشتاء سوسا، وهذا هو العهد الذهبي الأول لفارس.

وفي سنة ٣٣٠ق.م. اجتاح الإسكندر البلاد.

وبين القرن الثالث والسابع كان العهد الساساني، وهو ثاني العصور الذهبية، وبعده كان الفتح الإسلامي على يد عمر، وفي ستين عامًا اجتاح الإسلام البلاد.

وفي ١٠٠٠م كتب الفردوسي الشاهنامة في ستين ألف بيت من الشعر حوت تواريخ فارس وأقاصيصها.

وفي القرن الثاني عشر والثالث عشر كانت غارة المغول.

وفي ١٥٠٢ ظهر الصفويون.

وفي ١٦٠٠ ولي الشاه عباس الكبير، واتخذ أصفهان عاصمته، وهذا ثالث العصور الذهبية.

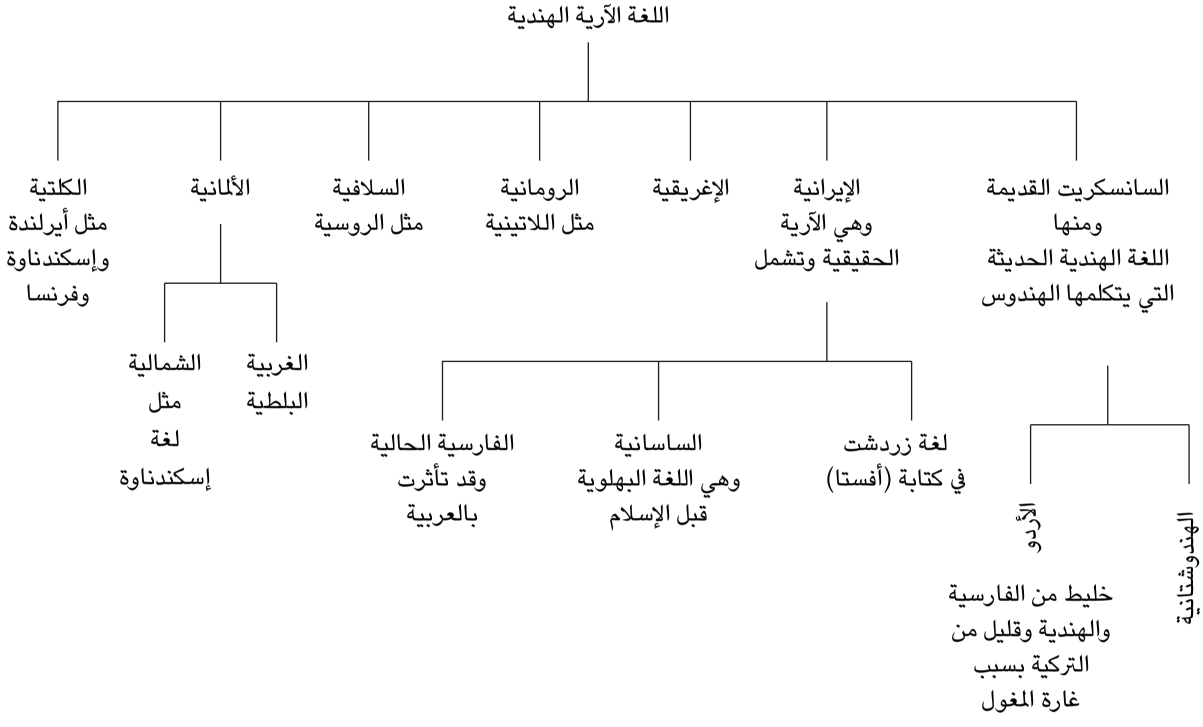
اللغة الآرية الهندية
السانسكريت القديمة
ومنها
اللغة الهندية الحديثة
التي يتكلمها الهندوس
الإيرانية
وهي الآرية
الحقيقية وتشمل
الإغريقية
الرومانية
مثل اللاتينية
السلافية
مثل الروسية
الألمانية
الكلتية
مثل أيرلندة
وإسكندناوة
وفرنسا
لغة زردشت
في كتابة (أفستا)
الساسانية
وهي اللغة البهلوية
قبل الإسلام
الفارسية الحالية
وقد تأثرت
بالعربية
الهندوشتانية
الأردو
خليط من الفارسية
والهندية وقليل من
التركية بسبب
غارة المغول
الغربية
البلطية
الشمالية
مثل
لغة
إسكندناوة

وفي ١٧٣٦ جاء نادرشاه الذي كان بائع جلود ثم أصبح جنديًّا وانتصر على الأفغان وأضحى سلطانًا فتح الهند، ومد حدود فارس من السند إلى القوقاز، ولما قُتل تدهورت الدولة بعده عاجلًا.

وقبيل ١٨٠٠ ظهرت أسرة قاجار، وكان أظهر ملوكها الشاه نصر الدين الذي قتله بهائي.

وفي ١٩٢١ فتح رضاخان طهران وأصبح وزير الحربية.

وفي ١٩٢٥ تُوِّج رضا شاه بهلوي ملكًا.

«اللوري» أداة النقل الممتازة في فارس.

إلى كرمان شاه

قام بنا القطار صوب بلاد العجم، فقطع المسافة بين بغداد والخانقين عند حدود العراق في نحو عشر ساعات، وكنا نسير في سهول العراق العادية شبه الصحراوية المهملة والأراضي غالبها ملك للحكومة، ولا تزيد ملكية الأهالي على خمس مساحة العراق كلها، وذلك في ظني أكبر سبب في أنها مهملة، ولا أدري لِمَ لا تقطعها الدولة للناس كي يخدموها ويزيدوا في موارد البلاد. والخانقين بلدة كقرى الريف عندنا، استأجرنا بها السيارات لنوغل في بلاد

آثار دارا في طريقنا إلى همدان.

العجم، إذ لا يكاد يشق هضابها خط واحد لسكة الحديد، وكان حظي أنا في سيارة كبيرة من نوع «اللوري»، وتلك أكثر السيارات ذيوعًا هناك، فأخذت تسير بنا في أرض مغضنة تزيد جبالها تعقيدًا كلما تقدمنا، وكنا نرتقي هضبة إيران تدريجًا وعلوها يتراوح بين ثلاثة آلاف قدم وخمسة آلاف، وكانت مناظر الجبال جميلة لولا أنها لا يكاد ينبت بها زرع، وهي أجمل من مناظر العراق المبسوطة المملة، ولو أعوزتها روعة الجبال المنزرعة التي تتوجها الثلوج، على أنا كلما أوغلنا فيها زادت الشجيرات وكثرت المسايل السريعة، وفي منتصف الطريق تعطلت السيارة وكُسر محركها فنزلنا نترقب سيارة أخرى، ولبثنا كذلك وسط تلك الصحراء الجبلية المخيفة ست ساعات حتى وفقنا إلى «لوري» عائد، فنقلنا ثم واصل السير بنا، ولقد بدا الفرق جليًّا بين أهل العراق الكرماء وبين أهل العجم، فمثلًا كنت أنا الذي أدعو رفقاء السيارة إلى تناول الطعام أو المرطبات، ولم يحاول أحدهم ذلك، عكس

ما رأيت في تنقلاتي ببلاد العراق، وأول ما آلمنا من أهل فارس المعاملة السيئة التي لاقيناها في الجمرك، حيث كان التفتيش شديدًا شدة غير معقولة، فقد أخَّرنا عمال الجمرك سبع ساعات في غير ضرورة، وكنا كلما حللنا محطة جديدة طلبت جوازات السفر وفحصت ووقفنا ننتظر التأشيرات طويلًا، وبعد تمام أربع وعشرين ساعة دخلنا:

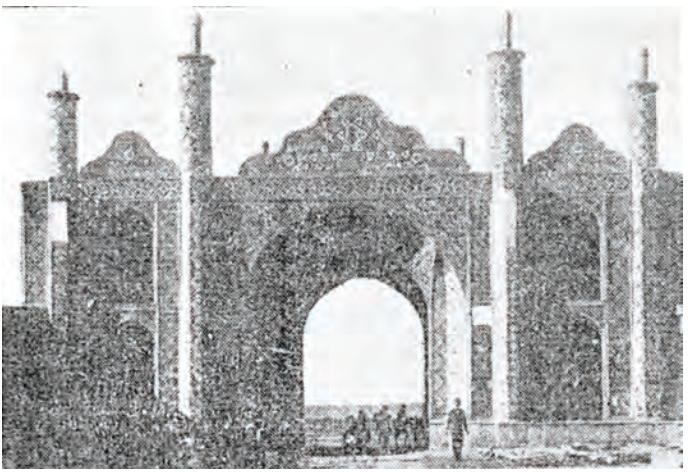

باب خراسان وبوابات طهران القديمة تسترعى النظر بجمالها الفني.

كرمان شاه

وهي مدينة أشبه بالمراكز المتأخرة عندنا، حللت بها نُزُل «فرنسا» أجمل فنادق البلدة، والطعام فيه شرقي شهي، ولقد مكثت فيه يومين لأستعيد قواي بعد عناء اليومين السالفين. أخذت أجول في المدينة وإذا سيل المتسولين دافق بحيث لا تمضي دقيقة دون أن يتوسل إليك أحد طالبًا الإحسان، وكثير منهم يتخذون الأمر حرفة، وما كاد الأصيل يقبل حتى أدهشني سيل السيدات يختلطن مع الرجال وهن نصف محجبات يلبسن إزارًا شبيهًا بإزار أهل العراق، لكن النقاب شبكة من قماش أسود مقوى تقف مائلة أمام الوجه، وما كان أشد دهشتي عندما علمت أن كل أولئك من الساقطات يجرين وراء الرجال، وبخاصة الأجانب،

وكثير من أزواجهن يعلم فيهن ذلك، لا بل ويرضاه لأنه مورد رزق لهم، ولعل سبب ذلك الفقر والعوز المالي وزواج المتعة المنتشر في فارس كلها وضعف صحة الرجال لإدمانهم الأفيون مما جعل ألوانهم شاحبة وجسومهم ضامرة ضعيفة، وقد ساعد ذلك على عجزهم حتى عن العمل، فزاد في فقرهم وفي عدد متسوليهم، وكم كنت أرى من الشبان من لا يكاد يسير على قدميه في تقاطيعه الغائرة ولونه المصفر، وكثير منهم يبدو في هياكل عظمية، وقد علمت أن الحكومة قد أباحت شرب الخمور بعد أن كانت محرمة كي يقبل الناس عليها ويُغفِلوا الأفيون، لكني لاحظت الكثير منهم يدمن النوعين معًا. وزراعة الأفيون في بلاد فارس قديمة ترجع إلى عهد سومر وبابل منذ ستين قرنًا قبل الميلاد، وتنتشر في نحو ١٨ مديرية من ٢٦، ويُقدَّر إنتاج البلاد منه بنحو مليون ونصف مليون رطل، ويعيش على تجارته خلق كثير، فمثلًا ربع سكان أصفهان يشتغلون به، وهو ثاني الصادرات (بعد البترول)، ويُصدَّر ثلثا محصوله بعد أن تتسلمه الحكومة لأنه حكر لها، وقد بلغ الصادر منه سنة ١٩٣٠ بنحو ١١٥٠٠٠٠ جنيه، وغالبه يُصدَّر إلى الشرق الأقصى عن طريق سكة حديد سيبريا. والأفيون الفارسي من أجود الأنواع في العالم، ويستهلك ثلث المحصول في فارس نفسها، وجزء كبير يباع في البلاد تهريبًا، فهو يدر على الناس ما لا يقل عن ربع مليون جنيه من الأرباح، وتدخينه منتشر في كل البلاد خصوصًا الجنوبية، وفي طهران نفسها، فمن سكانها الذين يبلغون ربع المليون أكثر من ٢٥ ألفًا يدمنون تعاطيه، أما في كرمان من بلاد الجنوب فيتعاطاه ٢٥ ألفًا من ستين ألفًا مجموع سكانها، حتى يقول الفرس وهم يمزحون: «في كرمان يدمن الأفيون أربعة أشخاص من كل ثلاثة من السكان»، ورغم أن عصبة الأمم لا تبيح أكثر من استهلاك ١٢ رطلًا لكل عشرة آلاف نسمة، ففي فارس يستهلك كل عشرة آلاف ٤٥٩ رطلًا، أي ثمانية وثلاثين ضعفًا، ويساعد نشره هناك ويبرر تدخينه بعض الشيء أنه مورد كبير لهم، وأن له بعض الفوائد، فهو ينفع ضد قرصة البرد التي تصيب القرى الجبلية شتاءً، وقد عرفت فائدته في التخدير، وكان يضاف إلى لحوم بعض الأفاعي وسمي «تيريس» أو «ترياكا»، والفرس اليوم يسمونه ترياكا، والمدمن له ترياكي، ورغم أن الحبة الواحدة منه تضر ضررًا بليغًا فإن الفارسي يبتلع حبات عدة ولا يموت، لكن ذلك قد سمم جسمه، ومن أخطر أضراره انحلال الجسم واكتئاب الفكر وغباء العقل، وهم لا يكتفون بتناوله أو تدخينه كبارًا، بل يعطونه مخففًا للأطفال، فالأمهات يسقين الأطفال منقوع قشر الخشخاش لينمنهم، ويسمونه هناك «شربات باشا»، أي شراب الأطفال، وبعضهن يضع حبة منه تحت ظفر الأصبع، ويتناوله الطفل ليرضع منه وينام. أليس في ذلك أكبر الخطر على أجيال الفرس المقبلة من الوجهة الصحية والعقلية؟ ويبلغ من

قوة تأثير الأفيون أن الحيوانات التي تعيش في حجرة تدخين الأفيون تعتاده، فتضطرب إذا منع عنها، فكأنه أثَّر حتى على حيوانهم فأضحى مدمنًا! والحكومة هي التي تبيعه اليوم في أصابع تلف في ورق، وثمن الواحد قران ونصف — والقران اثنا عشر مليمًا — وكنت أرى رفقاء السيارة أينما سرت يدخنونه في دواة أسطوانية مغلقة تمامًا إلا في ثقب يضعون فيه نصف هذا الأصبع أو ثلثه، وللدواة «مبسم» في طول الشبر يضعونه في الفم ثم يعمدون إلى قطعة من الجمر في ملقط، ويقربونها من قطعة الأفيون حتى تنفد، ولا يضعون الأفيون في «التمباك» أو التبغ كما كنت أظن من قبل.

باب الجمرك في طهران.

ولقد كنت أعتقد أن أسوأ ما يرى البؤس مجسمًا في بلاد الهند التي زرتها من قبل، ولكني أكاد أقول بأنه هنا أشد وأنكى، فلا تكاد تقع العين في أي مكان إلا على من شوَّه البؤس أبدانهم، هذا نائم من غير حراك، وذاك يحمل طفلًا، وتلك تبكي في كثرة مخيفة، فهل خص الله تلك الجهة بذاك الفقر المميت؟ ألقِ بقشرة من بطيخ أو تفاح وأنت تذعر لهجمات عشرات الناس عليها يلتهمونها، وكنا نرى طوال الطريق الناس يحمل كل رغيفًا من الخبز يكاد يبلغ نصف قامته طولًا، والخبز هناك رقيق ممطوط كأنه الفطير، يشوى على الجمر فيبدو أسمر محببًا.

إلى طهران

قمت أغادر كرمان شاه تلك البلدة الفقيرة بمناظرها الغنية ببؤسها إلى طهران مسيرة ٤١٤كم، بعد أن تعطلت يومًا آخر وذلك لأن المسافر مضطر أن ينتظر السيارات المسافرة إن لم يرد استئجار سيارة خاصة، وهذه تكلِّفه كثيرًا، وكانت السلطة العسكرية إذ ذاك تسطو على سيارات الناس لتضع فيها جنودها ومؤنها عنوة وبدون أجر، وتقوم بها صوب الحدود التي كانت ثائرة هناك؛ لذلك كان كثير من أصحاب السيارات يخفونها، فيفتش المسافر عنها سرًّا حتى إذا ما تكامل عدد الركاب قامت بهم السيارة. وفي طريقنا مررنا بآثار منقوشة على الجبل في فتحتين ينبع من تحتهما ماء مثلوج، وهي لدارا يسمونها «طاق بستان» أو «بستيون»، وبجوارها صخر نُقش بثلاث لغات، منه أمكن العلماء فك طلاسم التاريخ القديم على نحو ما خدمنا حجر رشيد في مصر، ثم مررنا بقرية «أسد أباد» الصغيرة، وهي موطن السيد جمال الدين الأفغاني، وقد لُقِّب بالأفغاني خطأً، فأثار المكان على صغره في نفسي أجل الذكريات. وكانت سيارتنا «فورد» عتيقة بدا عليها الضعف فتعطلت بنا مرارًا، حتى إنَّا قطعنا المسافة إلى همذان في ثماني ساعات، وزاد الطين بلة أن زملاء السفر بينهم اثنان ممن تأخذ الخمر بلبهما. ويدمنون الأفيون، فكلما مررنا بمقهى أو «شاي خانة» — وتلك كثيرة على طول الطريق — أوقفوا السيارة ونزلوا يُشبعون أمزجتهم، أما أنا فكنت أطلب الشاي يقدم لنا بدون سكر، ويضع الرجل في يدك بعض قطعه الصغيرة، وتلقي بالقطعة في فمك وتشرب عليها الشاي، وتلك طريقتهم في شربه في بلاد فارس كلها، وكان من الرفقاء واحد يعرف قليلًا من العربية، فأخذ يحدثني عن بلاده في نغمة المبالغة، ويحاول إظهار كل شيء بمظهر الفخامة والعظمة، فتعرض للتاريخ وأشاد بماضي فارس المجيد، وثنى على الإنجليز والروس وأخذ يلعن ويطعن ويقول بأن الفرس نجحوا تمامًا في طرد هذين الكابوسين، وكلاهما مبغَّض لجميع أهل فارس كذلك فهم يبغضون أهل العراق، ويطمحون إلى تملك بلادهم يومًا، وهم جميعًا يمقتون العرب المقت كله ويتبرءون منهم ويقولون بأن العرب رغم أنهم أدخلوا الإسلام في بلادهم واحتلوها طويلًا فإن فارس حافظت على شخصيتها ولغتها، وهم ينظرون إلى العرب نظرة احتقار ويفاخرون بأنهم من أصل آري لا سامي، ولعل ذلك راجع إلى أنهم يتأثرون لماضيهم الذي هزه العرب يوم فتحوا بلادهم. حدث أن عرَّفني هذا الرفيق بآخر لاقيناه في نزل همذان، وقال له بأني مصري أتكلم العربية، فكان جوابه في غير ذوق ولا أدب: إنني أمقت العرب مقتًا.

قمة دماوند أعلى ذرى فارس وهي بيت الله في زعم المجوس.

ومن مبالغات صاحبي هذا أنه قال بأن طهران تحكي في عظمتها برلين وباريس، فلما جئتها لم أجدها شيئًا يذكر إلى جانب أسيوط مثلًا، ونغمة التفاخر وحب الفخفخة طبيعة في أهل فارس جميعًا، ورغم أن ذلك ضعف خلقي فإنه فضل من جانب العصبية القومية والاعتزاز بها.

وكنت أعجب لتلك الوحدة القومية التي كنت أشاهدها تسود أهل فارس جميعًا رغم شقة الخلاف الجنسي واللغوي هناك، فالتقاليد الفارسية لا يكاد يكون لها وجود بينهم لكثرة الامتزاج الجنسي، ومع ذلك كانت الوحدة القومية قوية جدًّا، وهم كالإنجليز من أكثر الشعوب اختلاطًا، فأول من نزل بلادهم القاطنون حول بحر الخزر، ثم دخل الآريون النورديون من شرق الروسيا والطورانيون المغول من غرب سيبريا منذ ٢٠٠٠ق.م. وقد قيل: إن بلاد العرب خضعت لثلاث قوى جعلت منها وحدة سياسية: اللغة والدين والتقاليد، وهي أكبر مساحة في الدنيا حل بها هذا، وساعده تشابه البلاد في الظروف الطبيعية، أما فارس فعلى نقيض ذلك تقوم بها نحو ست لغات مختلفة تنقسم كل منها إلى لهجات عدة — وإن أخذت تسود اللغة الفارسية اليوم بفضل انتشار المواصلات والتعليم والخدمة العسكرية فنحو ثلاثة أرباع الناس يتكلمونها اليوم — كذلك في الدين ترى شيعًا مختلفة هناك، وإن كان غالب السكان من الشيعة الذين يفوقون عشرة ملايين، ولا يزيد السنيون

على ثلاثة أرباع المليون، ويحلون نواحي كردستان وأذربيجان وبلوخستان، ومن الأقليات: المسيحيون والبارسي عبدة النار والصوفية والبهائية التي أثرت على العقول المثقفة هناك زمنًا وبدرجة قد تفوق أثر الإسلام، ولقد قاومت الفلسفة الزرادشتية هناك الاندماج في العرب، ولذلك لا يعد الغزو الإسلامي نصرًا من هذه الناحية، ويخال البعض أن سبب ذلك يرجع إلى أن جنود العرب لم يصحبوا نساءهم معهم، فتزوج غالبهم من الفرس، فتبع الأبناء أمهاتهم ووعوا ما لقنوهم من تقاليدهن الفارسية، فخرج من ذلك نشء جديد يغاير الحاكم والمحكوم. ويقول المستشرقون: إن الفرس كانوا أرجح عقولًا وأكثر مغامرة ونشاطًا من العرب سادتهم، ولما اجتاح بلادهم المغول عهد هولاكو وتيمورلنك استخدموا موظفين من الفرس وأبقوا القوانين الفارسية، ولما جاءت أسرة الصفويين وحَّدت البلاد، ولما انقضى عصرهم في منتصف القرن الثامن عشر كانت العناصر الفارسية هي السائدة في البلاد، فأهل فارس وحدة قومية تفوق في عصبيتها شعوب آسيا جميعًا وكثيرًا من شعوب أوروبا.

الاحتفال بعيد رضا شاه في حجر دمافاند.

والفارسي رجل اجتماعي في مجموعه يفوق في تلك جميع الشرقيين، وأكثر الفئات ميلًا للاجتماع في الشرق عادة الطبقات الأرستقراطية الراقية فقط، أما في فارس فترى حتى عامة الناس والطبقات الوضيعة كذلك، والفارسي أكفأ من العربي في الصناعة وأقدر

على إدارة الأعمال والظهور بمظهر الرئاسة؛ لذلك كنا نشاهد كثيرًا من رؤساء البوليس في الأفغان والعراق وفي الهند من أصل فارسي، فالفارسي قوي الملاحظة سريع التعلم وإن مال إلى النظريات الفلسفية أكثر من ميله إلى العمليات، وهو مرح يحب الشعر وأوتي قدرة مدهشة على استظهاره، فبعضهم يحفظ ديوان سعدي وحافظ وقصص زهراب عن ظهر قلب، والفرس كسائر الأمم الإسلامية ليس بينهم نظام الطبقات. وفي تقديره للجمال يفوق الكردي والعربي والأفغاني وهو يخلق لنفسه السرور مما حوله من ظروف ولو كانت شديدة، وقدرته العسكرية يؤيدها التاريخ منذ زمان بعيد.

أمام باب بهلوي الجديد وشتان بين الفن القديم والحديث.

أمضينا ليلتنا في همدان في نزل جميل، وتجولنا بها في الصباح، فظهرت تفوق كرمان شاه عمرانًا وامتدادًا، تحفها البساتين اليانعة، وارتفاعها ٦٠٠٠ قدم يشرف عليها جبل ألفند alvend وموقعها جميل جذاب، ويقولون: إنها هي نفس بلدة «اكباتانا» التي نهب الإسكندر كنوزها القيِّمة في عودته من الشرق، وكان الأشوريون يسمونها هجماتانا، وكانت قاعدة ملك ميديا وبجوارها مدفن أستر Esther، ومورد كاي Mordecai؛ ولذلك قدسها اليهود وأحلوها من قلوبهم محلًّا ساميًا، وهي وطن بديع الزمان، وبها مات ابن سينا.

وفي المدينة حركة هدم للقديم وإنشاء جديد، وهي السنة التي يسير عليها شاه فارس المصلح اليوم، ولذلك أحبه الناس حبًّا وزينوا دورهم ومتاجرهم بصورته، ولا يستطيع أحد التعرض للأحزاب والسياسة، ومن فعل فقد حياته وقد أقام من الناس عسسًا على بعضهم، وهؤلاء يجزون خيرًا على تبليغاتهم، والنزعة العامة الإصلاح ورفع شأن البلاد وإيقاظها من سباتها الذي غطت فيه أجيالًا.

قمنا من همدان الحادية عشرة صباحًا إلى طهران ومررنا بمساحة شاسعة من سهول كثرت بها المزارع، وفي السادسة مساء دخلنا بلدة قزوين أي بعد سبع ساعات رغم جودة السيارات ومهارة السائق، فعجبت كيف كان القوم ينتقلون قبل مجيء السيارات — ولم تستعمل لديهم إلا بعد الحرب العظمى — كانت تنظم القوافل بالدواب من بغالٍ وحمير لنقل الناس وجمالٍ لنقل المتاع، فكانوا يقضون في طريقهم شهورًا متعبة ممضة وهم معرضون لخطر هجمات اللصوص، ولم يكن الأمن منتشرًا كما هو اليوم، ولا نزال نرى لتلك الحيوانات بقية في كل مكان خصوصًا في الريف. والقوم جميعهم مهرة في ركوب الخيل، فهم مطيتهم الرئيسية إلى اليوم، والحق أن السيارات تلعب دورًا هامًّا في تطور البلاد، يشتغل بها نفر عديد، وأينما حللت وجدت «الجراجات» تُلحَق بها «المسافر خانات» لنزول المسافرين، وقزوين بلدة صغيرة، ولكنها أجمل من همدان؛ لأنها كانت يومًا ما عاصمة الشاه عباس، يسترعي النظر بها دار النظمية في بواباتها الشامخة، يزيِّنها القيشاني الأزرق البديع وآي الذكر الحكيم، كذلك مسجدها الجامع بقبته الزرقاء الجميلة، وقد أقام الصلاة فيه خالد بن الوليد والحسن بن علي الذي كان يصحبه في الفتح الإسلامي، وكثير من أحياء البلدة قديم أقيم في سراديب ضيقة محجبة من وهج الشمس، وبخاصة الأسواق الملتوية، وقد لاحظت جودة الطرق ورصفها على جانبي همدان، وعلمت أن الفضل في ذلك يرجع للإنجليز والروس إبان الحرب، فكل فريق كان يخشى الآخر، الروس زاحفون إلى همدان من الشمال والإنجليز من الجنوب. واصلنا سيرنا صوب طهران وسط الربى الجافة، وفي بلدة كرج التي تبعد عن طهران بساعة واحدة عجز السائق عن السير، وقد

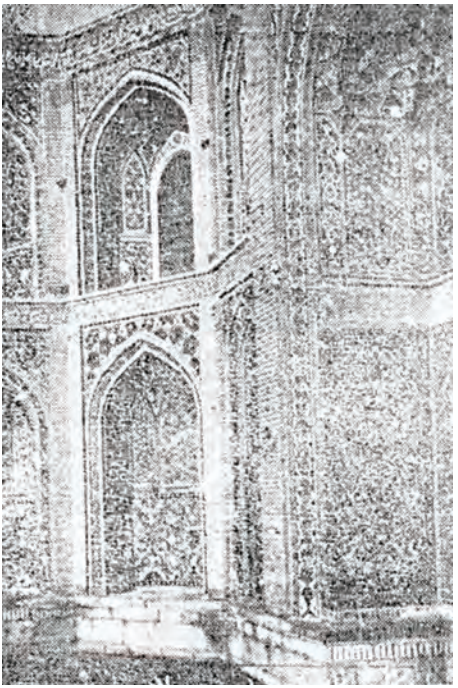

إبداع الفن داخل مسجد سباه سالار بطهران.

دارت رأسه ولعب الأفيون بعقله فأصر أن ننام ليلتنا هناك، فخضعنا لأمره، وفي الصباح كانت البلدة وسط مزارع غنية وشجر كثيف، وهي من أشهر الأراضي الزراعية في إيران كلها؛ لذلك أقيمت بها مدارس الزراعة ومصانع لسكر البنجر الذي يزرع حولها، وفي ضحى الخميس ٣ أغسطس دخلنا:

طهران

فأخذنا نمر وسط بلدة مخربة متهدمة من أثر معاول الإصلاح الجديدة التي بدأت تحاول القضاء على القديم، وتقيم العمران على أحدث نظام، فالطرق زيد في اتساعها وبُدئ في رصفها بالأسفلت بعد أن كانت بقطع الحصى، والمباني الشامخة أخذت في الظهور بعد أن كانت أقبية وطيئة مغلقة، وكانت تبدو على بعد جبال دمافاند أعلى ذرى فارس

(١٩٤٠٠ قدم) وأروعها تكسوها عمائم الثلج الأبيض الوضاء، وخلف القمة تمتد جبال البرز وبلاد طبرستان القديمة. حللت بها نُزل «جراند أوتيل» من أكبر فنادقها في شارع «لالزار» أحدث الطرق التي تم تنسيقها عندهم، ثم طفت أرجاء البلدة فراقتني بواباتها العالية المزدانة بالقيشاني والنقش البديع، وهي من أخص مميزات طهران، أذكرتني بعاصمة الصين بكين وبواباتها. أما أسواق البلدة فحدث عن جاذبيتها، شعابها لا تدخل تحت حصر، وكلها مغلقة بالأقبية، وجماهير الناس بها متلاصقة وأصواتهم لا تخبو قط. وغالب البيوت ذات مدخل مزركش بالقيشاني يؤدي إلى فناء يتوسطه حوض ماء كبير يغتسل فيه القوم ويغترفون ما يحتاجون من ماء، والحجرات تطل على الفناء في مربع ذي شرفات جميلة ويغلب أن تزينه حديقة بسيطة، والفرس مشهورون بميلهم للحدائق مثل اليابانيين، وإن أعوزها التنسيق وكمال الذوق، وبالمدينة عدة مساجد فارسية الهندسة قصيرة المآذن نحيلتها. والمقاهي هناك قليلة بالنسبة لما رأيته في العراق، وأحب وسائل اللهو دور السينما، والنساء نصف سافرات يلبسن الإزار المهفهف وعلى الوجه ظلة مخرمة أفقية وقليل من لبس الزي الإفرنجي، وهن أكثر حرية من نساء العراق وجمالهن فائق لولا طول الأنوف وتحديبها، والمبتذلات منهن هالتني كثرتهن، فأنت طوال الطريق تراهن في زينتهن وطلاء وجوههن يسرن ذهابًا وجيئة يحاولن اجتذاب المارة بالنظرات والغمزات والوكزات، ولا يكاد يخلو منهن مكان، وقد علمت أن في طهران وحدها من أولئكن ثلاثين ألفًا حسب الإحصاء الرسمي، وهذا بلاء زواج المتعة المنتشر هناك، ولعل للإباحة الروسية الممقوتة التي أدركت البلاد زمنًا أثرًا في ذلك الانحلال الخلقي المشين، وأنت ترى الرجال كل يساوم غانيته على قارعة الطريق في غير حياء كأن الأمر عادي، وذلك شر ذائع في بلاد فارس كلها بنسبة لم أرَها في أي بلد آخر، اللهم إلا في شنغاي بالصين، وهي هنالك تعزى إلى انتشار العوز والإباحة الروسية، ويقيني أن تلك وصمة عار في جبين الدولة الفارسية.

قمت يوم الجمعة متعبًا لأن شدة الحر لم تمكِّني أن آوي إلى مضجعي إلا في ساعة متأخرة من الليل، والجو هناك أميل إلى الحرارة، لكنه أرحم بكثير من بلاد العراق، والسماء تغشاها الغيوم المتقطعة مما يخفف من وهج الشمس بعض الشيء. خرجت أجوب أرجاء البلد، وإذا المدينة هادئة الحركة مغلقة المتاجر؛ لأن الجمعة هو يوم العطلة العامة وغالب أصحاب الأعمال يحترمونه فيوقفون أعمالهم، والناس هناك أنظف من أهل الريف، وإن كثر بينهم المتسولون كثرة مروعة، فالتسول والفقر في فارس آفة مهلكة، وإن وجد من بين الفرس أفراد مفرطون في الغنى. ومن العادات المنفرة بينهم جميعًا التجشي والبصق

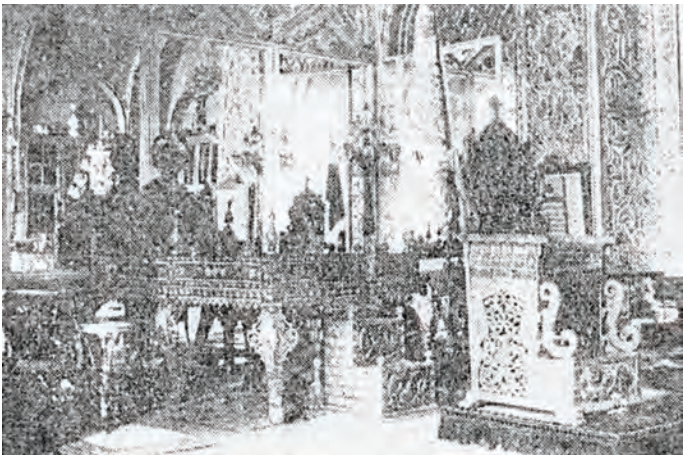

عرش الطاوس الذي سلبه نادرشاه من الهند في قصر جولستان في طهران.

والتمخط أينما وجدوا، وحتى المهذبين منهم ترى الواحد لا يمسح أنفه بمنديله، بل يضغطه بين أصبعيه وينفر نفرة تشمئز لها النفوس، على أنهم مؤدبون تسمعهم يرددون «خيلي ممنعون» ومعناها «عظيم الشكر» دائمًا، وإن أرادوا الاستفهام أو النداء أو الرضا بما يقال صاحوا قائلين: «بلى» بإمالة اللام في رقة وأدب، ويبدؤك الكبار بقولهم: «سلام عليكم» والصغار بقولهم: «سلام» فقط سواء أعرفوك أم لا. وأزياؤهم اليوم تكاد تكون موحدة، فكلهم يلبسون الحلل الإفرنجية وعلى رءوسهم القبعات «البهلوية»، وهي المميز الواضح لهم جميعًا، ولا تكاد ترى للزي القديم اليوم من أثر، وهو العمامة «أو القاووق»، والعباءة من الصوف، وقد استثنى الشاه من ذلك رجال الدين يظهرون في عمائمهم السوداء، وقليل ما هي.

ويُخيَّل إليَّ أن مستقبل طهران بل وإيران كلها سيكون عظيمًا بفضل مجهود الشاه الحالي، فهو يريد أن يرى بلاده تناظر في القريب بلاد الغرب رونقًا ورواء؛ لذلك أخذ يهدم القديم وينشئ الحديث بسرعة عجيبة في كل البلاد، ولقد أعاد لبلاده هيبة في قلوب الأجانب انتزعها منهم انتزاعًا، وقد كان مركز البلاد مهددًا باعتداء الروس من الشمال والإنجليز من الجنوب، وزاد ذاك الخطر منذ سنة ١٩٠٦ حتى كانت الحرب الكبرى، فتقدموا داخل البلاد بحجة مطاردة الأتراك، ولما أن انسلخت الروسيا عن الحلفاء خشيتها إنجلترا واحتلت

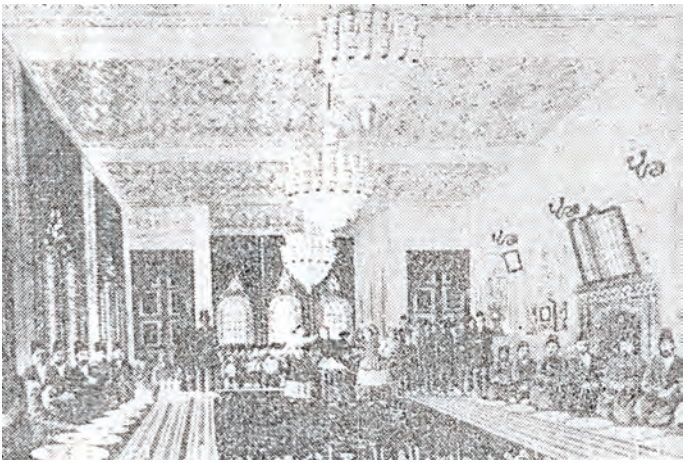

مثل من الحفلات الراقصة القديمة في قصر الشاه.

بلدة «قزوين» وما جاورها خصوصًا، وقد نشطت حركات البلشفيك عند بحر الخزر وفي أذربيجان، وأخذت شروط ولسون تلعب بلب الناس في فارس تحت زعامة رضا خان، فعرض الروس تنازلهم عن معاهدة ١٩٠٧ واستعدادهم للتنازل عن جميع الامتيازات التي كانت للروسيا في فارس، وفي يونيو سنة ١٩١٩ قدَّم ممثل السوفييت في فارس التصريح التالي:

(١) التنازل عن الديون الروسية في فارس. (٢) التنازل عن التدخل في شئون فارس. (٣) إلغاء الامتيازات والمنح الروسية هناك. (٤) التنازل عن البنك الروسي في فارس. (٥) ترك الطرق والسكك الحديدية الروسية للحكومة الفارسية. (٦) تنازل الروس عن كل أملاكهم هناك. وكان غرض الروسيا من ذلك إحراج إنجلترا، ولقد اعترفت روسيا باستعدادها لمساعدة فارس عسكريًّا ضد أي اعتداء، وجعل بحر الخزر حرًّا لها، وبذلك أصبحت العلاقة بين الدولتين وثيقة جدًّا، لكن العلاقة ضعفت قليلًا لما حاولت الروسيا بلشفة فارس، وكانت على وشك الزحف لولا أنها خشيت إنجلترا من الجنوب، وكان الفرس مهرة في انتهاز الفرص، وأتاحت لهم الظروف قائدًا عظيمًا مخلصًا «هو رضاخان» من عائلة متوسطة، حارب مع الروس وأحبه جنوده، فزحف بهم على طهران سنة ١٩٢١، وأصبح القائد العام ووزير الحربية، وفي أكتوبر ١٩٢٣ أضحى رئيس الوزراء، ثم اعتلى

مثال للجمال الفارسي.

العرش، فشابه مصطفى كمال في أنه رجل سياسة ورجل سيف معًا، وهو محب للنظم الأوروبية، لكن يظهر أنه كان أحكم من مصطفى كمال؛ لأنه أدخل إصلاحاته دون أن يغضب رجال الدين، ووجَّه أول اهتمامه لإصلاح الجيش، فأعد جيشًا محترمًا من أربعين ألف مقاتل، وبينا السلطان أحمد شاه يتريض في الرفييرا كعادته قام رضاخان وكاد ينتخب رئيس المجلس، لكنه قال بأن النظام الجمهوري يتنافى مع أصول الدين الإسلامي فنُوِّج ملكًا سنة ١٩٢٥، وأُجلس على عرش المغوليين في قصر جولستان، وكان قد اغتصبه نادرشاه من الهند قديمًا، ثم عدل الدستور، وتم ذلك دون إراقة قطرة دم واحدة، وأخذ توًّا في إعادة النظام، وأصلح الضرائب والمالية بمعاونة بعض الأجانب من أصدقائه، وفي ١٩٢٨ فتح البنك الملي (الأهلي)، ووطد علاقاته السلمية مع جيرانه، وفي ١٩٣٢ أصبحت بلاده عضوًا في عصبة الأمم، وطالبت بما يأتي: (١) إلغاء اتفاق الروس والإنجليز سنة ١٩٠٧ وإلغاء

المحاكم القنصلية والحرس القنصلي. (٢) تعويض عن المناطق التي خربت خلال الحرب وإلغاء المنح المالية لتستقل البلاد ماليًّا. (٣) تثبيت الحدود الفارسية. لكن الإنجليز اشترطوا أن تتعاون فارس مع إنجلترا وأن تقبل مستشارين منهم ومدربين للجيش الفارسي، فكان رد الشاه على ذلك الرفض في إباء والتهديد بالحرب، فكأنهم اعتمدوا على نفوسهم وأزاحوا الكابوس الأجنبي وألغوا الامتيازات التي كانت تفت في عضدهم، وأضحى بغضهم للأجانب شديدًا وبخاصة الإنجليز. والشاه والشعب الفارسي يتصرفون في كل ما له علاقة بالأجانب في شدة وصرامة لا تقبل هوادة. بلغني أنه حدث مرة أن أحد الألمان زار طهران ولما عاد لبلاده كتب نقدًا لفارس عمومًا ولاستبداد الشاه خصوصًا، وكانت الكتابة ماسة بكرامة البلاد، فعرض سفير الفرس في برلين الأمر على القضاء فحكم ببراءة الكاتب، وبمجرد وصول الخبر لمسامع الشاه أصدر أمرًا بالاستغناء عن جميع الموظفين من الألمان في بلاد فارس كلها — وقد كان جل الخبراء الأجانب الذين تستعين فارس بخبرتهم من الألمان والفرنسيين — فكانت تلك مباغتة قاسية عاد الألمان يصلحون مركزهم بعدها من جديد، وقد لاقاني عالم ألماني في مشهد «الدكتور باسوفتس»، وهو ممن يقومون هناك بإصلاح ذات البين وإرجاع المركز الألماني لما كان عليه لدى الشاه، وصرح بأنه تصرف حازم يدل على مبلغ احترام القوم لأنفسهم والمحافظة على قوميتهم.

دهشت كيف تكون بلاد متأخرة كهذه نحن نفوقها في التقدم بخطًى واسعة قد تحررت من الامتيازات الأجنبية ونحن نرسف في أغلالها؟ أليس الأمر مجرد جرأة في الإقدام على إلغائها في غير تردد، فنحفظ بذلك كرامتنا وندل على أنَّا شعب جدير بالاحترام؟

بعد أن اطمأن لإلغاء الامتيازات وعدم تدخل الأجنبي بدأ بإصلاحاته الداخلية، فمن الوجهة المالية اتُّخذ الذهب معيارًا للنقود بعد أن كانت الفضة من قبل، وجعل التجارة الخارجية احتكارًا حكوميًّا ليقاوم زيادة الواردات ومنع دخول الفضة بتاتًا وعدَّل الضرائب فبلغ الدخل خمسة ملايين جنيه يضاف إليه ضريبة السكر والشاي، وهي حول مليون جنيه وضريبة الطرق حول ستمائة ألف جنيه وضريبة البترول وهي ١١٥١٩٧٩ جنيهًا. وقد نفذت ضريبة الدخل — ولا نستطيعها نحن خوفًا من الأجانب — منذ أبريل سنة ١٩٣٠ وتشمل ٣٪ من أرباح الشركات، وبين ١ و٣٪ ممن زاد دخلهم على ٥٠٠ تومان (والتومان اثنا عشر قرشًا) والجمارك أهم موارد الدخل العام، وهو ينفق على الجيش ٤٤٪ من مجموع الدخل.

لقد بدأ إصلاح الجيش بمعاونة مدربين من السويد، وفي سنة ١٩٢٦ جعل التجنيد إجباريًّا، فخريجو الجامعة لا بد أن يخدموا في الجيش سنة ونصفًا، ومن يعولون أسرة

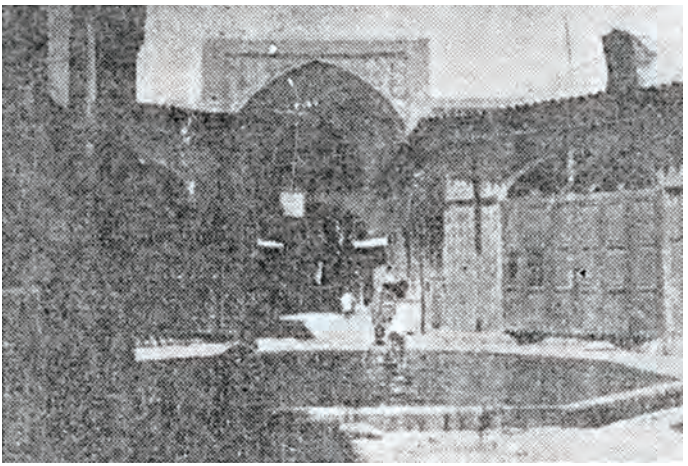

لا يخلو بيت من أحواض الماء في فارس ويُرى هذا الحوض وسط سوق طهران والرجل يغتسل فيه.

يخدمون سنة واحدة، وطلبة المدارس الثانوية يخدمون العام نفسه، ومجموع الجيش أربعة شهور ونصفًا ويشرف على وزارة الحربية ... النظامي اليوم كامل العدد ثمانون ألفًا ويحاولون إبلاغه مائة ألف، وفي طهران مدرستان حربيتان يدخلهما الحاصلون على الشهادة الثانوية فضلًا عن البعوث الحربية الكثيرة إلى ألمانيا وفرنسا، وقد بدأ نواة الأسطول البحري والجوي، والحربية غير مسئولة أمام البرلمان بل أمام الشاه وحده.

أما في التعليم فقد عمَّم المدارس القروية ومدتها أربع سنين، ومدارس المدن مدتها ست، ثم المدارس الثانوية ست أخرى، وبعدها المدارس العليا، وهو يحاول جعل التعليم إجباريًّا، وأهم ما يرمي إليه التعليم هناك الاعتزاز بالوحدة القومية وتمجيد ماضي البلاد وتثقيف العقل والجسم والتربية الدينية.

ويعنى الشاه اليوم بالطرق العناية كلها. حقًّا شهر الفرس بذلك من زمان بعيد حتى قيل: إنهم أول الأمم فتحًا لها فقد عبدوها منذ سنة ١٧٠٠ق.م. وكنا نشاهد بعض أطلال من القناطر والجسور القديمة لا تزال بانية، ولقد كانت شهرتهم تفوق في الطرق شهرة الروم، ولقد كان النقل إلى الحرب الكبرى بالدواب، لكن تدخُّل الإنجليز والروس ساعد على العناية بالطرق ورُبطت أطراف البلاد بالسيارات، كذلك شجعت الظروف الحربية إقامة

بعض الأحياء القديمة في طهران.

المطارات، وقد تسلمها الفرس اليوم، وبفضل العناية بالطرق زاد نفوذ الحكومة المركزية، ورخصت أجور نقل السلع التجارية وخفت ويلات المجاعات، وقد أمن الشاه تلك الطرق بإقامة المخافر على امتدادها في فترات قصيرة، وحتى وسط الجبال المقفرة التي لا يقطنها أحد، إلى ذلك الإكثار من «المسافر خانات» أو «كرافان سراي» في كل مكان، ومن أول ما يشغل اهتمام الشاه السكة الحديدية التي يفكر في نشرها جديًّا، وقد بدأ العمل في وصل البحرين: الخزر والخليج الفارسي بخط حديدي لكي تستقل البلاد عن جاراتها في أمور النقل والتجارة، وهو ماضٍ في مدها رغم كثرة الصعوبات التي تواجههم كرداءة الثغور في البحرين وكثرة الجبال، فبين طهران وبحر الخزر ما لا يقل عن ٢٥ ميلًا من الأنفاق؛ لذلك ستكلفهم السكة غاليًا، ويرى البعض أنه يفضل مد الخط بين طهران وبغداد، ولم يقبل الشاه أن يعرض الأمر على شركات أجنبية، بل يعتمد في النفقات على ضرائب السكر والشاي التي تزيد وحدها على مليون جنيه كل عام، ويخال بعض الاقتصاديين أن في ذلك خطرًا على ثروة البلاد وتعطيلًا لأموالها التي هي في حاجة إليها في أمور أخرى، على أن ما قاسوه من عبء التدخل الأجنبي الممقوت جعله ينأى ما استطاع عنهم وعن رءوس أموالهم.

على أن البلاد ينقصها الشيء الكثير من ذلك، الشئون الصحية والعناية بها، فمياه الشرب مثلًا من المشكلات هناك حتى في طهران نفسها، فهم اعتادوا من زمان بعيد أن

دار البرلمان في طهران.

يتعقبوا منابع العيون ويخضعوها لحفائر تسير منها سراديب إلى أحواض تختزن فيها، وكلما طغت سال الماء الزائد إلى المجاري التي تسقي البلدان، وتراها تجري على جوانب الطرق مكشوفة لكل عابث، فترى هذا يغتسل وبعده آخر يستقي، ثم ثالث يبصق ويتمخط ورابع يلقي بالماء القذر فيها، وقد شاهدت في طهران قومًا يغسلون وجوههم من ماء يجري بعد أن غُسل به الطريق، ولما وقفت مدهوشًا قالوا: أليس ماءً جاريًا؟ لذلك يشتري غالب الأجانب ماءهم من السفارة الإنجليزية التي أقامت لها مضخة ومرشحًا خاصًّا، فليس بمستغرب إذن أنك ترى الأمراض منتشرة، وبخاصة الجدري الذي يشوه وجوه الكثير وتشويه العيون والقرع منتشر حتى بين الطبقة المثقفة، فيندر أن ترى رجلًا من الطبقات الفقيرة سليم الرأس، ويزيد ذلك سوءًا عدم صرف القاذورات فكثير من بيوتهم تخلو من «الأدبخانات» وغالبهم يبول ويتغوط في الخلوات ويغتسلون على مجاري المياه التي يستمد منها غيرهم، والأطباء هناك قليلون؛ ولذلك كان متوسط المتاع الصحي فيمن تتراوح سنهم بين ٢٥ و٥٠ سنة أقل من نظرائهم في البلدان الراقية بعشرة أضعاف.

إلى خراسان

اعتزمت القيام إلى أرض خراسان حيث مقر الإمام الرضا أحد أئمة الشيعة وابن الإمام موسى الكاظم في بغداد، وضريحه في مشهد ثانية مدن فارس وأولى البلاد المقدسة، فهي

كعبتهم، تبعد عن طهران مسافة نائية هي فوق مائة وستين فرسخًا، والفرسخ وهو وحدة قياس المسافات عندهم نحو ستة كيلومترات، أعني نحو ألف كيلومتر أو يزيد، كان القوم يقطعونها على متون الإبل والبغال والحمير فيما بين أربعين يومًا وستين، وهي بالسيارات اليوم بين يومين وثلاثة. أخذت مكانًا أماميًّا في سيارة كبيرة من ذوات العجل المزدوج برفقة ركب من الحجاج يناهز الخمسة والعشرين عدًّا بين نساء ورجال وشيوخ وشبان، وبدأنا السير ليلًا وكلهم إيمان صادق لا يبتغون من وراء كُلَفهم تلك ونصبهم هذا إلا زيارة قبر الإمام ومعهم زادهم، أما أنا فكنت أعتمد على المحاط وما فيها من وسائل ساذجة للنوم والطعام، وبين آونة وأخرى كان يصيح الجمع في ابتهال قائلين: «لاهم سل ألى مهمد آلى مهماد».

دار المفوضية المصرية العامرة في طهران.

وأخذنا نمر بالمحاطِّ التي يسميها القوم مسافرخانات أو كرفان سراي، وهناك نجد أمكنة تحكي الخان بها حجرات فقيرة الأثاث وغذاء بسيط كنا نتزود منه ونأخذ قسطًا من الراحة ثم نستأنف السير. ولم تكن تقوى القوم لتنسيهم ملاذَّهم؛ فقد كان الفريق الأكبر منهم يحمل الغلايين لتدخين الأفيون، فينتحون جانبًا من المكان ويمر الغليون عليهم جميعًا، وكان في جواري إلى جانب السائق أحد علماء كربلاء بعمامته السوداء الضخمة ولحيته المرسلة وسحنته الناحلة، وكان يتيه على الآخرين بعلمه وبأنه من سلالة هاشمية ومن نسل العلم والعلماء ولأولئك على الناس حق العطاء ويسمونه «حق الخمس» يقصدون الأغنياء كلما أعوزهم المال ليأخذوا منهم حقهم هذا؛ لأنهم من السادة سلالة الرسول، ولما علم الشيخ بأني سائح سأكتب عن رحلتي قال لي: اكتب عني «أنا العلامة حجة الإسلام وفخر الملة والدين السيد ...» على أني لَمَّا تحدثت إليه لم أجد من علمه ما يؤيد تلك الألقاب، إلا أنه رجل طيب القلب وديع الخلق كريم الطبع.

جد السائق في السير على ضوء القمر وقبس مصباحه فخانه نظره وما نشعر إلا والسيارة تنحدر بنا عن الطريق وتنزل هوة من دونها وادي سحيق فكادت تنخلع لرجَّاتها قلوبنا، وصاح الجميع وارتطم هذا بذاك وذاك بجانب من السيارة، ثم كانت صدمة عنيفة وفرقعة أصمت آذاننا وإذا هي صخرة كبيرة ناتئة في منحدر الوادي توقف السيارة قبل أن تنقلب، وقد أصيب من الركاب كثير ونالني من ذلك شَجٌّ بين العينين سال منه الدم سيلًا، وصدمة شديدة في الركبة اليمنى أحدثت بها كسرًا لا أزال أعاني منه، فقفزت من السيارة ونمت على الصخر تائهًا حتى الصباح حين رأيت العجلة قد كُسرت من أساسها، ولولا لطف الله لكنا اليوم في عالم غير الذي نحن فيه، أمضينا يومًا كاملًا في تلك البرية المقفرة ولم يكن لديَّ زاد ولا قوة فتبلغت بكسرة أعارنيها أحد الحجاج حتى عاد السائق ومعه بديل عما كسر، وكان قد رجع إلى طهران ثم عاد إلينا وأصلح ما أفسدت غفلته واستأنفنا سيرنا حامدين شاكرين الله أن أنجانا من خطر الموت في تلك الناحية النائية، وكم من سيارة خانها الحظ العاثر فهوت وهلك من ركابها الكثير في تلك الطرق الوعرة. ولقد عزا القوم سلامتنا إلى رضا الإمام عنَّا، وما كدنا نسير بعيدًا حتى وقفت السيارة فجأة، وتبين أن البنزين قد نفد ولم يكن لدينا منه شيء فلبثنا مكاننا حيارى ساخطين جزعين أربع ساعات حتى مرت بنا سيارة أخرى أعارتنا بعض البنزين، والسيارات الكبيرة تمر تباعًا ذهابًا ورجعة في كثرة هائلة كلها تحمل جماهير الحجاج ويقولون بأن هذا الخط على وعورته أكثر البلاد حركة في نقل المسافرين؛ لأن مشهد خير لديهم من مكة المكرمة

في «لوقنطة» وهو مثل من القصور الفاخرة القديمة.

تغنيهم عن حج بيت الله الحرام في زعمهم، فترى الفاني منهم والفقير المدقع يدخر أجر السفر ليصل إليها ويود لو يموت بها ليدفن في أرضها الطاهرة.

لبثنا نسير وسط الربى وصعدنا ما هو بالغ الوعورة في طرق لياتها المتعاقبة من الأعاجيب وكلها مجدبة عريت عن النبت إلا في بعض بطون من الأودية، حيث كنا نرى سيلًا من الماء يتلوى وتقوم القرى على جوانبه بأبنيتها الوطيئة من الطوب واللبن، وبعد يوم ونصف دخلنا سهولًا غالبها صحراوي وتلك بداءة أرض خراسان التي بدت أكثر جدبًا من سابقاتها ومن البلدان الكبيرة التي مررنا بها «سمنان ودمغان وشاروت وسابزوار»، ثم نيسابور وكلها كمراكز الصعيد عندنا حولها تكثر البساتين والمزارع، وعجبت لأني رأيت القطن يُزرَع هناك بكثرة ويؤتي محصولًا لا بأس به، وقد أقاموا له بعض المصانع التي تستهلك غالب الخام، وقد بلغني أن ثمنه قد انتعش وأنا هناك فبلغ ١٢٠ قرشًا

نستريح قليلًا في إحدى «المسافرخانات» التي تنتشر في غالب طرق العجم.

للقنطار بعد أن هبط هبوطًا مخيفًا وزراعة الحبوب خصوصًا القمح والشعير منتشرة في كثير من بلاد فارس خصوصًا خراسان، وقد يزيد المحصول على حاجة الناس لكن رداءة طرق المواصلات وغلوها توقف تصديره وتجعله كثيرًا رخيصًا في بلد وشحيحًا غاليًا في مكان آخر أهله يتضورون جوعًا؛ لذلك اضطرت الحكومة أن تحتكر الحبوب في بعض الجهات وهي تتقاضى ضرائب الأرض حبوبًا في بعض الأحيان، وبذلك حُفِظت أثمان الحبوب عند حدها المعقول وقاومت المجاعات التي كانت تفتك بالناس من قبل فتكًا ذريعًا، وقد أقامت مخازن للقمح في البلدان الكبيرة لمقاومة ذلك، والعادة أن الناس هناك يأكلون خبز القمح ممزوجًا بالشعير، أما في مناطق الشمال على مقربة من بحر الخزر فالأرز عمادهم ومن النبات الكثير النمو هناك الطباق والفاكهة والتوت لتربية دود القز، ويزرع قصب السكر حول بحر الخزر والبنجر في جهات عدة، فالزراعة الآن هي عماد البلاد والصناعة في بدئها وتحاول الحكومة رغم فقرها إقامتها مقتفية أثر اليابان في ذلك، خصوصًا مصانع النسيج وتجفيف الفاكهة والسكر، ولا يزرع من أراضي العجم أكثر من عشرها فقط وفوق نصف المساحة كلها لا يصل حتى للمراعي الفقيرة، إذا فرضنا أن رأس الغنم يحتاج إلى ثلاثة أفدنة فقط، أما الأغنام ذوات الذنب المنتفخ الغليظ الذي يزيد وزن الواحد على ثمانية عشر رطلًا أواخر الربيع، فيلزم للرأس منها عشرة أفدنة في العام، ومع ذلك ترى الأذناب ضامرة جدًّا في فصل الشتاء وكنا نرى من هذه الكثير في سيرنا، والرعاة

ربع سكان العجم وهم طبقة مغيرة يُخشَى بأسها، وبخاصة أهل خراسان، ومثلهم مع المزارعين مثل الذئاب مع الحملان. والأراضي غالبها في ملكية طائفة قليلة من الملاك لكنهم يحسنون معاملة المستأجرين لقلة الأيدي العاملة، والملاك هم الذين يقدمون الماء والبذور ويدفعون الضرائب مقابل استيلائهم على نصف المحصول، والزراعة على قلتها عماد ثروة البلاد رغم أن المزارع يغالب الطبيعة القاسية.

في خيابان بهلوي أكبر شوارع مشهد إلى جوار صديقي السوري.

فمطر البلاد نادر وثلجها لا يسقط إلا في الشتاء والربيع، وبفضله أمكن الزرع، ولما كان المطر غير ثابت أثَّر على الينابيع والمجاري في الجهات الخصبة لذلك لا تكاد تُزرَع الأراضي الصالحة إلا مرة كل خمس سنين في المتوسط، ويخال البعض أن طريقة الزراعة «البعلى» تفيدهم كثيرًا لو لجئوا إلى استخدامها.

وحالة الفلاح هناك لا بأس بها يسكن بيوتًا من الطين وغذاؤه القمح والجبن واللبن والحامض ويسمونه «دوك»، وفي الصيف يستهلك قدرًا كبيرًا من الفاكهة والخضر، أما اللحم فمرة كل أسبوع في الشتاء فقط. وأحسن الطبقات حالًا التجار وهم معروفون بالمكر والدهاء حتى جرى المثل قائلًا: أرمني واحد يغلب عشرة من الإغريق، لكن فارسيًّا واحدًا يلعب بعقول عشرة من الأرمن.

استوقفت السيارة قليلًا في نيسابور مثوى رفات «عمر خيام» الذي عاش فيها في الربع الأخير من القرن الرابع عشر وأوصى أن يدفن في بقعة تظلها الأشجار ويكسوها ورقها الذابل مرتين في كل عام. زرت قبره وسط الحقول تظله حقًّا أدواح عالية قديمة وبجانبه قبة أنيقة عُني بإقامتها ونقشها العناية كلها، فخلتها له، وإذا هي مدفن محمد المحروق من سلالة الحسين؛ وقد أسموه بالمحروق لأنه نزل ضيفًا على أحد سراة القرية، ولما أن خيم الليل اعتدى على بنت مضيفه فأحرقه الناس في مكانه هذا، ورغم جرمه هذا شيَّد قبره وقدَّسه الناس لأنه من سلالة طاهرة! ويزور الخيام من الأجانب خلق كثير؛ لأنه قد خلد ذكرًا بما كتب في رباعياته التي ترجمها الناس إلى جميع اللغات، ولقد أبى عليه علماء الدين تشييد مدفنه لاتهامهم إياه بالزندقة لأنه كان إباحيًّا في شعره، والحكومة تنتوي إقامة بنيان يليق بمقامه لكنها لا تزال تخشى غضب رجال الدين. عادت الربى فتسلقناها ثم أشرفنا على مشهد وهي في حجر الجبال بعد أن لبثنا في الطريق ثلاثة أيام وأربع ليال كاملات، قاسينا خلالها كثيرًا. هنا وقف السائق ونبَّه القوم أن ها هي مشهد فارقبوها تبركًا، فأخذوا يحاولون رؤية القبة وسط الضباب والدخان المنبث، وكل من لمح منها قبسًا قرأ آيات التبريك وعمد إلى قطع الأحجار يجعلها في كومة ثم أقبل على السائق يهبه من أنعامه ما تيسر.

مشهد مقدس

(طوس قديمًا)، دخلنا مشهد تحفها المزارع والبساتين وهي في منطقة غنية بالفاكهة وبخاصة العنب ويسمى «أنجور» والخوخ، واستوقفنا البوليس لفحص الجوازات وقد تكرر ذلك في الطريق أكثر من عشر مرات، ثم أخذنا نخترق طرقًا فسيحة يحفها الشجر وتقوم عليها المباني الحديثة الوطيئة، وقد كانت من قبل أزقة مختنقة كسائر بلاد فارس، لكن يد الإصلاح تناولتها اليوم على نحو ما فعلت في طهران، وقد حللت نزل «مهمانخانة ملي»[1] وهو جميل نظيف، وقد استرعى نظري بناء القنصلية البريطانية بعظيم امتداده وهو أثر من آثار النفوذ الإنجليزي الذي كان يسيطر على البلاد حتى قال القوم بأنه حدث مرة أن حاول بعض الناس أن يعلو ببناء بيته الملاصق لها فمنعه القنصل؛ إذ لا يجوز

[1] ولد بها الغزالي والفردوسي صاحب الشاهنامة.

كشف حرمة الدار الإنجليزية وقد كانت هذه البلدة داخلة في النفوذ الروسي يومًا، لذلك لاقيت من الروس هناك الكثير وغالب الأهلين يتكلمون الروسية، أما النفوذ المطلق اليوم فللفرس وحدهم. قصدت زيارة:

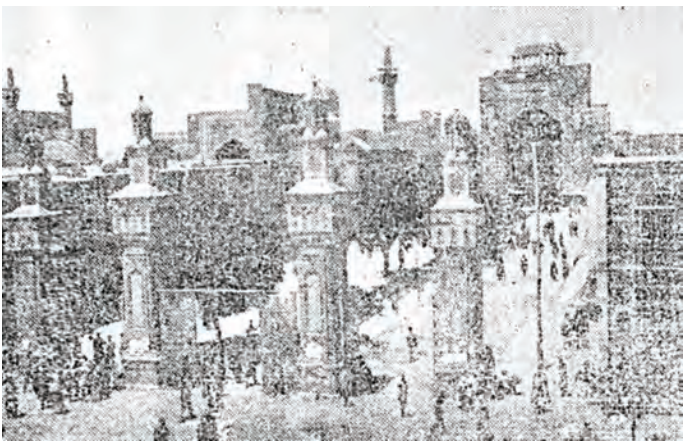

المدخل الرئيسي للحرم الشريف في مشهد.

ضريح الإمام الرضا

الذي بدت لنا قبته الذهبية البراقة من أميال، وإذا المسجد والحرم فاخر إلى حدٍّ كبير مداخله عدة، الباب تلو أخيه في زخرف جذاب وفن شرقي بديع بالقيشاني والبلور والمرمر والرخام، وأمام كل واجهة رئيسية — وهي أربع — بهو «أو صحن» مربع تحفه الحجرات المزركشة أقيمت لطلاب العلم في طابقين، وتتوسطه قناة الماء يغترف منها الجميع للشرب والغسل وتنظيف الملابس والأحذية ومآرب أخرى، والباب الرئيسي للضريح يكسى كله بالذهب الخالص في فجوات وتعاريج جذَّابة، وفوق الضريح قبة تكسى بالذهب الخالص، وللمسجد مئذنتان دقيقتان عليهما غشاء من ذهب إلى ذروتيهما، أما عن العالم المتراص كالموج المرتطم هنا وهناك فحدث في دهشة فائقة، كنت أسير ولا أكاد أشق لي طريقًا بينهم، ومنهم المثقف أنيق الهندام والمتسول البائس في الخرق البالية والأقذار التي يشع منها الوخم وينبعث منها مكروب المرض فيوشك أن يخترق أجسادنا. هذا إلى العلماء في

عباءاتهم وعمائمهم السوداء للشرفاء منهم والبيضاء لغير الشرفاء يخضبون لحاهم المرسلة بالحناء، ومن زوار الأجانب خلق كثير عراقيون وهنود وأفغان ومن كافة العالم الإسلامي، وإلى جوانب الجدران كلها يرتمي الكثير في خمول زائد وجلهم ممن أضناهم المرض وشوَّه البؤس أجسادهم. ويتوسط أحد الأفنية سبيل مذهَّب أنيق في داخله نافورة حولها السلاسل تحمل العقاب للمحتسين، ويشرف عليهم كهل توقد حوله الشموع صباح مساء وبين آونة وأخرى يمد «مغرفة» يحرك بها الماء والسعيد من استطاع أن يتذوق هذا الماء الطاهر ويسد الجماهير المكان سدًّا.

في داخل الحرم يشقه مجرى الماء.

أخيرًا دخلنا باب الضريح الفضي، وإذا المدفن وسط شباك الفضة والذهب ترصعه الجواهر الثمينة، وقد أتممت طوافي حوله في ثلث ساعة كدت أختنق خلالها من كثرة الزحام، وهنا رأيت عجبًا، نواح وصياح ولطم وتقبيل واستلقاء على الأرض ولمس للأعتاب بالخدود وما إلى ذلك مما تقشعر له الأبدان. هنا أسرع شيخ يطوف بي وناولني أدعية

مطبوعة يجب أن أقرأها وأركع وأسجد وأقبل فأسرعت بالتخلص منه بفضل زميل فارسي عرفته، فخاطب المطوف قائلًا: بأني عالم قارئ خبير بكل أولئك وقد علمت بعدُ أني لو رفضت الإذعان للأمر وحدي لظن أني ملحد ولكانت ما لا تحمد عقباه. خرجت إلى الفناء وإذا في كل ركن من أركانه عالم يرتقي منبرًا وحوله خلق كثير جلوس على الأرض في وجوم وشبه ذهول، وهو يقص عليهم أنباء علي والحسن والحسين والأسرة الشريفة كلها، وجميعهم يبكون وكلما أشار في قوله إلى الفاجعة صاحوا عاليًا ولطموا جباههم وخدودهم في فرقعة مؤلمة، ومنهم الطفل والمراهق والسيدة والعجوز والكهل الفاني والمثقف والأمي الجاهل، وكنت أعجب لسيل دموعهم وبكائهم المر، وذاك التبشير يظل طوال اليوم في جميع أركان الأفنية، وما أن أوشك الغروب حتى سمعت من شرفة الباب الأوسط طبولًا تقرع في نقرات مثلَّثة، ثم أعقبها صياح وتلا ذلك نفخات من أبواقٍ طويلة مزعجة، وظل ذلك حتى غربت الشمس فكأنهم يودعونها كما يفعل المجوس بذاك الذي يدخل الرهبة ويلقي الرعب في القلوب، وفي وقت الأذان ترى عددًا كبيرًا كل يصيح في ناحية ثم تقوم الصلاة ويجلس صبية صغار على المنابر يصيحون بعبارات التبليغ والقوم يصلون. جهل فادح واعتقاد في الترهات والبدع ما كنت أخاله بلغ هذا الحد فكأنهم يعبدون الرضا من دون الله، فما مر من الأبواب فرد كائنًا من كان إلا واجه الضريح وانحنى وتمتم ثم قبَّل الباب وانصرف، وهم يرمقون شذرًا كل من جاز الباب من الغرباء ولم يفعل ذلك، فقلت في نفسي أهكذا يلعب رؤساء الدين بأذهان البسطاء من أفراد الشعب، لا ابتغاء مرضاة الله بل لملء جيوبهم هم وذراريهم الذين لا يحصيهم عد؟ وهل خُلقنا للبكاء والعويل وإهاجة الشجون بتكرار أقاصيص ما أنزل الله بها من سلطان؟ تأخر معيب وتدهور يعطي الأجنبي عن البلاد أسوأ الفكر وحتى تقضي حكمة الشاه على كل أولئك سيظل حجر عثرة في سبيل تقدم البلاد.

وبجوار المسجد مكتبة حوت مجموعة قيِّمة من المخطوطات في سائر العلوم الإسلامية حتى قالوا: إنها أكبر مكتبة إسلامية في الدنيا، وفيها بعض المصاحف بخط سيدنا علي نفسه. وفي وسط أحد الأفنية مصلًى يسمونه جوهر شاه، وكانت بيتًا لسيدة اسمها جوهر، فلما أراد الشاه إقامة المسجد رفضت أن تبيعه إياه فتركه لها وأقام مسجده حوله، وبعد إتمامه أقامت هي في مكان منزلها مصلًى ولذلك سميت «جوهر شاه»، ويؤدي كثير من أبواب الحرم إلى أسواق مشهد المسقفة الملتوية، وهي من أجمل أسواق فارس، ويحرم على غير المسلمين دخولها؛ لأنها داخلة ضمن الحرم المقدس وأرضه مقدسة ولمجرد الشك في شخص غريب ينهالون عليه ضربًا مبرحًا وكثيرًا ما مات من الغرباء لهذا السبب، وكم من

مرة سُئلت إن كنت مسلمًا ومن أية ولاية جئت فكنت أجيب «بلى مسلم»، وكان بعضهم يعود فيسأل «مسلم شيعي؟» فأعيد الجواب «بلى مسلم»، وهم يمقتون السنيين مقتهم للكفار، وكلما شرب أحدهم قال: «لعن الله عمر وبني أمية»، إذ يكرهون اسم عمر جدًّا، وأكثر الأسماء بينهم ذيوعًا حسين ثم حسن ثم علي ثم محمد. عصبية عمياء وإيمان في غير تفكير ولا تعقُّل. ويناهز الحجَّاج إلى المكان سنويًّا الملايين وبخاصة في شهر رجب وعربات نقل المسافرين لا تغيب عن العين ساعة واحدة.

مدفن نادرشاه في مشهد.

أخذت أتجول في القسم المستحدث من المدينة وهو جميل، طرقه فسيحة يجانبها الشجر وتجري إلى جوارها قنوات الماء وتقوم عليها المباني الوطيئة، وهناك بعض متنزهات لا بأس بتنسيقها تكتظ بالمتريضين في كثرة هائلة، ومن بينهم كثير من المبتذلات اللاتي يفقن الرجال عدًّا، وكنت أخال أن للرضا حرمة تمنع ذلك، لكن يظهر أن الحالة الاجتماعية في فارس كلها هكذا، وحتى في النزل لا تخلو حجرة من الخليعات، يحتسي الجميع الخمر وكانوا يدهشون لي كيف أنام في غرفتي وحيدًا! وحتى في الحرم الشريف يقصد الرجل ورفيقته إلى الفقيه العالم معلنين إياه أنهما يريدان زواج المتعة «أو الصيغة» ليلة واحدة

أو اثنتين مقابل كذا فيقرهما، ويعد الأمر بعد ذلك مباحًا، وقد بدا لي أن غيرة الرجال على نسائهم تكاد تكون معدومة فكأنه يحل لها بعض ما يحل لنفسه والأمراض السرية لا يكاد يخلو منها أحد، وجل موتى الغرباء بسبب «الزهري»، وقد حاولت الحكومة جعل البغاء رسميًّا في مناطق معينة لتخفف من ويلات تلك الإباحة فلم يقبل علماء الدين ذلك.

قصدت زيارة الحضرة يوم الجمعة فكان الزحام فوق كل تصور، وحاولت دخول الضريح فلم أستطع لأن أرضه فرشت بالزائرات بحيث لم يبقَ موطئ قدم، وكان يسير في الطرقات كثير من المهرجانات يصيح الصبية حولها إحياءً ليوم الجمعة وبأيديهم الأعلام، وبعد صلاة الغروب أخذ العلماء يقصُّون على الناس نبأ فاجعة علي والحسين والجماهير حولهم عرايا الصدور يضربونها بأكفهم تارة وبسلاسل ثقيلة تارة أخرى وفق نغمات موحدة في شكل بشع مرعب، وهكذا تتحكم الشعوذة في قلوب القوم تحكمًا معيبًا. حاولت دخول الضريح رغم الزحام الكثيف لأرى قبر هارون الرشيد الذي علمت أنه بجانب قبر الرضا نفسه، غير أني رأيته منبوذًا في ناحية غير ظاهرة، حتى إنني لم ألاحظه في المرة الأولى، وقد وضعوه بحيث يلمسه الزائرون بأدبارهم عندما يطوفون حول الرضا، وذلك احتقارًا لشأنه، وكثير منهم يلعنه بعد الزيارة ويرفسه برجله ووجهه مقابل للإمام ويقول: «لعن الله المأمون وأباه»، وذلك لأنه سني أولًا ولأنه والد المأمون الذي اتهم في دس السم في العنب للإمام، ثانيًا وقد سافر الرشيد إلى هناك في حملة ضد الحكام الذين مالئوا بني أمية فوافته منيته هناك، فأوصى بأن يدفن في هذا المكان الذي أقام عليه الإسكندر المقدوني علمًا وتنبأ بأنه سيكون مدفن رجل عظيم، ولما جاء المأمون ولَّى الرضا حاكمًا على تلك البلاد من قِبله، ولما عاد إلى بغداد وهزم أخاه الأمين وتم له الأمر دس للرضا فمات ودُفن إلى جوار الرشيد.

وعند مدخل المسجد مكان القصاص لمن أذنب داخل أرض الحرم والحكم لرئيس الحرم، فكأنها حكومة وحدها، وفي خارج الباب مضيفة يُعد فيها رئيس الحرم طعام الغداء يوميًّا لمن طلب من الغرباء ذلك. وقد مات أحد العلماء ويسمونهم «مولاه»، فكانت جنازته مهيبة، وفي صباح الجمعة قام عالم يؤبنه ومن دونه الجموع المحتشدة جلوس على الأرض يبكون، وكانت عبارات التأبين من قصة الحسين أيضًا، وعلمت أنه منذ خمس سنين فقط كان إذا مات أحد العلماء وجب تعطيل مصالح الحكومة وإغلاق المتاجر والبنوك ثلاثة أيام كاملة.

وللإمام الرضا من الأوقاف شيء كثير، فكل المباني التي تقع في الحي كله ملك له، هذا غير الأراضي الزراعية والهدايا الثمينة التي تقدم إليه، فكلما مات غني أوقف جل ماله

عليه، وفي أحد أبواب المسجد فيروزة معلقة في حجم بيض النعام يقولون بأنها لا تُقَيَّمُ ويقصون عنها من الخرافات ما لا يقبله العقل، فمثلًا لما احتل الروس البلدة إبان الحرب الكبرى ربطوا خيولهم داخل «الصحن» وضربوا القبة بالقنابل فلم تصبها، وحاولوا ضرب تلك الفيروزة مرات فطاش سهمهم. وحجر الفيروز كثير هناك ومناجمه في قرية فيروز أباد في جنوب شيراز، وفيها جبل جل كتلته من الفيروز على اختلاف طبقاته.

والحي الذي حول الحرم كله محرم على غير المسلم تطوقه السلاسل عند مداخله، وكثيرًا ما كان يلجأ إليه المجرمون والقتلة والمدينون ليحتموا فيه، فترفع عنهم العقوبة ما داموا داخله.

الموسيقيات المتجولات «والتارة» أحب الآلات الموسيقية عندهم.

والذي شجع الفرس على اتخاذ مشهد كعبة مقدَّسة الشاه عباس أكبر الصفويين هناك، وعاش أوائل القرن السابع عشر، وكان عصره ثالث العصور الذهبية في تاريخ فارس كله، صرف قومه عن زيارة مكة المكرمة لكراهتهم للعرب، ولكي يوفر على قومه

ما كانوا ينفقونه من أموال طائلة في بلاد يكرهونها، وكثير من الحجاج كانوا من السراة، فاتخذ مشهد كعبة وجه إليها الشعب، ولكي يزيدها قدسية حج إليها بنفسه ماشيًا على قدميه مسافة تفوق ١٢٠٠ كيلومتر، فتحول إليها الناس جميعًا، ويندر من يزور الحجاز اليوم وهم يحترمون كلمة «مشهدي» عن كلمة «حجي»؛ لأن من زار مشهد لا شك أكثر قدسية واحترامًا ممن زار مكة! وكم كنت أسمعهم ينادون بعضهم باسم «مشهدي فلان» حتى في مشهد نفسها.

وقد لاحظت من بائسي الروس هناك عددًا كبيرًا رجالًا ونساءً وأطفالًا، وكلما دخلت «النظمية» مقر البوليس وجدت مهاجرين منهم وافدين من بلادهم هروبًا مما يقاسونه من مضض الجوع والبؤس، وأنت ترى الفتيات يجلسن على جوانب الطرق تفرش كل منديلًا أمامها لتستجدي المارة، وكثير من الفرس يتزوج من الروسيات وغالب خدام النزل منهم. وقد زرت مدفن «نادرشاه» الذي مد نفوذ بلاده وفتح الهند وأخذ من الأسلاب القيِّمة شيئًا كثيرًا، من بينها عرش الطاوس الذي لا يزال يعرض في قصر جولستان في طهران، وعليه تُوج الشاه الحالي والمدفن يقوم وسط حديقة فسيحة تحوطها الأسوار العالية، وتكاد تكسوها الأدواح الكبيرة. وملاهي القوم قاصرة على المقاهي ودور السينما أما الراديو والتمثيل والمراقص فنادرة وموسيقاهم شرقية بحتة وهي أقل تشذيبًا من الموسيقى التركية وأحب الغناء ما كان صيحات أشبه بأغنية الفلاح المصري وهو يسقي زرعه بالعود في صعيد مصر وغالب الأنغام من «نغمة العجم»؛ مما يؤيد أن هذه البلاد هي أصل تلك النغمة، وأحب الآلات الموسيقية لديهم عود يسمونه «تارة» ذو أربعة أوتار مزدوجة من السلك الرفيع ولا تشد عاليًا ورقبته بالغة الطول، وهي مقسمة بأربطة وبطن العود «القصعة» دقيقة الوسط منتفخة الجانبين وهي أصغر من «قصعة» عودنا ونغمته مطربة بين «المندلين» و«الطنبور»، والدف والناي مستعملان بكثرة والكمان على قلته.

وحساب الأيام عندهم شمسي يقسمون السنة إلى اثني عشر شهرًا كل شهر من الستة الأولى واحد وثلاثون يومًا، ومن الثانية ثلاثون وعامهم هذا هو سنة ١٣١٢، وبدؤه الهجرة النبوية على أنه افترق نحو أربعين عامًا بسبب زيادة أيام السنة القمرية، وأسماء الشهور متفقة مع البروج الفلكية (الحمل والثوراء والجوزاء ... إلخ) بأسمائها الفارسية التي ترجمت عنها إلى العربية، ويكتبون برج كذا بدل شهر كذا، وهم يحتفلون بأول السنة وهو أول يوم في الربيع ويسمونه النيروز (نو معناها جديد وروز يوم)، وفيه تُعطَّل الأعمال ومصالح الدولة أسبوعًا، ويظل الاحتفال في البلاد نحو عشرين يومًا ويرعاه المسلمون والزرادشتيون، ويرجعونه إلى عهد جمشيد الأكبر الذي حكم قبل الطوفان، ويقولون عن

كبار الحكام في «إسلام قلعة» يشرفون على تفتيش متاعنا على حدود أفغانستان.

هذا الملك: إنه عاش سبعمائة عام، وفي السنة الأخيرة من عمره بلغ قوة الآلهة فأرسل صورًا منه ونصبًا له في جميع الجهات ليعبدها القوم، وفي العيد يلبس الناس زينتهم ويرون قصص زهراب ورستم وكوش على مسمع من الأطفال. أما شهرا محرم وصفر فأيام حداد لا يدار فيها لهو ولا موسيقى، ويحيون لياليها بجلسات الحداد يستمعون لقصص علي والحسين وهم يبكون، وغالب البيوت تراعي ذلك ليلة الجمعة من كل أسبوع حتى في غير هذين الشهرين وفي يوم عاشوراء (العاشر من محرم) تقام حفلات في البلاد كلها لمأساة الحسين، فتقرع الطبول وترفع المشاعل، ويسير الجماهير ويضربون صدورهم وجباههم بالسيوف والسلاسل، وإذا سار الموكب جيء ببعض الخيل وأُلبست أردية بيضًا، وجواد الحسين عليه ثوب خُضِّب بالدماء تخترقه السهام ومن خلفه الحسين والعباس وباقي أفراد العائلة المقدسة على الخيل في كامل أسلحتهم، ومن ورائهم الناس في أردية خضراء ويلي ذلك هودج يمثل حجرة الزواج لقاسم الذي كان زفافه ليلة الفاجعة، وكان عبد الله رضيعًا لذلك يحمل في مهده وحوله أطفال يركبون الخيل، وبعد ذلك جماهير حملة السيوف والسلاسل، ثم من ورائهم «شمر» اللعين الذي قتل الحسين ومعه أتباعه في أردية حمراء، وتنتهي الحفلة بتمثيل موقعة كربلاء والقتال بين الفريقين، ثم تحمل جثة الحسين والعباس وعبد الله وغيرهم وأيديهم وأرجلهم مطلة من ثيابهم تقطر دمًا

وترفرف على جثة الحسين حمامتان مخضبتان بدم، وتقول خرافاتهم: إن الحمام هوى على جثة الحسين يبكي فتخضبت أرجله بالدم ولبس الحداد في رقابه ولذلك نرى أرجل الحمام حمراء ورقابه يطوقها السواد، وإلى جانب الجثة تسير فتاة تمثل بنت الحسين وقد نفشت شعرها ولطخته بالعشب والوحل، وكثير من المشيعين يحملون يدًا مبسوطة هي شعار الشيعة؛ لأن يد العباس قُطعت وسقطت مبسوطة على الأرض — لذلك كثيرًا ما كنت أرى من المتسولين المشعوذين في فارس يحملون يدًا من صفيح على عصا طويلة يستجدون بها — ويحمل رجل عصا من حديد تتدلى منها أشرطة من قماش تمثل لسان «شمر اللعين»، وقد مزق كل ممزق، وكل من قطع واحدًا منها باركه الله وأجاب سؤله، وكثيرًا ما يمثلون الفاجعة برواية تعرض على المسارح ويحضرها الأطفال جميعًا.

أعجب ما في التركمان تلك القلنسوة من جدائل الوبر والصوف، وكانوا خطرًا على الأمن في طريق إيران وأفغانستان الوعرة.

من خراسان إلى الأفغان

اعتزمت زيارة بلاد الأفغان رغم ما سمعت هناك عن وحشيتها وافتقارها للنظام والأمن، وكأن الظروف جميعها تضافرت على تعطيلي، فقد لبثت أربعة أيام وأنا أنتظر قيام سيارة إلى هيرات، وكل يوم يرجئني صاحب «الجراج» إلى الغد حتى كان مساء الجمعة آخر ميعاد، وعنده رجاني أن أظل حتى الصباح ثم جئت في الصباح أخاطبه تليفونيًّا فقال: عصرًا نقوم، فاحمل متاعك إلينا في الرابعة مساء، فكان ذلك. وهناك استبقاني حتى يكمل عدد المسافرين، وظل ذلك إلى ما بعد العشاء، ولما هممنا بالركوب اختلف أحدهم وهو أفغاني وأصر أن يجلس إلى جانب السائق، وهو المكان المعد لي وله أجره الزائد، وظلت المناقشات والمحاورات إلى العاشرة مساء فغضب الرجل وأضرب عن السفر فقالوا: تعالَ صباحًا، فعدت إلى النزل وآويت ليلتي، وفي الصباح لم يكن النزاع قد فُض، فعرضوا عليَّ أن أسترد نقودي لأن الرجل يصر على الانسحاب هو وسبعة من صحبه، فقلت: هل هذا مقدار محافظتكم على عهودكم؟ أهكذا تعاملون ضيفًا تعطل نحو أسبوع انتظارًا لسيارتكم! فأخذت السائق الحماسة وقال: إنني أوثر أن أقوم براكب واحد مثلك على كل أولئك، وأخيرًا اتفقنا أن نُحشَر نحن الاثنين إلى جوار السائق رغم أن الرجل كبير الجثة عملاق القامة. تحركنا التاسعة ونصف صباحًا والمسافة كلها فوق ستين فرسخًا؛ أي ما يقرب من أربعمائة كيلومتر قطعنا ثلثها إلى الرابعة مساء حين وقفنا نستريح في مسافرخانة بدوية صغيرة بها حجرات مختنقة من طين أمامها بستان غير مشذب، ولم نجد من الطعام إلا الخبز الأسود السميك والبيض المقلي والشمام، فأكلنا أكلًا شهيًّا لأن الجوع والإعياء كانا قد أخذا منَّا مأخذًا. بعد ساعتين قلت: هلم نستأنف السير، فقال السائق: سنقف ساعة أخرى نصلح خلالها بعض ما في السيارة، وتلك الساعة أسفرت عن ثمانٍ كاملات أمضيناها في هذا المكان الموحش، فقلت في نفسي: ما الذي دفع بي إلى هذا المسلك الوعر الممل! وما لي وبلاد الأفغان التي يقصُّون عن همجيتها ما يثبط العزم ويصرف المسافر عنها؟! لكن عدت فقلت في نفسي: وهل اللذة إلا في مغالبة ذلك وتحقيق غايتي التي وضعتها نصب عيني، وهي أن أزور بلاد الأرض ما استطعت، وهل المرء في الدنيا إلا مجاهد يحاول إصابة هدف جعله قبلته، فإن وُفِّق أرضى ثورة النفس وإلا فالخير قصد، سأمضي مهما كان الطريق وعرًا مخوفًا. قطعنا مرحلة أخرى إلى الفجر حين اضطرنا التعب أن نأوي إلى خان خرب نمنا فيه على الأرض؛ حيث لم يكن ثمة فراش، وفي الصباح لم نجد ما نسد به رمقنا غير خبز قفار أسود سميك وشاي يعلم الله مبلغ ما حوى من أتربة وأقذار، وقبيل الظهر كنا

في الجمرك الإيراني في قرية كاريز، هنا تجلى إهمال الموظفين وبطؤهم المسم في فحص متاعنا، ثم جاءت الثانية بعد الظهر فذهب الرئيس للنوم تاركًا إيانا في مكان قفر ليس به ما يقي وهج الشمس ولا غبرة الجو، ولم تمضِ الجوازات إلا عند الغروب، وكان يطالب القوم بنقود وهم يرجونه تخفيفها، وأخيرًا قبض منا ما تيسر ضريبة غير مشروعة عيانًا.

بعد ذلك تهامس السائق وبعض الركاب قائلين بأن الأفضل إمضاء الليل هنا، فثرت محتجًّا وقلت كفى إبطاءً وعطلًا، فالمسافة كلها كان مقدرًا لها يومان، وها قد مضى اليومان وبقي فوق ثلث الطريق، قالوا: إننا سنقضي الليل في غير طائل على الحدود الأفغانية، وهي أمعن في الجدب والوحشة وسوء المعاملة، فأمضينا ليلتنا في ذاك المكان القفر، ورجوت صاحب الخان أن يمدني بفراش على «مسطبة» في الشارع؛ لأن داخل الخان قذر لا يطاق، ففعل ونمت نومًا عميقًا، وفي باكورة الصباح قمنا إلى الحدود الأفغانية في إسلام قلعة.

أفغانستان

أرض الجبال

إسلام قلعة

وصلنا الحدود في ساعتين عندها مخفر فارسي أبرزنا له جوازاتنا ولم تمضَ إلا بعد أن عززناها بقروشنا، ثم دخلنا القلعة وإذا اسمها أكبر منها، وهي عبارة عن بناء كبير خرب أقيم من الآجر، كنت أخال حولها مدينة، فإذا بها تقوم وسط صحراء مجدبة يكسو أرضها الحامول والعاقول والهالوك اليابس، وقد كانت من قبل تسمى «كافر قلعة» يوم كانت ملكًا لفارس، وكانوا يطلقون عليها ذاك الاسم لاعتقادهم أن الشيعة من الفرس كفار، ولما أن ضمها ملك الأفغان السابق «أمان الله خان» لبلاده أسماها «إسلام قلعة». وقفنا وسط تلك الصحراء أو الداشت كما يسمونها أمام مدخل القلعة، وكان يتقدمها بعض الجنود في سراويلهم الفضفاضة تكسوها إلى الركبتين جلابيب طويلة، وعمائمهم الطويلة في شال ممدود تترك منه ذوائبه خلفية هادلة إلى العجز. طلبت لقاء رئيس القلعة، فدخلت إليه في غرفة تفرش بالبسط وهو ووكيله جلوس على الأرض فسلمته خطاب التوصية الذي حملته من سفارتهم في طهران، بعد أن عاونتني في ذلك مفوضيتنا العامرة هناك، فأشار أن أجلس وأشرب الشاي. والرئيس ذو وجه مقطب وسحنة غاضبة أُمِّيٌّ لا يعرف القراءة؛ لذلك ناول الكتاب لوكيله الذي أطلعه على ما فيه. طاف الغلام علينا بأقداح الشاي الأخضر وناول كلًّا منا بعض فتات السكر في أيدينا كي نلقي بقطعه في أفواهنا ونشرب وراءها الشاي، وكلما فرغ القدح عاد فملأه لنا جميعًا، رغم أني كنت أشير بأني اكتفيت ولا أستطيع المزيد، فكرر

ذلك إلى القدح السادس، وهنا أضربت عن تناوله، فبدت عليهم علامات التأثر، وعلمت بعد من السائق أن من الواجب عليَّ أن أبقي في القدح بعض الشاي، ثم أنكسه بما فيه فوق الطبق علامة الاكتفاء. نزلنا لفحص الأمتعة فأقبل جمع من الموظفين والرقباء بعمائمهم المنتفخة وأحذيتهم الملتوية في ذؤابات رفيعة ومقوسة أمام الحذاء وخلفه، وجلس الجمع على الأرض وبيد كلٍّ ورقة، ثم أخذ الجند يحملون المتاع من السيارة قطعة قطعة ويفتشونها بكل دقة وبطء، وكلما وجدوا شيئًا غريبًا أو جديدًا أمسكوا به وأداروه عليهم جميعًا، وأخذوا يقصُّون حوله الأقاصيص في بطء عجيب، حتى إنَّا لم نفرغ من هذا العمل إلا بعد ثلاث ساعات. قلت: هلم فقد تم كل شيء. قالوا: إنا ننتظر الجوازات ولبثنا على تلك الحال النهار كله إلى الرابعة مساء، وخلال كل ذلك كان يُطالَب المسافرون بنقود دفعوها أربع مرات لأشخاص مختلفين، والجدل والمساومة والممانعة في تسليم الجوازات كانت علانية. وكلما وجد جنودهم شيئًا يروقهم من متاع المسافرين أخذوه ثم تكون مجادلة بين الجندي وصاحب المتاع حتى يتفقا، وقد أعجب جنديًّا إبريق من نحاس لكن صاحبه استعاده وهو غاضب، ولما وضعه في السيارة وأوشكت أن تستأنف السير أقبل الجندي خلسة وأخذه دون أن يعلم صاحبه. كل ذلك ولم يكن لديَّ طعام فأمضني الجوع حتى رجوت جنديًّا أن يجهز طعامًا من البيض والخبز والشمام، فكان شهيًّا رغم ما كان يسوده من حصى وقش ورمال. قمنا نشق طريقنا الوعر الرديء وسط تلك البادية، وبعد ساعة استوقفنا جمع من الناس غفير يريدون مكانًا في السيارة لأحد «الملاه» رؤساء الدين. ولا يمكن رفض ذلك وإلا كان ما لا تحمد عقباه، فأخلى جاري مكانه للشيخ، وأخذ الجميع يتكاثرون على يديه تقبيلًا رغم شيخوخة الكثير منهم وطول لحاهم التي نال منها الشيب، و«الملاه» هناك هم المسيطرون على أذهان الناس، وهم أكبر مقامًا وأنفذ كلمة من الحكام أنفسهم، وكان كلما رآنا أحد في الطريق يحيي الشيخ ويظهر له الخضوع والإجلال، وقد كنت أتفاهم مع الشيخ بصعوبة وهو من عائلة «المجددي». وطبقة «الملاه» يكادون يقسمون البلاد، فلكلٍّ ناحيته التي يطوف عليها بين آن وآخر ليقوي علاقاته بالناس، ويتقاضى حقوقه الواجبة عليهم قِبله. لبثنا نسير في تلك السهول الصحراوية تحفها على بعد سلاسل جبلية وطيئة، ولم يتغير المنظر منذ خروجنا من مشهد، إذ غالب أرضه مهملة مبسوطة، وحيثما يظهر الماء القليل تقوم القرى الصغيرة، وكثير منها بالطين في صفوف من الأقبية «كالقطاطي»، وكثير من سقوف الأفغان مسطحة، وقد مررنا بقرية جل أهلها من مهاجري التركستان الروسية هروبًا من جور الروس، وكان رجالهم وصبيتهم يحاولون التفاهم بصعوبة؛ لأنهم يتكلمون الروسية فقط. كانت التاسعة مساء وبينا نحن نتحدث عما بقي من المسافة إلى

هيرات مبتهجين؛ لأنها لا تجاوز الساعة الواحدة، وإذا بالسيارة تقف فجأة والسائق يعلن نفاد البنزين، فكدنا نصعق لأن الوقت ليل بهيم والمكان مقفر مخيف، والجو عاصف مترب كادت الريح أن تقلب السيارة على ثقلها — وشهور آخر الصيف وأوائل الخريف ريحها هناك شمالية عاصفة لا تكاد تحتمل في بلاد الأفغان جميعها — لبثنا الليل كله ولم أنتقل من مكاني بالسيارة وصفير الريح وشدة البرد وكثرة التراب لا تحتمل، وزادها ضغثًا أن زجاج نافذة السيارة كان مكسورًا وأني كنت جائعًا خاوي البطن؛ لأني كنت أتوقع تناول العشاء في هيرات. أرأيت كيف يتعرض المسافر في تلك البلاد للأخطار وضياع الوقت؟ يعتزم السفر والعودة في ميعاد محدود، ويؤكد القوم ذلك، وإذا بالساعة عندهم يوم واليوم شهر، ويُخيَّل إليَّ أن وسائل النقل الرديئة هناك هي التي ولدت فيهم عدم احترام الميعاد أو تقدير قيمة الزمن، ترى السائق منهم وأنت تستعجله السير يلاقي زميلًا له في الطريق فيقف وتبدأ السير والأقاصيص بينهما، وهو لا يقدر مسئولية قط يقف بسيارته حيث كان وسط القفر من سهل وحزن، غير أن تلك الوسائل على إبطائها الممض اليوم خير من الإبل والحمير والبغال التي كانت تقطع تلك المسافات في شهور، وكنا نمر بها في سيرها الوئيد ليلًا ونهارًا في قاطرات طويلة تحمل المتاجر وتتدلى من رقابها أجراس ثقيلة لتنبه عن وجودها. أخيرًا قُدِّر لنا أن نصل هيرات صباحًا، وقد مرت بنا سيارة صغيرة حملت إلينا ما أعوزنا من بنزين فإذا هيرات (أو هرات) بلدة حقيرة على عظيم امتدادها في حضن جبل يكاد يطوِّقها وتحفها المزارع الممدودة، مبانيها باللبن وطرقها مختنقة وفي غير نظام، اللهم إلا بيوتات علية القوم التي أقيمت من الآجر الأبيض والأصفر، وشارعان متعامدان حديثان صفت عليهما الحوانيت الجديدة من بقايا ما خلفه الملك السابق «أمان الله خان» لما أن حاول الإصلاح. أما عن التراب والأوساخ فحدِّث، فهي أكداس في كل مكان، وأظهر ما في المدينة بقايا مسجد قديم بقبابه ومآذنه السبع التي كانت تكسى بالقيشاني الملون الجميل إلى أعلى ذراها، بدت مشرفة ونحن على بعد أميال من البلدة. بحثت عن نزل آوي إليه فعلمت أن ليس هناك من أمكنة معدة للنوم قط، حتى ولا مسافرخانات، فحرت في أمري وقلت لصاحب «الجراج» أليس لديك مكان أنام فيه؟ قال «ناخير» أي كلا، اقصد إلى أحد علية القوم ليضيِّفك عنده في داره قلت ألا توجد مطاعم عندكم؟ فقادني إلى المطعم الوحيد الذي لم يمضِ على وجوده في البلدة شهران، فأكلت فيه ثم رجوت صاحبه أن يعد لي فراشًا بسيطًا لديه فقال: «انجا أغاخوب نيست»؛ أي لا يليق هذا المكان، قلت هو خير من لا شيء، فزوَّدني ببساطين (سجادتين)، واحد افترشته عند مدخل المطعم والثاني التحفت

به واستخدمت حقيبتي وسادة، ولم يكن للمدخل باب يحجبه عن الشارع، فكنت كأني أنام في الطريق، وكم من مرة كنت أنظر فأرى جمعًا من الناس يقفون وهم يرمقونني وأنا أقرأ أو أكتب جالسًا أو مضطجعًا، وبعد يومين علمت أن الرجل قد أقام غرفًا في أعلى المطعم لم يكمل بناؤها، فرجوته أن أنام في إحداها ولما تكن قد سقفت وحولها أكداس الطوب وأنقاض البناء، فآثرتها على مكاني عند مدخل المطعم. وهيرات هذه ثانية مدن الأفغان بعد كابل، وقد علمت أن كابل نفسها وهي عاصمة البلاد ليس بها إلا نزل صغير واحد، أما قندهار ثالثة المدن فهي شبيهة بهيرات تمامًا. بلاد لا تزال في معزل عن العالم الخارجي في كل شيء، تعيش على الفطرة التي لم تفسدها المدنية في زعمهم.

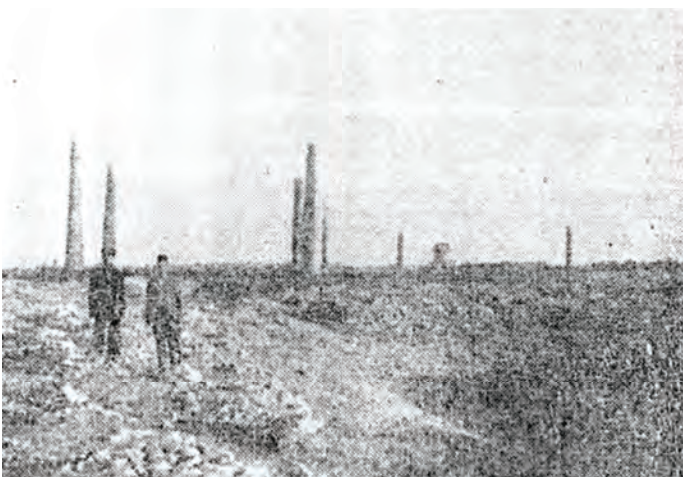

تلك القبة والمآذن السبع بقايا مساجد العباسيين في مدخل هيرات.

تناولت العشاء وأغرب شيء فيه أن الأرز يقوم مقام الخبز تدفن فيه قطع اللحم «الجوشت» وإلى جانبه بعض الباذنجان يسبح في الزيت «أو الروغان» كما يسمونه. سألت الخادم وكان اسمه «أفغان» أن يقودني إلى المراحيض وسرت وراءه حتى جاء خرابة مكشوفة على جانب الطريق، وقال «أنجا» أي هنا، قلت: كلا فأنا أريد مستراحًا، فعلمت أن ليس لذلك وجود يقيمون أبنيتهم ويغفلون هذا اتكالًا على الخلوات والأمكنة الخربة

وسطوح المنازل، وهذه حالهم في جل بيوتهم إلا النادر، وفي الصباح أردت الاستحمام فقيل لي اذهب إلى الحمام، وهم هناك وفي فارس كلها لا يقيمون حمامات في البيوت مهما عظم شأنها ارتكانًا على الحمامات العامة التي لا يطمئن المرء إلى نظافتها وطهارتها أبدًا، على أنهم في فارس يستعيضون عنها بحوض الماء الذي يتوسط فناء الدار، أما في الأفغان فليس لذلك من وجود؛ لأن الماء شحيح ومستمده الآبار العميقة، طفت بأرجاء البلدة وراقتني قلعتها المشرفة التي يحتلها الجيش في هندامه المرقع، ومنها أوغلت في أسواق المدينة «بازار» وهي ضيقة مغلقة مظلمة، لكنها بالغة الطول غاصة بالمتاجر، وهيرات أشهر بلاد الأفغان كلها في التجارة.

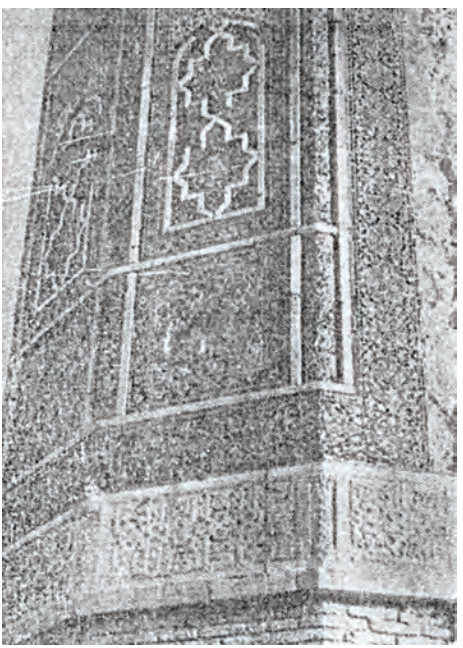

تكسى المآذن القديمة في هيرات بذاك الإبداع الفني من القيشاني رائع الألونة.

والنساء هناك محجبات لدرجة مبالغ فيها، فالإزار الخارجي يحكي «الكيس» قد زر عند الرأس، بحيث يلبس فيها وهو فضفاض من أسفله، وأمام العينين قطعة منه مثقبة

بخروق للنظر والتنفس، وتحت الإزار سروال أسود سميك يتدلى إلى الحذاء، ويربط فيه فترى السيدة تمشي وهي تدب دبيبًا في كتلة واحدة تسترعي النظر، وبقدر ما رأينا من إباحة الفرس كانت الرجعية هنا في أشدها، وغالب القوم هنا سنيون يمقتون الشيعة وتصرفاتهم، ورغم أن الحكومة اليوم تشجع لباسًا للرأس جديدًا كأنه قلنسوة يكسوها وبر وجديل أسود، فإنك لا ترى واحدًا في المائة ممن يلبسونها، وكلهم يلبس العمائم ذوات الذؤابات الطويلة والأحذية العتيقة، تنتهي بذؤابتين طويلتين معقوفتين، حتى الأغنياء منهم؛ لذلك لم أعجب للانقلاب السياسي الذي حدث وطردوا من أجله الملك السابق أمان الله خان، فهو لم يفهم قومه قط، إذ كيف ساغ له أن يُلبِسهم القبعات ويرغمهم على السفور وما إلى ذلك مما أتاه مصطفى كمال، ويحاوله اليوم رضا خان بهلوي؟ هم لا يؤمنون إلا بتقاليدهم ويتمسكون بدينهم في إيمان شديد، ويكاد يحكم البلاد جماعة «الملاه» الذين يجب على الحكومة إرضاؤهم قبل الشروع في إنفاذ شيء جديد.

ولم أكد أرى أجنبيًا واحدًا بينهم ولا غير مسلم؛ ولذلك كانوا يرمقونني أينما سرت في شيء من الريب ويسألونني «مسلمان»، فأسرع بالإجابة «بلى»، وسوادهم أميٌّ وفي جهل عميق، وغالبهم يتكلمون بالفارسية، وقد ظهر لي أن جل ثقافة المتعلمين منهم فارسية، يجيدون كتابتها ويروون أشعارها وآدابها، وقد نقلوا جل آدابهم عن فارس، وفي مدارسهم الساذجة يقرأ الصبية الأدب الفارسي إجباريًّا، وتكاد تكون اللغة السائدة في الطرقات هي الفارسية، وكثير منهم يتكلمون الهندوستانية، ولغتهم خليط من الفارسية والهندية؛ لذلك كنت أتلمس فيها ألفاظًا عربية كثيرة كانت هي وما عرفته من الفارسية عونًا لي على التفاهم بعض الشيء، والأفغانية الصحيحة يتكلمها أهل قندهار فقط، أما في هيرات وكابل فالفارسية والهندية. وموسيقاهم خليط من الفارسية والهندية أيضًا في نغمات سائغة لآذاننا على أنها بدوية، والغناء أميل إلى الصياح المرتفع، وأحب الآلات الطنبور وآلة أخرى أضخم منه يسمونها «مادام».

والحالة الاجتماعية تثير الدهشة، فرغم الحجاب الذي يحوط المرأة فإن الفساد منتشر سرًّا، والأمراض السرية شائعة، والعجيب أن ذلك يقع رغم إقامة الحدود، فالزاني إذا ثبتت جريمته بشهادة ثلاثة شهود، أو واحد يزكيه اثنان محترمان، أُلقي علانية من فوق قلعة البلدة إلى الأحجار المتراكمة من دونها مسافة لا تقل عن خمسة وعشرين مترًا، ويغلب أن يموت، والزانية توضع في كيس يحوطه الجند ويؤمر المارة برجمها إلى أن تموت. واليوم كان موعد قصاص ثلاثة من اللصوص ثبتت عليهم جريمة السرقة، فأُحضروا إلى السوق،

على ضريح الفخر الرازي من أكبر مفسري القرآن في هيرات.

وكان قد أعلن منادٍ ذلك في المدينة، ونُفذ فيهم قصاص قطع اليد، فتقدم رجل البوليس ولف حبلًا حول ساعد الرجل وضغط الرسغ بين عضادتين من خشب كي يمنع سيل الدم، ثم أمسك رجل البوليس بيد الجاني، وأتى الجلاد بالسلاح الحاد، ثم شرع يقطع الجلد والعروق في احتراس وبطء شديد، أعقب ذلك ضربة قوية بآلة ثقيلة من حديد، فانفصلت اليد بعيدًا ثم غمر الجرح على الفور في زيت (روغان) يضطرب غليانًا، وقد نُفذ ذلك في ثلاثة أشخاص وهم في تألم شديد، ونُقلوا بعد إلى مستشفى البلدة البسيط حتى تلتئم جراحهم، وقد حاولت أخذ صورة لذلك، فأبدى القوم امتعاضهم، فامتنعت واعتذرت لهم، وكان يزاملني الدكتور باشفتس الألماني. والعادة أن السارق لأول مرة يسجن، وإذا تكررت قُطعت يده ثم رجله، والذي يحكم بذلك «المولاه» وهو مفتي الحكومة، وطبقة العلماء هم القوَّام على القانون في تلك البلاد، وقد شاهدت رئيس الشرطة ونحن في مجلسه مرة يسأل

الألماني عما يفعلون لمنع الفساد فوق ما هم فاعلون اليوم، فقال بأن شيئًا من الحرية والتسامح في الأحكام خير وأجدى! وقد اقترح إباحة البغاء الرسمي في مناطق معينة وهو هناك لا يباح قط.

الخبز يُعرض في سوق هيرات وكأنه ألواح حجرية مثقبة.

وسرني ما لاحظته هناك من عدم وجود التسول رغم فقر البلاد وعوز أهلها، مما أشعرني بأن في نفوسهم شيئًا يأبى عليه الاستجداء، عكس ما لاقيته في فارس التي يرى الإنسان فيها من أمر المتسولين وكثرتهم عجبًا، والحكومة الأفغانية تحرم التسول، وقد أعدت «دار أيتام» في البلدة يأوي إليها العجزة والمعوزون، وهناك مستشفيان أحدهما عسكري والآخر مدني لعلاج المرضى وإيوائهم مجانًا، وتلك فضيلة أخرى. ويلحظ الزائر

الفرق الشاسع في أجسام الناس في تلك البلاد، فهي ممتلئة تبدو عليها علائم القوة والصحة عكس أبناء فارس النحال الهزال من سوء التغذية والإسراف في المسكرات والأفيون والغانيات؛ ولأن كثيرًا منهم من اللقطاء الذين أهملتهم أمهاتهم من زواج المتعة فشبوا مفتقرين إلى الرعاية الصحية والتغذية الوافية.

زرت يومًا أحد سراة القوم وهو مختار زادة من أكبر تجار هيرات، وكان معي له خطاب توصية من بعض خلَّانه في مشهد، فدخلت داره وإذا مدخلها من السوق صغير لا يشعر بعظمة، لكني ألفيتها من داخلها فاخرة، قسم الحريم منعزل في الداخل، والجزء الظاهر (وهو المضيفة) أعد بالبسط الثمينة والحشيات والتكات، ويتوسط كل حجرة مصباح في طول قامة الرجل يوقد بزيت البترول، وقد استقبلني بعض ذويه، وشربت شايهم الممتع، ولبثت أنتظر حضور صاحب الدار نحو ساعتين فلم يحضر، فقمت وشكرتهم وتركت لهم خطاب التوصية، وأفهمتهم منزلي من المطعم السابق ذكره، وكنت أنتظر من كرمه الذي سمعت عنه أن يزورني في مكاني فلم يفعل ذلك، فقلت في نفسي وأنا آسف أن زرته: هل يقع مثل ذلك في مصر وهل يجيزه الكرم المصري؟ وخُيِّل إليَّ أن الكرم الذي سمعته عن ذاك الرجل لا بد أن يكون كرمًا نفعيًّا يختص به عملاءه ومن لهم قِبله مصالح مادية، وهيرات محط أغنى المولين في إيران لأنها أكبر المحاط التجارية، وحولها مزارع غنية وأرض خصبة وماء وفير، وخير ما تصدِّره القطن والأفيون والرعي والفستق والجوز واللوز والبندق، على أن افتقار البلاد للتعليم ورءوس الأموال لم يمكِّنهم من استغلال أرضهم. ويخضع لولاية هيرات نحو مليونين من مجموع سكان الأفغان البالغ عددهم ستة ملايين، ووحدة النقود الأفغانية «القران الأفغاني»، وكان يعادل القران الفارسي، سُكَّ من معدن خفيف كأنه الألمنيوم الممزوج بالنحاس في لون أغبر قذر، وهو أكبر أنواع النقود، ولا يزيد حجمه على القرش عندنا، وله كسوره النحاسية الكبيرة، وليس في البلاد نقود ورقية (بنكنوت) قط لأنهم يجرمون إقامة المصارف، فالتعامل التجاري كله بالقران، فالتاجر يقبض دينه أو ثمن بضاعته منه مهما كثرت؛ لذلك ترى كلًّا منهم يحمل آخر اليوم أكياسًا ثقيلة كبيرة يكاد ينوء الواحد بحملها، وترى كلًّا ينتحي جانبًا ويكدس النقود بجواره ويشرع في عدها ويستغرق في ذلك زمنًا. وكان سائق السيارة التي ركبتها عائدًا إلى فارس يحمل كراءه من القرانات في أكياس ثقيلة، أعني خمسة عشر جنيهًا كلها من تلك النقود المعدنية، وكانت فوق ألف قطعة، وكم كان ارتباكي عظيمًا عندما دخلت فارس ولم يكن معي سوى ورق فارسي قيمته اثنا عشر جنيهًا، فلم يقبله مني أحد اللهم سوى جمهرة من صيارفة اليهود،

وقد تقاضوا عليه عمولة فاحشة، وهم لا يقبلون أي نوع آخر من النقود أو الورق، أما الشيكات التي كانت معي فلم أستفد بها هناك قط؛ لذلك اقترضت من السائق ما احتجت إليه فوق ما معي من نقودهم، على أن أردها إليه في فارس، وقد أودعت معه بعض الشيكات رهينة حتى صرفتها في مشهد وأعطيته حقه.

قاعة هيرات ومن فوقها يلقى بالزاني إلى هوة وراءها.

ويظهر لمن يزورها لأول وهلة أنها بلدة قديمة أثرية بناها الإسكندر المقدوني على نهر آريوس الصغير المعروف بنهر هراة أو هرى، وسماها آرية باسم النهر والإسكندرية باسمه، وقد فتحها الأحنف بن قيس في خلافة عمر، وأظهر ما يُرى فيها أطلال سورها القديم وقلعتها المشرفة وبقايا مسجدين فاخرين تقوم منائرهما السبع وإحدى القباب يغشاها جميعًا القيشاني في لون اللازورد والفيروز وفي أشكال هندسية، وقد بناها هارون الرشيد، وفي البلدة مدافن لكثير من أولياء الإسلام وعلمائه، أذكر من بينهم الفخر الرازي وعبد الرحمن الجامي وعبد الله الأنصاري والحجة عبد الله المصري، ويقصُّون عن كراماته أن ماء البئر التي في مدفنه يرد من مصر، ويقولون: إن الأولياء الذين يدفنون حول أولئك اثنا عشر ألفًا؛ لذلك تُسمَّى هيرات عندهم بلدة الأولياء، وقد زرت كثيرًا منها وغالبها متهدم، ولعل أفخرها مدفن الأنصاري المؤرخ في ٨٥٩هـ، فهو وسط مسجد فاخر حول فنائه مجموعة من

الأولياء وبه مدرسة لحفظ القرآن ووقفت بقبر الفخر الرازي طويلًا وهو من كبار مفسري القرآن الكريم وصاحب كتاب مفاتيح الغيب. وكل تلك المدافن في حجر الجبل وحولهم المزارع والأشجار، وفي مواسم خاصة يحج الناس إليهم وينامون في أماكن أعدت لذلك.

وفي المدينة بعض المنشآت التي اختطها الملك السالف أمان الله في شوارع فسيحة أقيمت على جوانبها المباني المتشابهة من الآجر الأصفر الكبير يتوسطها بعض الشجر والزهر، لكني ألفيت غالبها متهدمًا من يد الثوار، فقد كان ذلك الملك مصلحًا طموحًا إلى رفع شأن بلاده، وكان في أخريات حكمه ينقل نظمه كلها عن تركيا وألمانيا، ويجاهر بالنفور من الأجانب وبخاصة الإنجليز؛ لأنه علم بمدى مطامعهم في بلاده المجانبة للهند، لكن أولئك انتهزوا فرصة غيابه في رحلته وبثُّوا الدعوة ضده، وقام «لورنس» يهب الأموال للعشائر ويشوه سمعة الملك، وأنه أضحى ملحدًا يريد الاعتداء على الدين كما فعل مصطفى كمال في تركيا، بدليل أنه يريد نشر القبعات واختلاط السيدات بالرجال ومخاصرتهم إياهن، ونشر بعض صور للملك وزوجته يرقصان وسط الرجال في مراقص أوروبا، حتى قالوا: إن المال الذي أنفق في سبيل ذلك مليون ونصف مليون جنيه، وكان أمان الله قد نقل كثيرًا من العادات والأزياء الأوروبية حتى لبس كثير من أهل هيرات الأردية الإفرنجية، وظهرت القبعات فاهتاج الشعب الساذج، وقام بالثورة وحطم كل ما أقامه أمان الله من إصلاح حتى آلات توليد الكهرباء التي رأيناها محطمة هي والأسلاك التي مُدَّت في أرجاء المدينة، على أني كنت أسمع من الكثير نغمة الندم على ما فعلوا؛ لأنهم أدركوا مبلغ وطنيته، ولاحظوا مدى بسط النفوذ الأجنبي اليوم وإن كان خفيًّا. وكان يتفقد جنده بنفسه ويوصيهم بقوله: اعملوا لوطنكم أولًا ثم لدينكم ثانيًا ثم لأنفسكم، وكان ذلك مما أهاج عليه المولاه رجال الدين؛ لأنهم فهموا أنه يريد القضاء على شعوذتهم كما فعل مصطفى كمال.

وكان يسترعي نظري كثرة السحن الصينية وأولئك من التركمان، إذ إن جزءًا من التركستان داخل في حدود الأفغان، وتركستان الروسية على مسيرة أربع ساعات من هيرات فقط، وهؤلاء يتكلمون لغة خاصة، وأعجب ما في لباسهم غطاء الرأس فهو للرجال كرة هائلة من الوبر أو الصوف الأسود المنفوش، وللنساء شبه أسطوانة كبيرة القطر لكن ارتفاعها لا يعدو عشرة سنتيمترات تُكسَى بالقماش الملون. والأفغانيون طيبو القلب إلا أنهم على شيء من الجفاء في الحديث والخشونة في اللفظ، وغالبهم سذج لا يزالون على فطرتهم، ويبدو افتقار البلاد إلى المال من بساطة دور الحكومة وما فيها من أثاث لا يكاد يعدو البسط تفرش، ويجلسون عليها في جلابيبهم وأمام مدخلها الأحذية الغريبة تراها

حول باب قندهار أجمل البوابات الخمس لهيرات والأسوار من الطين وعلوها خمسة عشر مترًا.

تصف في شكلها البدوي، وبعضها لعلية القوم ملونة مزركشة «بالقصب»، كذلك رجال البوليس والجيش فهندامهم مختلف، بعضهم بالجلابيب والبعض بالحلل المهلهلة، وعلى رءوسهم قبعات فطساء من أمام ومن خلاف، وفي قبعة الضباط ذؤابة من جدائل لامعة تتدلى إلى اليمين من وجوههم، وقد زرت رفقة صديقي الألماني رئيس الشئون الخارجية (مأموريتي خارجي)، ويجب على كل زائر أن يمر عليه ليتسلم منه جواز السفر مؤشَّرًا عليه منه، وإلا لا يسمح له بالخروج، وهم هناك كثيرو الشك في الوافدين والراحلين، تسلموا الجواز مني بمجرد دخول السيارة البلدة، وحفظوه في «النظمية»، وعند السفر كان لا بد من الذهاب لتسلمه من رئيس الخارجية، هناك قدمت خطاب التوصية فأحسن استقبالنا وشربنا الشاي، وبعد القدح الثاني نكسته في الطبق بعد أن أبقيت فيه جانبًا، فسألني رفيقي الألماني عن سبب ذلك فأفهمته، ففعل مثلي، وبعد أن تسلمنا الجوازات ضرب المأمور معنا موعدًا أن يوافينا عصرًا لزيارة بعض أماكن هيرات بمعاونته، فشكرناه وانصرفنا، على أنه لم يفِ بوعده ولم يعتذر، فلم يرقنا منه ذلك رغم ثقافته ومكانته في بلاده.

لبثت أقيم على مضض مني في هيرات انتظارًا لسيارة، وفي كل يوم يؤكد لي صاحب «الجراج» أن السفر «فاردا» أي غدًا، وفي اليوم الخامس قمت صوب قندهار، وبعد مسيرة يوم في تلك الأرض الجبلية المقفرة تعطلت السيارة، ولم نقطع ثلث الطريق، وفهمت

أننا سنقف حيث نحن طويلًا، وإذا بسيارة راجعة إلى هيرات، وهي تنقل سلعًا تجارية، ففضلت أن أعود فيها؛ لأني خشيت فوات الوقت عليَّ، وفي هيرات مكثت يومين آخرين رفقة زميلي الألماني، وكنا نجول سويًّا ونجلس في المطعم نتناول الشاي، ومن حولنا بعض أهل البلدة، وقد بلغت بهم سذاجتهم أنهم كانوا كلما رأوا معنا شيئًا أحبوا أن يُهدَى إليهم وحتى الكوث (الشبشب) طلبه أحدهم مني وأصر على أخذه، وكانوا يسألوننا بعض صور السيدات فقط، فقدم لهم «پاسفتس» بعض صوره هو فرفضوا وقالوا: ما لنا وهذه نحن نريد صورًا لسيدات جميلات، وكانوا يشربون جميعًا «النرجيلة أو الشيشة»، وبعضهم يمضغ مسحوقًا أخضر من مركبات خمسة أو أكثر عرفت منها الطباق والجير والملح والزرنيخ، ويظلون يبصقون بشكل منفر بصاقًا أخضر كريهًا.

أما رفيقي پاسفتس فرجل واسع الاطلاع يتجول لحساب حكومته ويعمل على توطيد العلاقات بينها وبين البلاد التي يزورها، وهو يجيد عشر لغات، ومعه من الآلات الكاتبة وآلات التصوير الدقيقة شيء كثير، وقد قص عليَّ أنه كاد يفقد حياته لما أن دخل الحرم في مشهد ولم ينقذه من المسلمين إلا شهادة ابتاعها من أحد علماء طهران تقول بأنه مسلم، وتلك يعطيها عالم خاص هناك لكل من طلبها مهما كانت ديانته مقابل دفع عشرين تومانا (أي نحو جنيهين ونصف)، فأبرزها لهم وادَّعى أنه مسلم فعفوا عنه، والأفغانيون شديدو التعصب أيضًا، وقد حاول دخول مسجدهم الجامع في يوم الجمعة فأبوا عليه ذلك، وكان المسجد مكتظًّا بالمصلين وكانت جميع الأعمال معطلة؛ لأنهم يحترمون يوم الجمعة احترامًا كبيرًا.

قمت صباح ٢٩ أغسطس أتوقع خبرًا بالسفر من رب «الجراج» شأني في كل يوم، وقد نفد الصبر ومللت البقاء هناك، وإذا بسيارة كبيرة تقف أمام المطعم يناديني صاحبها، فاستبشرت وودَّعت الرفيق الألماني الذي كان ينتظر سيارة إلى كابل، وركبت برفقة وفد من المسافرين يقصدون مشهد، وفي طليعتهم «مولاه» أفغاني الأصل، لكنه يقيم الآن في مشهد، رجل وقور نال منه الشيب وأرسلت لحيته تحت فمه الكبير وأنفه المنتفخ الغليظ، وبعد أن قُرِئت الفواتح والدعوات وانهال الناس على يديه تقبيلًا تحركت السيارة بسم الله مجراها، وما كدنا نستغرق ثلاث ساعات حتى اعتراها عطب جوهري، وبعد محاولة فاشلة لإصلاحها استغرقت ساعة حمَّل السائق محور العجلتين (الأكس) رجلًا وكلَّفه أن يعود به إلى هيرات ماشيًا على الأقدام ليصلحه ويعود إلينا، وقد قرر الجميع أنه سيعود في «بنج ساعات فقط»، فقلت أيقطع الرجل في خمس ساعات ما قطعته السيارة في ست ذهابًا وإيابًا؛ مما أثبت لي عدم درايتهم بالزمن قط، ولبثنا ننتظر اليوم كله إلى الصباح أي نحو

بقايا منشآت «أمان الله خان» وإلى جانب أحد تلك الأبواب المفتحة أمضيت أسبوعًا كاملًا.

خمس عشرة ساعة. وكان وقوفنا هذه المرة في جوار رهط من البدو ضربوا خيامهم بجانب الطريق يجاورهم مجرى للماء، فأحاطوا بنا، وسرعان ما أحضروا خيمة أقاموها للنساء من ركبنا، ثم دعوا فريقًا منا لزيارة خيامهم، وكانت الداعية هي رئيسة القبيلة عجوز شمطاء قد أحنى ظهرها كر السنين، وقد بدا لنا أنها صاحبة الكلمة النافذة في كل من حولها. جلسنا وسط الخيام وكان عددها يناهز العشرين، أقيمت في شكل هلال، وأخذنا نسمع جلبة في داخلها وحركة اهتمام بأمرنا، وبعد قليل قُدمت لنا قصعة ملئت من فطير صب عليه المسلى في كثرة عافتها نفسي، وإلى جانب ذلك كثير من الرقاق وكعك أسمر تعوز كل أولئك النظافة، ولم تكد النفس تسيغ الأكل لولا أنه فُرض علينا، وكم تعثرت أسناني في الحصى والأوساخ، هذا إلى قذارة يد العجوز التي كنت أراها تكنس الأرض بها، وبين آونة وأخرى تمخط فيها، ثم أعدت لنا بعض الفطير بنفسها وقد تبين لنا أنهم فقراء مدقعون، فأدهشنا هذا الكرم الذي لا يفارق البدو حتى في بلاد الأفغان، وبعد أن أكلنا نحن الأضياف نُقل الإناء إلى العجوز جوارنا فأكلت منه قليلًا، ثم سلمت ما تخلف لرجال القبيلة فأكلوا جانبًا منه، وما بقي بعد ذلك حُمل إلى النساء داخل الخيام. وأكثر من ثلث سكان الأفغان من هذا الفريق المتنقل الذين يرحلون بقطعانهم من الإبل والحمير والخيل والأغنام، وقد هجمت تلك علينا ونحن نأكل عند الغروب حين وفدت من مرعاها فكانت كأنها أليفة مستأنسة

يقرب البعير برأسه حول وجوهنا كأنه يقبلنا وكأنه ورث الكرم عن سادته. رجعنا إلى سيارتنا وكانت الريح الشمالية تعصف في شدة مؤلمة، فلبثت داخلها أرتعد من البرد الليل كله، أما سائر المسافرين فلديهم فراشهم، وهم يتوقعون ذاك العطل دائمًا؛ ولذلك تجدهم لا يهتمون لشيء قط، ويقابلون كل حادث بصبر عجيب. استأنفنا السير وسط تلك المتسعات شبه الصحراوية حتى وصلنا إسلام قلعة، وتعطلنا خمس ساعات بسبب تلكؤ الموظفين، وذلك أمر ألفناه من قبل، ثم جزنا الحدود الفارسية، وفي كاريز فُتشت أمتعتنا وواصلنا السير حتى خيم الظلام، فاضطررنا للوقوف حيث كنا لإمضاء الليل؛ لأن مصابيح السيارة أصابها العطب والسير في ضوء القمر في تلك الطرق الرديئة خطير جدًّا، فسحب كل فراشه ولبثت أنا أرصد النجم وسط قر البرد حتى الصباح، حين قمنا مبكرين نشق سهولًا مهملة إلا في بعض بقاع رأينا بها القطن في نوره الأصفر البديع، ولم يعدُ علوه القدم الواحدة مما يشعر بضعف نتاجه هناك، والقرى التي كنا نمر بها صغيرة نادرة، والأراضي مهملة إلا في زراعة البطيخ والشمام، وهذا جيد ورخيص، كنا نشتري بخمسة مليمات ثلاث شمامات أو أقة من «الانجور» أو العنب الذي تشتهر به البلاد، وكثير منه «بناتي» بالغ الحلاوة، وكنا كلما مررنا بقريةٍ أقبل أفواج من أهلها يقبلون أيدي الشيخ «المولاه» ويطول الحديث بينهم، وكان يزورهم أحيانًا في بيوتهم، وكلما مررنا ببلدة بها ولي قصد إلى زيارته ونحن له منتظرون، فلم أطق صبرًا على هذا العطل الممض، فأعلنت احتجاجي، وكان الشيخ يفهم شيئًا من العربية فكان كل ما يقوله هو وسائر المسافرين: «صبركون»، أي اصبر، لكني لبثت مظهرًا الامتعاض حتى أثر فيهم، وسرنا هذا اليوم بدون توقف حتى أقبلنا على مشهد الساعة التاسعة مساء، وكلما هموا بالتوقف للاستراحة صحت غاضبًا بالفارسية: «راحات لازم نيست»، وأول ما بدا قبس من أضواء المدينة المقدسة صاحوا جميعًا «لاهم سلى ألى مهمد آل مهمد»، ثم قرأ العالم دعوات طويلة جلها مدح في الرضا ولعنات على من قتله، ثم أخذ كل يناول السائق بعض إنعامه، وكنا كلما تقدمنا نحو المدينة في سيرنا البطيء، على قبس مصابيح السيارة الفاترة تنكشف أنوار الحرم حتى بدا متلألئًا بالثريات التي تكاد تكسو مآذنه وقبابه كلها، ونظل كذلك طوال الليل على الدوام فيبدو مشهدها ساحرًا، ثم مررنا بمخفر البوليس عند مدخل المدينة، حيث وقفنا للتأشير على جوازاتنا وأخذ رجال البوليس يتلكئون حتى ناولهم السائق بعض ما تيسر، وهكذا كان «القران» هو المذلِّل لكل الصعوبات في تلك البلاد! ونمت ليلتي في النزل نومًا عميقًا، وكنت أشعر بحمى خفيفة من أثر ما أصابني من برد الليلتين السابقتين.

دار البلدية في هيرات ولعلها البناء الوحيد الجدير بالذكر.

وفي الصباح زرت صديقي «أمين غنيمة أغا»، وهو بيروتي على جانبٍ كبير من كرم الطبع ورقة الحاشية، يتجر في مشهد في شئون الحاكي (الجرامفون)، ويحبه القوم حبًّا جمًّا، وكانت معرفتي به، يوم حللت مشهد لأول مرة، فبينما كنت أسير في الطريق، وإذا شاب مهذَّب يناديني بالعربية، وهو يحب مصر ويشيد بذكرها، وحوله زمرة من السوريين يتجرون في السيارات ولوازمها، ويربحون من وراء ذلك ربحًا طائلًا، وفي الحق أن الشعب السوري لنشيط يسعى وراء الرزق في أقاصي الأرض، ولا ينسيه حنينه لوطنه المادة والمال، فهو يقيم حيث يطيب له العيش، ولا يقنع بالقليل زهدًا في التغرب والنزوح بعيدًا عن بلاده، ولقد كنت من قبل أسيء فهم السوريين لما كنا نراه من شرذمة نفعية ممن يعيشون منهم في بلادنا، ولكن تلك أقلية لا شك توجد في كافة شعوب الأرض مهما سمت.

إلى طهران ثانية

قمت في سيارة صغيرة جديدة، فكان حظي موفقًا هذه المرة، إذ سرنا في سرعة مدهشة عوَّضت شيئًا مما سلف، فقطعت المسافة كلها في يومين بالضبط، وكنا نسير النهار من مشرق الشمس إلى مغربها ونستريح الليل، وقد بدا طريق خراسان ممهدًا بالنسبة لطرق

الأفغان الوعرة، لكن لم تخلُ رحلتي هذه أيضًا من تنغيص هو التراب الذي أفسد عليَّ كل شيء، مزاجي وملابسي، لذلك كنت أُضطر للوقوف مرة كل ساعتين أغسل وجهي بالماء، وأكثر من النصف الأول من الطريق سهول تَحُفُّهَا التلال في الآفاق وتكثر بها القرى وتزرع بها بقاع متفرقة، وهنا أرض التركمان الذين كانوا نذير الفزع وقُطَّاع الطرق، وكانت تخشاهم حتى الحكومة نفسها، فكم أبادوا من قوافل ونهبوا من متاع وأموال، لكنهم اليوم عادوا أطوع للحكومة من سائر الطبقات بفضل شدة الشاه الحالي الذي ضرب على أيديهم وأخذهم بالقوة، فأينما سِرْنَا كنا نرى محاط البوليس بأسلحتهم الكاملة، والإيرانيون يفاخرون اليوم بأن الأمن سائد في جميع بلادهم رغم ما فيها من مخابئ ومفاوز.

المسافرون يتأهبون للرحيل عن هيرات بعد أن انتظرنا قيام تلك السيارة أسبوعًا كاملًا.

ويقولون بأن الشاه يمر بنفسه على الحكام ومخافر البوليس متخفِّيًا في الليل والنهار مهما بعدت أطراف الإقليم؛ ليقف بنفسه على ما يجري، ولا يترك صغيرة تنفذ في البلاد كلها دون أن يجيزها بنفسه، حتى ترقية الضابط أو الموظف الصغير. وكان يرافقني في السيارة شيخان عراقيان وسيدة وفدوا للحج إلى مشهد، وكانوا كلما مرت بنا سيارة تحمل

الحجاج يصيحون عاليًا «التماس دعاء»، ولقد عجبت لكثرة تلك السيارات، فقد أحصيت في سبع ساعات من الليل ثلاثين سيارة كبيرة متوسط حمولة كلٍّ عشرون شخصًا، أعني نحو مائة سيارة في كل يوم بها ما بين ١٥٠٠ و٢٠٠٠ من الحجاج يفدون إلى مشهد، مع العلم بأنَّا لم نكن في موسم الزيارة، فأدهشني هذا الإيمان العجيب في الرضا ومكانته السامية من قلوبهم، وكثيرًا ما سألني رفقاء السفر «أفي مصر شيعيون؟» فأقول: كلا. وعندئذ يُبْدُونَ علامات الأسف ويرمقونني بنظرات كانت تنم عما تُكِنُّ قلوبهم لنا من لعنات.

استرحنا ليلتنا الأولى في «سبزوار» وهي عاصمة ولاية كبيرة، وفي ظهر اليوم التالي وقفنا قليلًا «بشاروت» وهي شبيهة بسابقتها وبعد «سمنان»، وهي من العواصم الكبيرة انتهت السهول وبدأت الربى بتعقيدها الشديد، فأخذنا نصعد ونهوي في ليات مخيفة من دونها الهوى والوديان السحيقة تتوسطها مجاري الماء، ومن حولها الشجر والقرى، وقد كان البرد شديدًا وبدت بقع من الثلج الأبيض فوق الذرى والثلج يكسو بلاد خراسان كلها، وغالب بلاد فارس مدى ثلاثة شهور الشتاء، وفيها يكون البرد قارسًا والسير في الطرق متعذرًا؛ لأن جوها قاري متطرف شديد الحر صيفًا قارس البرد شتاء. ومن هذا الثلج وما يجمد من النقائع يدخرون جليد الشرب «ياخ» في سراديب عميقة في الأرض تفرش بالغرائر (الخيش)، ومن هذا تستمد المدن والقرى مرطبات الصيف، وإننا لا نكاد نمر في طريق أو قرية إلا ونرى الصبية يحملون الماء والثلج في كتل غير مشذبة تمازجها الأتربة والأوساخ، وهم دائمًا ينادون «آب ياخ»، أي «الماء الثلوج»، وهو زهيد القيمة جدًّا. ومن أعجب المناظر في طهران الحمَّالون الذين يسيرون وعلى ظهورهم كتل من الثلج في حجم الصخرة الكبيرة يكسوها القش والأتربة، يسير الرجال بها وئيدًا وهي تقطر ماءً من جميع جوانبها ويقولون بأن هذا الثلج خير للصحة من الثلج الصناعي.

هبطنا آخر الربى فبدت طهران وسط صحراء مجدبة في بقعٍ متفرقة خضراء كأنها الواحة، وقد شعرنا بأنها أدفأ جدًّا من أرض خراسان. استرحت في طهران يومين زرت فيهما مساجدها الفاخرة بقبابها المتعددة ومناراتها القصيرة ثم البرلمان المتواضع، وكنت أمضي كثيرًا من وقتي في دار المفوضية المصرية، وهناك كان يؤنسني آلها بما جبلوا عليه من الخلق النبيل والطبع الكريم، وكم أسدوا إليَّ من خدمات سهلت لي كل عسير ورجال المفوضية على جانب عظيم من الإخلاص والجد والخلق العظيم، يمثلون مصر في تلك البلاد الإسلامية تمثيلًا مشرفًا، يشيدون بمجد مصر، ويقومون لها بدعاية طيبة، وللسفارة داران، أحدهما في وسط البلدة، وبها دار لوزيرنا الهمام ينزلها شتاءً، ومنزل الصيف

جباة الضرائب خارج أسوار هيرات وترى أكداس النقود الفضية أمامهم إذ ليس في البلاد نقود ورقية.

في ضاحية تسمى «شمران» في حصن جبل «دمافاند»، ويقطنها طبقة الأرستقراطيين والأغنياء والسفراء، والداران من القصور الفاخرة التي تدل على الفرق الشاسع بين ما كان عليه الحكام والأرستقراطيون — وهم أقلية في قوم فارس — من البذخ والرفه، وبين ما كان عليه العامة من البؤس والشقاء، ويُخيَّل إليَّ أن همهم كان ابتزاز المال من الناس والاستمتاع به دون أن يعنوا بشئون العامة كثيرًا ولا قليلًا، وكان يُعرَف عن حكام الفرس أنهم يولون بكثرة ما يدفعون للشاه وللحكام والوزراء من مال، وكانت كل الوظائف تباع، وبعد قليل يوقف الموظف ليولي بدله على أن المرفوت يخرج موفور المال رغم قصر مدته في العمل ويقص البعض أن أحد المولاه هناك بكى ليلة ولما سُئل عن ذلك قال بأن النهار قد انقضى ولم يزد ما جمعه على ألف جنيه فقط، وكاد يؤيد هذا لدى ما رأيته.

فبعض تلك القصور قد بلغت من الوجاهة حدًّا لا يكاد يُرَى في الممالك الأخرى، بينما ترى سواد الأمة في أجحار وأقبية من الطين ليس فيها وسائل الراحة أو شئون الصحة، حتى شهر عن الفرس التقشف، وأنهم لا يُعنَون بوسائل الراحة والترف كما يُعنَى بها الأوروبي، وقلة وسائل الترف لا تؤثر على كرامتهم أو سمعتهم في نظرهم، وهم يعدون ذلك فضلًا يجب على الغربيين أن يتعلموه عنهم.

إلى بحر الخزر

قمت صوب شمال طهران لأرى الجزء الشمالي من إيران، وما كدنا نخرج بوابات المدينة — وبوابات طهران فاخرة تؤدي منها إلى جميع الجهات وهي أخص ما يسترعي نظر السائح هناك — حتى استوقفنا البوليس كعادته، ولما رأى الجواز قال هذا لا يكفي ولا يباح الخروج من طهران إلا بتذكرة من «النظمية»، قلت: ولكني سائح سأغادر بلادكم، قال هذا لا يكون، ولا بد من العودة والحصول على الترخيص المطلوب، وكان رفيقي في السيارة من كبار الموظفين، فتعاونا على إفهام رجال البوليس بأن تأشير النظمية موجود وأروهم طابعًا فيه، وبعد جدل طويل غلبتهم حيلتنا وجزنا النطاق، وقد ساعد على ذلك جهل البوليس فهو هناك لا يكاد يعرف القراءة.

الميدان الرئيسي في رشت.

لبثنا نسير من السادسة مساء إلى الأولى صباحًا، وقد تعب رفيقاي وكان أحدهما طالبًا في بروكسل وهو عائد لاستئناف دراسته عن طريق بحر الخزر والروسيا، فاضطررنا أن نوقف السيارة وسط الطريق، ونمنا ونحن قعود بها، وأدهشني أن رفيقيَّ قد شعرا بارتباك في المعدة أعقبه قيء من أثر ارتجاج السيارة، فأذكرني بمرض البحر وما كان يسيء إليَّ يوم كنت حديث عهد بركوبه، ومسافة الطريق إلى بحر قزوين ستون فرسخًا، أي نحو

أربعمائة كيلومتر، كانت المناظر في النصف الأول منها مألوفة من ربى تحوط متسعات من أرض مهملة، وما كدنا نوغل في النصف الأخير حتى زادت عقد الجبال في صخرها الأغبر المنحل، وغالبه من الجير الذي اسودَّ بمضي السنين وكثرت الالتواءات الأرضية وزادت طياتها، وكنا نشاهد ذلك في جوانب الجبال واضحًا، وأخذ الطريق يعلو ويهبط ويلتوي على نفسه مرات متعاقبة وعورة لم نعهدها من قبل، وقبيل:

الرشت

بنحو خمسين كيلومترًا أخذت صفحة الجبال المعقدة تتغير معالمها، إذ كساها الشجر القصير في تفرق أعقبه تلاصق عاجل، وما نشعر إلا ونحن نوغل في غابة كثيفة، أذكرتني بمناطق الغابات الصميمة في إفريقية، وكنا نجانب وادي نهر يسمونه «النهر الأبيض» في اتساع عظيم، وهو يتلوى ليات متعاقبة وسط تلك الجبال اللانهائية، وكل أولئك جبال البرز المعروفة، أما ماء النهر فكان آسنًا، إذ يفيض بالماء إبان الشتاء حين تكثر الثلوج التي تمده بالماء، ولقد ظلت المناظر رائعة ساحرة خلاف ما عهدنا في ربى إيران المُنفرة التي عريت كلها عن النبت ونضبت مياه مسايلها، وكان منظر بعض الوهاد بقراها كالمناظر التي شاهدتها في بعض جهات اسكندناوة أو سويسرة، على أن الشجر مختلف، فليس لأشجار الصنوبر من أثر حتى في أعالي الذرى، وكله من أشجار البلاد الحارة تكثر حولها الطفيليات النباتية والأعشاب المتسلقة التي تسد الغابة سدًّا؛ ولذا يطلق القوم عليها كلمة Jungle الإنجليزية.

وكلما قاربنا الرشت بعدت عقد الجبال وانفسح السهل وغص بالقرى والمزارع التي شهرت من أجلها البلدة، وبخاصة في الأرز والطباق، وهذه الناحية أشهر بلاد فارس في الزراعة والطباق اليوم آخذ في الزيادة هناك على حساب الأرز، وقبيل الساعة العاشرة صباحًا دخلنا: الرشت: التي كانت عاصمة بلاد الديلم قديمًا، وهي اليوم عاصمة مقاطعة جيلان بدت مدينة عامرة كبيرة أخف روحًا حتى من طهران نفسها، وأرضها أنظف وأهلها أكثر حركة ورشاقة، وقد حاكت المدن الأوروبية، ويظهر أنها تأثرت طويلًا بالروس يوم كان لهم النفوذ في هذه المنطقة؛ لذلك كانت جموعهم كثيرة في البلدة نساءً ورجالًا، واللغة الروسية منتشرة بين الجميع إلى جانب الفارسية وغالب مبانيها من طابق واحد تظهر وكأنها أقيمت كلها من جديد، والبيوت ذوات سقوف متحدرة يكسوها الآجر الأحمر خلاف ما شاهدنا في سائر جهات فارس؛ ذلك لأن مطر المنطقة غزير جدًّا يفوق مقداره المتر،

على شواطئ بحر الخزر في بهلوي.

ويظل المطر أكثر من ثمانية شهور، وبخاصة في شهور الشتاء، ولم تخلُ السماء من الغيوم ساعة واحدة، وكان الجو أميل إلى الرطوبة وسببها رياح سائدة تهب شمالية غربية من بحر الخزر على تلك المرتفعات فتغرقها مطرًا وتكسو ذراها ثلجًا، وفي الشتاء تزيدها أعاصير البحر الأبيض التي تندفع من قزوين إلى بحار الهند الدَّفِئة وخفيفة الضغط حتى في هذا الفصل الجاف؛ لذلك قل بها التراب الذي كان ينغصنا في بلاد فارس كلها، وكان جوها لطيفًا محتملًا عن طهران، إلا إذا انكشفت الشمس عن الغيوم، فعندئذ يصبح الحر شديدًا، على أن الجهة تعرف بكثرة الحميات في جوها غير الصحي بسبب الحرارة والرطوبة معًا، وقد زادها حرًّا انخفاض سطح بحر الخزر، وهو أوطأ من مستوى البحر الأسود ٨٤ قدمًا؛ لذلك يجري القول على لسانهم هناك: ماذا أذنب حتى يولَّى حاكمًا على الرشت: على أن حظي كان موفقًا إذ كانت أيامي هناك أجمل أيام قضيتها في إيران كلها. وبالمدينة مجموعة من متنزهات منسقة أنيقة تقوم بها المقاهي الحديثة، وفيها يسمع المرء الموسيقى الشجية وقد اختلطت الأنغام الفارسية بالروسية، وكلاهما مما تستريح له آذاننا.

أقلتنا السيارة إلى بهلوي على شواطئ بحر الخزر — ولا يسمونه هناك بحر قزوين قط — والمسافة أربعون كيلومترًا فكان الطريق يتلوى وسط الأحراش الكثيفة المتعلقة التي حاكت الأحراش التي رأيتها في بنغالة في بلاد الهند، ويقولون بأن فيها كثيرًا من الحيوان المفترس خصوصًا النمر، ومن أعجب ما رأيت في الطريق كثرة الكروم البرية التي كانت

نبدأ دخول الغابات الكثيفة حول بحر الخزر.

تنمو في كل مكان، ويقول البعض: إن كروم أوروبا جاءت عن تلك الناحية وعن القوقاز. أخذ الشجر يقل كلما قاربنا البحر حتى انعدم وأضحت السهول تكسى ببساط من خضرة إلى البحر، وكنا نرى بيوت القوم أخصاصًا من أعواد الخشب يكسوها القش الثقيل في شكل مخروطي أو منحدر السقوف، فذكرت مساكن الغابات الاستوائية على ضفاف فكتوريا نيانزا تمامًا، والقوم يستأصلون الأحراش من مساحات يزرعونها من الأرز والطباق والقطن والكتان، والعمل يقع كله على السيدات اللاتي كن يظهرن في ملاءات بيضاء ناصعة، وقد استرعى جمالهن نظري، فهو مخالف للسحن الفارسية البحتة، ويظهر أن اختلاط الروس بالفرس، هنالك أكسب أولئكن جمالًا عالج كبر الأنف الفارسية وأشرب اللون الفارسي الأبيض الناصع بعض الحمرة الروسية الجذابة، والناس في تلك الجهة يموِّنون أنفسهم بكل شيء من عمل أيديهم، وحتى الملابس ينسجونها ويربون دود القز.

والمنطقة المجانية لبحر الخزر إلى شمال جبال البرز كلها كثيفة الغابات من مقاطعة «مازندران» شرقًا إلى «أذربيجان» غربًا، وسكانها يفوقون مائة ألف، وكل تلك السهول من مخلفات بحر الخزر الذي كشفها وهو آخذ في النقص من أثر البخر الشديد. أخيرًا دخلنا بهلوي: فكانت بيوت الفقراء أخصاصًا على نمط تلك التي في الغابات، يحوطها سور من غاب وحولها حدائق لا بأس بها، وعلى البحر أقيم الميناء تحفُّها مجموعة من

أبنية غالبها للجمرك ومرسى للسفن، وتصفُّ إزاءها الزوارق للنزهة، وتلك الجهة تسمى «غازيان» وإذا ركبنا البحر أقبلنا على شبه جزيرة تبدو بها المباني الفاخرة والشطآن المنسقة، وهذه هي «بهلوي أو أنزيلي قديمًا». ركبت البحر إليها في ربع ساعة، وإذا بها آية في التنسيق والنظافة، بيوت فخمة وطرق مرصوفة ومتنزهات عدة، وقد مدت على شاطئ البحر الحدائق والمقاهي، فكنت وكأني في إحدى مدن الرفييرا، وفي الحق أن تلك الجهة من فارس فريدة تختلف عن سائر جهات فارس في كل شيء في طبيعة الأرض، وفي الجو وفي النبت وحتى في سكانها فهم أكثر نشاطًا وجمالًا أما الناحية الخلقية فهي هنا أكثر فسادًا، ولا شك أن للإباحة الروسية المقيتة أثرًا كبيرًا في ذلك. قامت الباخرة الروسية من الميناء تقل رفيقي إلى باكو في ثماني عشرة ساعة؛ ومن ثَم يستقل القطار الروسي إلى بركسل، وقد حدثني طويلًا عن الروس وما هم فيه من بؤس مميت، إذ لا يكادون يحصلون على القوت، يُجبَرون على العمل مقابل تذكرة تبيح للواحد منهم تناول الطعام من مطاعم الدولة، وكثيرًا ما ينتهي الطعام قبل أن يحصل جميع الناس عليه لكثرتهم، فيطرَدون إلى الغد، والحياة هناك غالية غلوًّا فاحشًا حتى لأهل البلاد، ورقابة البوليس بالغة الشدة، ولكن رغم ذلك يفد الكثير من الناس إلى البلدان المجاورة هروبًا من ظلم واقع وجوع محيق، وقد لاحظنا من هؤلاء جموعًا غفيرة في بلاد فارس والأفغان، ويقول صاحبي بأن سكة الحديد الروسية القوقازية قذرة جدًّا، لا يجد الواحد في الطريق شيئًا يبتاعه قط ليتبلغ به، ومن الغريب أن الجيش والبوليس وهم نفر قليل يسيِّرون الأمور على هذا الحيف القاتل، ولا يستطيع الناس القيام ثائرين لعجزهم وعوزهم، وأنت تدهش إذ ترى بعض المنتجات الروسية تغرق الأسواق الخارجية، فالسكر يرد إلى فارس بسعر قرانين للأقة (أي نحو قرشين)، ثم يعيده المهربون من فارس إلى روسيا ليبيعوه بعشرين قرانًا للروس أنفسهم، وكذلك السجاير وبعض المنسوجات. تفعل حكومتهم ذلك بقصد الدعاية للسوفييت، ولا أدري ما قيمة الدعاية لنظام فاسد أهلك الأهلين إلا نفرًا قليلًا من السادة هناك.

واليوم فقط (الخميس ٧ سبتمبر) حققت حلمًا طالما جال بخاطري هو أن أركب بحر الخزر — وهو بحر طبرستان — يومًا وأطوف بسواحله ذات الطبيعة المختلفة من غابات كثيفة تغص بها سهوله الجنوبية إلى غابات جبلية في غربه إلى كلأ وعشب شبه صحراوي في شرقه إلى أرض ملحة في شماله. لكن الشبح الروسي لم يتح لي التجوال كاملًا، فلبثت اليوم كله أجول في مياهه الفارسية وراء ثغر بهلوي، وقد كان ماؤه أملس هادئًا على أنه إبان العواصف يعلو موجه ويضطرب، وقد تذوقت ماءه فإذا به قليل الملح على خلاف ما

على مياه بحر الخزر (وهو بحر قزوين في عرفنا وبحر طبرستان عند القدماء).

عهدت، فخلت ذلك راجعًا إلى قرب بعض المصابِّ العذبة من تلك الجهة، لكن القوم خبروني أنه أميل إلى ذلك في كل أرجائه، ودللوا على ذلك بكثرة أسماكه نوعًا وعددًا، ولذلك كانت مصائده هامة للدولتين الروسية والفارسية، وكانت زوارق الصيد تسد الأفق سدًّا والسمك غذاء رئيسي للناس فهو والأرز عماد الطعام، وكان لهما أثر حسن في أجسامهم، فهي هناك ممتلئة عن سائر جهات فارس الأخرى، إذ لم أعثر على القامات الطويلة والأجساد السمينة إلا في تلك الناحية من بلاد فارس كلها.

أصبحنا يوم الجمعة والجو جميل والسماء تنتثر بالغيوم المتقطعة، وقد أمضينا ليلتنا في نُزُل «سافوي» في رشت، وهو يطل على ميدان البلدة الجديد الذي تمتد منه الطرق المستحدثة البديعة وتزيِّنه المتنزهات، والمنظر من شرفة النزل رائع: السماء تنقشها الغيوم والخضرة تمتد إلى الآفاق والمباني حولنا فاخرة وجماهير الناس في أنظف ثيابهم؛ لأنه يوم الجمعة يوم الراحة القومية، يروحون ويغدون في كثرة تسترعي النظر ولا يخلو الجمع من طائفتين: الغانيات في إزارهن الأسود المهفهف، والمتسولين الذين يمسكون بتلابيبك يصيحون في نغمة البائس المتماوت قائلين: أرباب، أغا. وأكفهم مبسوطة وكثير منهم من يظهر في هندام نظيف ووجه مشرق؛ مما أثبت أنهم على شيء من اليسار، لكن التسول أضحى في القوم عادة متأصلة ذميمة. وكثير من مباني الرشت وبهلوي بالخشب لكثرة

خيابان جهار باغ (الحدائق الأربع) في أصفهان.

الغابات حولهما؛ لذلك نرى في كلٍّ برجًا عاليًا يظل فيه الرقيب ليلًا ونهارًا لينذر بالحريق إذا ما بدا دخانه أو لهيبه في أية ناحية من البلدة.

قمنا في الأصيل مودعين رشت ومنطقتها البديعة التي تصلح خير مستراضٍ في الربيع والخريف، وأخذت سياراتنا تشق الخضرة التي زادت كثافتها تدريجًا، وبعد أن قطعنا ثلاثين كيلومترًا بدت جبال البرز، أعني أن السهول إلى البحر تمتد سبعين كيلومترًا، وكانت الأشجار الكثيفة تغطي الجبال إلى أعلى ذراها، والربى تبدو مدرجة الواحدة وراء الأخرى، وسحاب السماء يكاد يلامسها، وإن لم يبدُ للثلج فوقها من أثر، وكانت طيات الوديان بمائها الشحيح تختفي وراء الربى تارة، ثم لا تلبث أن تنكشف في مباغتة تقر لها العين، وكان المنظر العام ونحن وافدون من الرشت أروع منه لمن يدخل البلدة قادمًا من طهران، وظل جلال الغابات حولنا زهاء خمسة وعشرين كيلومترًا، ثم ندر الشجر وانعدم فجاءة، وأضحت عقد الجبال قاحلة منفرة مسافة ذرعها سبعون كيلومترًا، كان الطريق فوقها طيات قاسية رهيبة، خصوصًا في ضوء القمر الشاحب، وفي سكون الليل الموحش، وفي باكورة الصباح دخلنا طهران للمرة الثالثة، وكان معي موظف كبير في المالية ومعه أولاده الصغار، وقد لفت نظري أنهم يدللون النشء لدرجة أنك لو كلمت الرجل في شأن ابنه «حسين» مثلًا عاد فكرر الاسم قائلًا ابني «حسين خان»، ويبيحون لهم تدخين الطباق

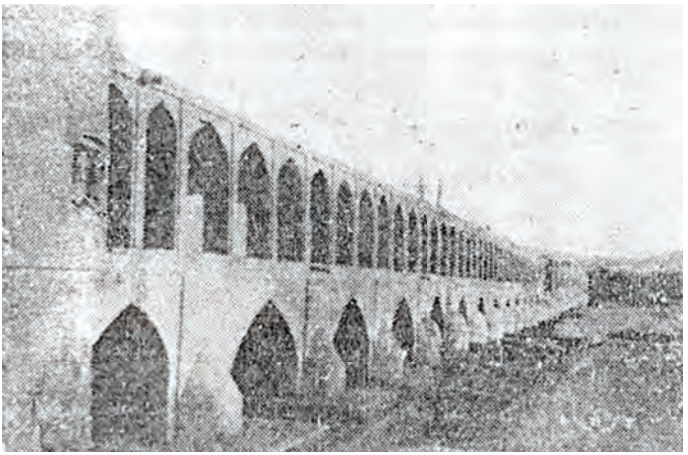

قنطرة جلفا أعجب قناطر الدنيا في أصفهان.

أمامهم وهم لم يبلغوا الحلم بعد. ولما أردت أن أتشرف باسم الرجل نفسه قال في نغمة: اسمي «أغا علي خان»، وقد زرت في رفقته بعض القصور، ثم كان وداعي لحضرات ممثلينا الكرام في المفوضية المصرية العامرة، وقد تناولنا طعام الغداء في مطعم فارسي بحت يسمونه «لوقانطة» أمام دار البرلمان، وهو بيت لوزير قديم حجراته مزركشة الجدران، عليها رسوم بعض ملوك فارس وعظمائها، وبها حجرة وسطى يحار اللب في تعقب نقوشها وزخرفها والفناء مكشوف تتوسطه بركة ماء هائلة نسقت حولها الزهور، وأخص ألوان الطعام الفارسي الأرز الفارسي عليه بعض الأفاويه ويسمونه «بيلوف» والكباب الشهي المسمى «شيشيك».

عرجت على «النظمية» لإنجاز جواز الخروج من طهران، فاضطررت أن أبقى يومًا كاملًا حتى فاتتني سيارة البريد التي تقوم إلى جنوب طهران مرتين في الأسبوع، وتضييق البوليس في فارس قد بالغوا فيه فأضحى من أكبر المنغصات على المسافرين حتى من أهل البلاد، فقمت في سيارة خاصة رفقة بعض الطلاب وقفوا بنا طويلًا في ناحية تبعد عن طهران بسبعة كيلومترات ويسمونها «حظرت عبد العظيم» على اسم عالم وولي أقاموا له ضريحًا هناك زرته فأدهشني اتساعه وعظيم زخرفه، وفي حجرة منه دفن السلطان نصر الدين شاه في ضريح من المرمر الشفاف في خرط بديع، ويقوم تمثاله ومن حوله عدة علماء

تعلق فوق كل منهم صورته الزيتية الكبرى، وتلك ظاهرة استرعت نظري إذ لم يكن يباح في الإسلام إقامة التماثيل ولا وضع الصور المكبرة هكذا، ويظهر أن الشيعة أكثر مرونة وأميل إلى الإباحة من أهل السنة.

من قصر الشاه عباس أشرف على «ميدان شاه» يزينه «مسجد شاه» في أصفهان.

«وحظرت عبد العظيم» مزار مقدس، وبخاصة عند النساء اللاتي يعتقدن أنه يفك عسر العقيم منهن، هناك تعطلت السيارة؛ لأن رفقائي أضافهم للغداء أقرباؤهم، ولما طال بي المكث صحت محتجًّا، فتكاثروا عليَّ حتى أدخلوني دارهم، فإذا هي من الداخل فسيحة مشيدة تتوسطها الحديقة الفارسية وحوض الماء، وتلك شهرة لفارس من قديم، وهم يقيمون أوجه أبنية البيت في مواجهة المدخل، وبيت الحريم يبعد إلى الداخل، وفي غرفة الاستقبال جلسنا القرفصاء على البسط الوثيرة «وصموار» الشاي متقد إلى جانبنا لسقي الأضياف من الشاي الأخضر زكي الرائحة.

قمنا نشق طريقنا وسط سهول زراعية تربتها سوداء إلى مسافة ثلاثين كيلومترًا ثم بدأت التجاعيد المجدبة المنفرة، فأضحى المنظر صحراويًّا شديد المحل، وقد ظهر إلى يسارنا متسع لا نهائي من بسيط تكسوه الرمال يختلط بها الملح الأبيض، وندرت القرى جدًّا حتى إنَّا كنا نمر بالقرية الصغيرة كل ساعتين فلا نرى بها مجاري المياه التي ألفناها في جوانب

الطريق من قبل، وهي تستقي من عيون أشبه بتلك التي في الواحات. وقد صادفنا في سيرنا سيارة البريد التي سبقتني من طهران أصابها عطب فوقفت اليوم كله فقلت في نفسي: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ بعد أن أسفت لفواتها أمس شديد الأسف وبعد مائة وخمسين كيلومترًا وقفنا ببلدة «قم» مدفن السيدة فاطمة أخت الإمام الرضا ويسمونها «معصومة»، وقد أقيم حول ضريحها مسجد فاخر، وهو من الأمكنة المقدسة الهامة التي يزورونها في مواسم معينة.

ومن البلدان التي مررنا بها قاشان، وتشتهر بصناعة البسط من الحرير في جميع الأحجام، استعرضت بعضها فإذا بها آيات فنية؛ لذلك لم أعجب من غلو أثمانها، فكان بعضها يباع بمائة جنيه للقطعة، على أن الإنسان يستطيع أن يبتاع قطعة صغيرة بمائة تومان «أي اثني عشر جنيهًا»، وقد أردنا إمضاء الليل هناك لكنهم أخافونا؛ لأنها تغص بالعقارب لدرجة مخيفة، حتى إن التجار أنفسهم لا يستطيعون المبيت فيها، فواصلنا سيرنا الليل كله، وفي الصباح أقبلنا على:

أصفهان

أو أصبهان (وطن أبي الفرج الأصبهاني صاحب كتاب «الأغاني»، وكثير غيره من أهل العلم والأدب) بعد أن قطعنا نحو خمسمائة كيلومتر في اثنتي عشرة ساعة فألفيناها في حجر جبل من دونه سهول مترامية في تربة سوداء غنية بمزارعها، على أن مدخل البلدة مترب منفر لا يوحي بشيء من العظمة التي خبروني عنها هنالك، ثم حللت نزل «أمريكا» الجميل الذي يطل على أهم شوارع البلدة ويسمى «خيابان جهار باغ»، أعني طريق الحدائق الأربع وهو في امتداد عظيم واستقامة تكاد تشق المدينة كلها، وتعبر النهر وتمتد إلى ضاحية «جلفا»، وكأنه ثلاثة طرق متجاروة الأوسط الفسيح تحفه أشجار الشنار الهائلة وهي متجاورة تكاد تظل الطريق كله يجانبه طريقان آخران أقل سعة، وبينهما وبين الإطارين شجر يماثل الأوسط، وفي مجاورة صفوف الشجر مجاري المياه المألوفة في بلاد فارس كلها، وهو مستراض الناس طيلة اليوم، وبخاصة عند الأصيل حين يغص بالغانيات يتلمسن من المارة رفيقًا، وتطل على وسطه مدرسة «جهاد باغ» الدينية تحت قبة زرقاء بديعة تمتد حولها الألونة في طابقين لإيواء ١٦٠ من طلاب العلم وفيها يتخرج المولاه، وواجهة أحد المداخل آية فنية في نقوشها وزخرفها الفارسي البديع أقامها الشاه حسين سنة ١٧٦٠، وفي أحد طرفي الطريق قنطرة جلفا التي تسترعي النظر ببنائها العجيب تقوم البوائك والمقاصير

على جانبيها فتتخذ مأوى لمن أراد، وتتدلى خلال بعضها درجات تؤدي إلى بطن الوادي الذي لا يكاد يجري به ماء إلا في نقائع ضحلة آسنة لا تمنع المرور إلى الجانب الآخر مع أن النهر أكبر أنهار فارس كلها ويسمونه «زندة رود» الذي يصب في مستنقع داخلي اسمه «هامون»، ويخال البعض أنه هو الذي أغرى الشاه عباس أن يقيم عاصمته «أصفهان» على ضفافه، ويقول بعض الكتاب عن تلك القنطرة: إنها أفخر قناطر الدنيا وأبهاها، وقال عنها «كرزون»: إنها وحدها خير مبرر لزيارة بلاد فارس. على أني لم أرَ فيها من هذا الجلال شيئًا، اللهم إلا أنها غريبة في نظامها وهندستها، وكان يُخصَّص أحد جانبيها لمرور النساء والجانب الآخر للرجال، وعلى الجانب الآخر من القنطرة ضاحية جلفا، وهي مأوى لطائفة من الأرمن المسيحيين الذين خدموا السلطان عباس وبقيت لهم ولذراريهم إلى اليوم، وهي أنظف في مجموعها من أصفهان نفسها تتوسطها الكنيسة الرئيسية الهائلة في الهندسة الإيطالية البديعة التي بدت غريبة وسط بلاد فارس وفنها الشرقي البحت.

أمام واجهة مسجد الشيخ لطف الله بنقشها الرائع، أصفهان.

وفي وسط أصفهان «ميدان شاه» موضع شهرة أصفهان وهو فناء مستطيل الشكل في امتداد لا نهائي يشعر بالعظمة حقًّا يتوسطه حوض ماء كأنه البحيرة العظيمة، ويطل عليه من وسط أحد جوانبه «آلي كابو» أو الباب العالي مسكن الشاه عباس، وهو شاهق

أقيم في سبعة طوابق يرتقيها المرء بسلم حلزوني ويرد كلًّا منها بليات وسراديب عجيبة بعضها كالتيه كان الغرض منه إخفاء طريق الهروب إن دعت الحاجة. والجدران كلها نقوش بالذهب والألوان التي يخالها الواحد مورقة، والطابق السادس أعد لسماع الموسيقى وجدرانه مخرمة إلى سقفه في أشكال آلات الطرب على اختلافها، وفي الطابق الثاني شرفة يسمونها «تالار»، أقيمت من خشب على عمد مزركشة وفي وسطها حوض ماء أنيق كان يرده الماء في أنابيب أرسلت من جبل شاهق في طرف المدينة، وفي مقابل القصر مسجد الشيخ لطف الله أقامه الشاه إحياء لذكر ذاك العالم، وهو عبارة عن قبة لا مآذن لها أقيمت على مجموعة من أقبية جوفاء تُتَّخذ مقرًّا في الصيف، والقبة بولغ في نقشها بالقيشاني الأزرق في إتقان تطوِّقها الآيات الكريمة في خط بالغ الحجم، وتحف بأركانها جدائل من الفيروز ويكسوها الزخرف من خارجها أيضًا، فهي في مجموعها قطعة فنية في رواء، خُيِّل إليَّ أنها صنعت اليوم. وإلى يمين القصر يطل على الميدان «مسجد شاه»، وهنا يعجز قلبي عن وصف آياته الفنية في النقش والزخرف الذي بالغ فيه مبدعوه. قبة هائلة أقيمت على عمدٍ ومن حولها مجموعة من الأقبية تحوطها الألونة تتوسطها أحواض الماء وتقوم على جوانبها الحجرات، وكل أولئك يكسى بالقيشاني من داخله وخارجه في نقوش وقفت أمامها مبهوتًا، فهو حقًّا أجمل مساجد إيران جميعًا، يأخذ بلبك خصوصًا إذا ما أقبلت على واجهته الزرقاء التي تعلوها مئذنتاه الدقيقتان الزرقاوان. ومن نقطة وسط المسجد إذا ضربت الأرض أو صحت ردد الصدى صوتك بشكل متكرر ومرتفع يسمع كأنه قهقهة عالية، وفي قبالة المسجد من جانب الميدان الرابع مداخل الأسواق، وهي أيضًا تكسى بالقيشاني مما أكسب الميدان جمالًا مقطوع النظير. وتروقك جلسة من شرفة قصر الشاه «تالار» تشرف على كل أولئك وأنت مأخوذ من عظمة ما ترى، مشهد يخدع المرء فيوحي إليه بأنه أضحى من ملوك الأرض الجبارة، ويذهب بخيال الواحد إلى يوم الشاه عباس وما كان عليه الإقليم من عظمة ورهبة، وقد نال منه الدهر اليوم، فأخفى من روائه الكثير وجعل رواده من فقراء السابلة وجماهير المتسولين بعد أن كانوا من علية القوم وعظمائهم، فسبحان مغيِّر الأحوال، كان الشاه يجلس في تلك الشرفة يستقبل الأضياف والسفراء والعظماء ويشاهد حاضرة ملكه وما فيها من حركة ونظام، يمر أمامه الجند يستعرضون من ثكناتهم التي تطوق الميدان كأنها سور من بوائك مزركشة، وكانت تقام الحفلات الرسمية، ومن أجلِّها حفلة عيد النيروز رأس السنة الفارسية، وكانوا يشاهدون بها مختلف الألعاب ومصارعة الحيوان والحواة والفرسان، وقد احتذى كثير من الملاعب الأوروبية حذو ملهى الميدان

الفارسي، وهنا لُعبت كرة البولو لأول مرة أمام الشاه، وكان معاصرًا للملكة اليصابات في إنجلترا. وكانت تلك اللعبة معروفة للفرس منذ القدم، حتى روى القوم أن أحد ملوك فارس أرسل إلى الإسكندر وهو صبي كرةً ومضربًا، فرد الإسكندر قائلًا: إن الكرة ستكون في نظره الأرض كلها، والعصا الإسكندر نفسه، وقد عرفت فارس بعدُ صدق نبوءته، إذ دخلها الإسكندر وأسلمها للسلب والنهب. وظلت تلك اللعبة سائدة في فارس، وحتى هارون الرشيد لعبها رغم أنه كان قصير القامة، حتى إن عصاه لم تكن تدرك الكرة وهو ينحني بها من ظهر جواده، ولا تزال قوائم الملعب ترى بقاياها اليوم من حجر. ويمكن للسائح إن هو جلس هنيهة في تلك الشرفة أن يقرأ صفحة جلية عن أهل العجم وحياتهم، فأصفهان لا تزال فارسية بحتة في كل شيء، وهي خير بلادهم دلالة عليهم في أخلاقهم وحياتهم وفنونهم التي لم يكد يدخل عليها تبديل، وقد كان حكم الشاه عباس هو العصر الذهبي للفن والبناء حتى قال الناس فيه: لما أن مات مولانا عباس مات معه تقدم الفرس وفنهم.

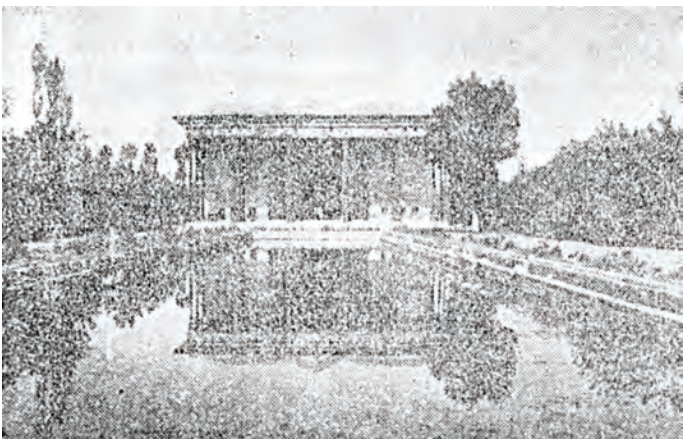

«شهل ستون» بهو استقبال الشاه عباس وتنعكس أعمدته على حوض الماء من دونه.

وقد حكم الشاه عباس ٤٣ سنة، ونقل عاصمته قزوين إلى أصفهان، وقد زاره وفد إنجليزي لأول مرة فأكرم مثواه، ومن رجال هذا الوفد تعلم الفرس استخدام المدافع في القتال، ولم يكونوا يعرفونها من قبل، وكان متسامحًا في الدين، دعا سفراء أوروبا إليه

وكان إداريًّا حازمًا صارمًا في الحق، ومن قوانينه أنه جعل حكام المديريات مسئولين أمامه عما يقع في مقاطعاتهم، وكان يباشر كل شيء بنفسه، ومن أوامره العجيبة «أن الابن إذا عصى القانون وجب على أبيه أن يقتله، فإن تراخى الأب في ذلك أمر الابن أن يقتل أباه، فإن توانى الابن في ذلك أُعدم الولد وأبوه!» وقد شجع العلم والفن والأدب، على أنه أهمل تربية أولاده؛ مما أضعف الأسرة بعده، وقد أعدم بعض بنيه خوفًا من مزاحمتهم إياه في الحكم، لذلك أعقبه خلف ضعيف تسيطر عليهم رجال الدين «المولاه» ثم غزا البلاد الترك إلى قزوين والأفغان إلى أصفهان نفسها، وخضعت فارس كلها لملوك الأفغان زمانًا.

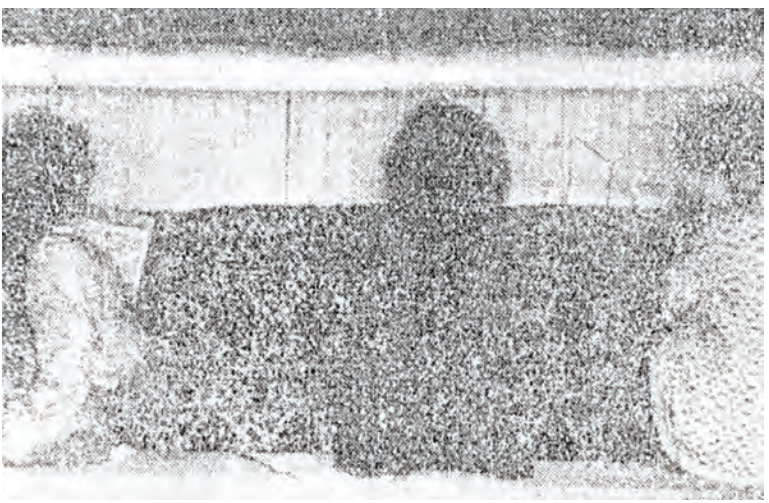

حتى تلك الطنافس معقدة الرسم يشتغلها الأطفال في العجم.

ويجري القول على ألسنتهم بأن أصفهان نصف الدنيا، ولو لم تكن في الوجود لما خلق الله الأرض جميعًا، ولا يزال جهالهم يعتقدون أن في الباب العالي سرًّا؛ لذلك رأينا كثيرًا من الخيوط والخرق موثوقة به تبركًا. أما قصر الاستقبال الرسمي فاسمه «تشهل ستون» في مكان قريب من الميدان وسطه حديقة فيحاء، وهو من طابق واحد غالبه من الخشب الذي طُلي من داخله، وزين بالصور والنقوش للندامى في مجالس مختلفة والحسان يقدمن الشراب، والوقائع حربية من بينها انتصار جنود فارس على الأفغانيين مرة وعلى الأتراك

أخرى، والصور الزيتية متقنة أذكرتني بما شاهدته في قصر الفاتيكان في إيطاليا، ويتقدم القصر بهو الأعمدة الأربعين، ولما عددتها ألفيتها عشرين، لكنهم يعدونها مضاعفة لأنها تنعكس على حوض الماء المستطيل الذي يمتد بعيدًا أمامها. هنا كان يستقبل الشاه عباس أضيافه يجلسون حول حوض ماء صغير تحت السقف الذي بولغ في نقشه وخرط أخشابه، وقد زُينت الأركان بقطع المرايا والبلور، وهي من أحب أنواع الزخرف لديهم. كل ذاك البذخ والإسراف جعلني أنكر على الشاه عباس ما ادَّعاه من تقوى يوم أن قام ماشيًا على قدميه حتى بلغ موطن الحج في مشهد التي تبعد عن عاصمته بأكثر من ألف كيلومتر.

طفت بأسواق البلدة بسقوفها الوطيئة وشعابها المختنقة، يسير الإنسان فيها وكأنه في تيه لا يعرف له أول ولا آخر، ويسترعي النظر نوع من الأقمشة المهفهفة يطبع الرجل فوقها النقوش الفارسية بأختام في الألوان التي ترغبها وتلك شهرة لأصفهان. ثم أشغال النحاس الدقيقة. وهناك تكثر المطاعم وباعة الفاكهة ومن أظهرها «الخربوزه» أو الشمام، وهي من نوع مستطيل في لون أصفر برتقالي خشن الملمس وحلاوتها فائقة. والفاكهة هناك رخيصة فأقة «الأنجور» أو العنب بنصف قرش، كذلك أنواع الطعام الأخرى، فلقد دخلت مطعمًا وأكلت الكباب الشهي حتى شبعت، وعند الحساب طلب الرجل قرانين أي نحو قرشين ونصف، وقد علمت أن الأهالي يستطيعون أن يعيشوا ببضعة شاهيات في اليوم، أي دون قرش مصري واحد.

وفي أسواق أصفهان ضمَّني مجلس مع طائفة من مثقفي أهل يزد التي تقع إلى شرق أصفهان، وهؤلاء كانوا من الزرادشتيين أو المجوس عبدة النار الذين فروا في تلك الصحراء — فيما بين يزد وكرمان — خوفًا من العرب والمسلمين، ولا يزال منهم عشرة آلاف فيما جاور يزد وحدها، وكانوا يضطهدونهم حتى إنهم خصصوا لهم عباءات صفراء، ولم يبح لهم لبس العمائم ولا ركوب الخيل إلى أمد قريب، وقد علمت منهم أن في يزد «برج السكون»، حيث يتركون جثثهم تأكلها العقبان؛ لأنهم من عبدة النار، وقد رأينا ذلك في بمباي في الهند، وكتبنا عنه في كتابنا «جولة في ربوع آسيا» وزرادشت فيلسوف عاش منذ أكثر من ٢٥٠٠ سنة، نشأ في أذربيجان، وكان ذا شخصية عجيبة، وكانت تعاليمه تقوم على فضائل كثيرة، وقد علم قومه أن الله (أهورا مازدا) يقول بأن هناك نضالًا بين الخير والشر، وأن الخير سينتصر، وقد شجع في قومه الزراعة وباركها وحرَّم قتل الكلاب، وكان يقول بأن الجنة فوق ذرى جبال دمافاند وراء طهران تتوجها منطقة بهيجة لا ليل فيها ولا مرض ولا فناء، وظلت ديانته سائدة ثلاثة عشر قرنًا حتى اجتاحها الإسلام وساعد

على ذلك أن الحسين تزوَّج «شهربانو» بنت آخر الملوك الساسانيين، وبذلك ورث الحسين «العظمة الإلهية» التي ورثها من قبلُ الساسانيون، وكانت لكتب زرادشت المقدسة بقية في مكتبة برسبولس، وبعضها بخط يده، أحرقها الإسكندر المقدوني يوم أحرق برسبولس كلها، وتلك من أكبر الأخطاء التي ارتكبها الإسكندر.

أمام المنارتين المتحركتين في جوار أصفهان.

وقد تفرَّع عن عبادة زرادشت المجوس الزرادشتية وظهر لهم رئيس في نيسابور أيام أبي مسلم، فدعا المجوس أن يهجروا عبادة النار، ووضع لهم كتابًا آخر وحرَّم عليهم الأمهات والبنات والخمر، وأمرهم باستقبال الشمس ركوعًا في كل يوم.

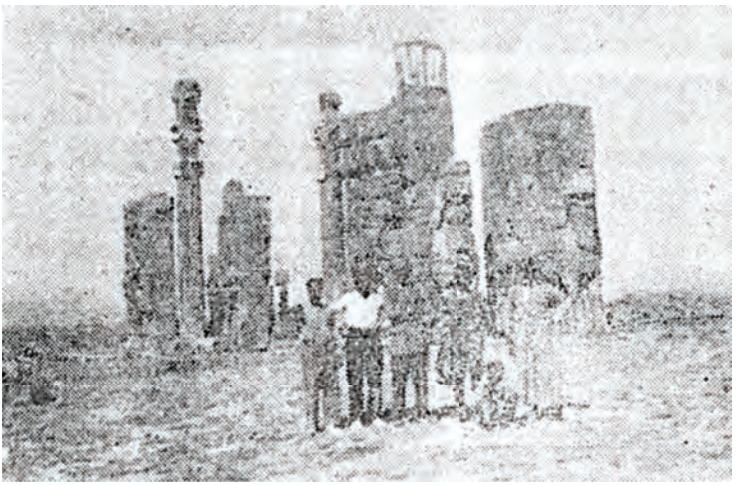

أمام مدخل قصر دارا واجزرسيس تتقدمه الثيران ذات الأجنحة والوجوه الآدمية في برسبولس.

وبعد ذلك قام ماني الحكيم يدعو إلى دين بين المجوسية والنصرانية، وزعم أن العالم مركب من أصلين النور والظلمة، وأنهما متلازمان لكن أفعالهما متضادة، حسن وقبيح وخير وشر، ويضم النور خمسة: النار والنور والريح والماء وروحها النسيم، ويضم الظلام خمسة: الحريق والظلمة والسموم والضباب وروحها الدخان، وقد فرض ماني على أتباعه العشرة في المال والصلوات الأربع والصدق وترك السرقة والزنا والقتل والبخل والسحر وعبادة الأوثان، ويقول بأن الله بعث زرادشت إلى فارس والمسيح إلى الروم ومحمد إلى العرب، ولا يعترف بسيدنا موسى في تعاليمه قط.

ومن الضواحي التي يقصدها السائحون هناك «الشيخ عبد الله»، بها مدفن ذلك الشيخ تحت قبة تجانبها مئذنتان تسميان «منارات متحرك»، ركبت إليها عربة زهاء الساعة في طريق وعر مترب منفر، وصعدت فوق القبة ثم تسلق رجلان كلٌّ في مئذنة، وأخذ الواحد يهز المئذنة فتترنح هي ثم تنتقل هزاتها إلى الأخرى فتتبعها اهتزازًا، ويعزو القوم ذلك إلى كرامة للشيخ المدفون، على أني لما أنعمت النظر فيهما رأيت بهما كسورًا وصدوعًا هي التي تسمح لأجزاء المآذن أن تتحرك، وفي ظني أنهما ستنهاران لا شك يومًا، وبذلك تنهار تلك الكرامة الموهومة ويثوب القوم إلى عقولهم.

إلى شيراز

قمت صوب شيراز مسيرة خمسمائة كيلومتر تقريبًا قطعناها في شطر من المساء ونهار الخميس كله وسط أرض مغضنة كثيرة الربى، وكلها مجدب عارٍ عن النبت إلا القتاد، وكان جل مسيرنا في وديان جافة أشبه بوادي حوف عندنا، وكم مررنا بحوادث لسيارات انقلبت بمن فيها فأصيبوا جميعًا، وفي الخامسة مساء كنا في قرية «سعادت أباد»، وفيها اضطررنا للمبيت لكي نتمكن من زيارة برسبولس صباحًا، والقرية تشبه القرى المجانبة للجبال في صعيد مصر تمامًا، أو تحكي الواحات، بيوتها وضيعة، ولقد دعانا طبيب الجيش وأحد ضباطه أن نشرب الشاي في ثكنته، فإذا بها خربة متهدمة، دهشت كيف يطيقون البقاء فيها، ولقد آوينا ليلتنا إلى مسافرخانة بسيطة ونمت في «أطاق» زودني الرجل فيه «بسجادة» نمت عليها ليلتي نومًا عميقًا؛ لأني لم أنم الليلة الفائتة، وفي الصباح مررنا بكثيرٍ من الخرائب الأثرية، من بينها مدر سليمان أو قبر سيروز وخرابة كوجاست أو مسكن سيروز، وكلها أطلال لا تستحق الزيارة، وفي التاسعة صباحًا أقبلنا على:

برسبولس

أو بارس اصطخر أو قصر فارس، ويسمونها أحيانًا تخت جمشيد، وقد بدت في حضن الجبل مدينة هائلة بأحجارها المشرفة التي أذكرتني بالكرنك، ويقال: إنها أكبر الآثار القديمة وأفخرها بعد الكرنك عندنا، أقبلنا على درجها الهائل ذات اليمين وذات الشمال فارتقينا بها علوًّا شاهقًا، وكان عدد تلك الدرج مائة وإحدى عشرة بلغ من امتدادها وسهولة مرتقاها أن خبَّرنا القوم بأن الفارس يستطيع ارتقاءها وهو على ظهر جواده. فوقها رأينا بقايا تلك المدينة البائدة التي تخيرها دارا الأول بدء القرن الخامس قبل الميلاد مقرًّا لقصره وسط أخصب بقعة في مقاطعة فارس Fars بدا مدخل قصر دارا وابنه اجزرسيس تتقدمه الثيران ذوات الأجنحة والوجوه الآدمية في علو شاهق، وإلى جانب المدخل بهو المائة عمود وقد تهدمت إلا بقية ضئيلة، وهي من الجير الأبيض البراق نُحت في تجزيع يحكي الأعمدة الإغريقية، وكانت تُتوَّج الأعمدة برءوس الثيران التي تحمل السقف على علو ٦٥ قدمًا، والسقف من خشب الأرز طُعِّم بالنحاس والبرنز والعاج، ولكثرة البرنز ودقة صنعه ظُنَّ أن العصر كان أزهى عصور البرنز جميعًا، وكان خرط السقوف في آيات بينات من الفن، وفي بقايا تلوينه في القطع التي كشفوها من تحت الأنقاض والتي رأيتها في شبه متحف

بقية من أبواب قصر دارا وهي قريبة شبه بأبواب الكرنك.

هناك ما سحرنا وأذكرنا بنقوش الأندلس وقصر الحمراء، حتى ظن البعض أن العرب نقلوا معظم فنهم من قصر اجزرسيس هذا، وإبداع ألوانها ونقوشها مفخرة للشرق على بلاد المغرب وكانت تتدلى على جوانب الأبهاء البسط الثقيلة الفاخرة لتحجب وهج الشمس، ولا شك أن كثرة الأعمدة الباسقة حاكت في زمانها غابة من شجر أبيض ناصع جميل، وثَم قسم من القصر كُشف حديثًا ولا يزال الألمان يظهرون خفاياه، لذلك منعونا أن نرسم صورًا له، ظهرت منه مجموعة درجه كاملة الحفظ في النقش البديع والكتابة المسمارية والدرج مزدوج يمينًا وشمالًا، وبعد قليل ينعرج منعكسًا فاليمين يضحى يسارًا واليسار يمينًا في أبهة وجلال تشعر بعظمة الملك، فكم نظر دارا واجزرسيس وهما جالسان في تلك الجنة استهتارًا بالدنيا وتيهًا على من سواهم من ملوك الأرض. على أني لما رأيت مدخل قصر دارا نفسه وقربه في الشبه من بوابة الكرنك الرئيسية في الأقصر ونظام الأبهاء والأعمدة

المصرية، وأنها دون آثارنا ضخامة وروعة شعرت بشيء من الكبرياء؛ لأنه بدا لي أن القوم نقلوا طرفًا من مدنيتهم عنَّا، وفن تلك البلدة خليط من المصري والأشوري إلى حدٍّ كبير، ومن الإغريقي إلى حدٍّ قليل، واصطخر كانت مقر أبي إسحاق الاصطخري صاحب كتاب «مسالك الممالك»، وهو من أقدم الكتب الجغرافية عند العرب، ويسمونها أحيانًا تشهيل منار، أي ذات العماد.

ندخل شيراز في هوة بين تلك النجاد.

وبعد أن غادرنا برسبولس بنحو ستين كيلومترًا جلها جبال معقدة أشرفنا على شيراز عاصمة مقاطعة فارس، وكانت عاصمة ابن بويه، بدت في وهدة وسط الجبال وعند مدخلها باب قديم فوقه غرفة بها مصحف كريم بخط الإمام علي نفسه، ويتبرك به القوم في غدواتهم وروحاتهم، وشيراز القديمة مجموعة أزقة ضيقة بيوتها بالآجر يتوسطها «البازار» أو السوق كثير الشعاب في أقبيته الفارسية المألوفة وامتداده اللانهائي حتى قيل: إن نصف سكان البلدة من التجار وخمسهم من اليهود. وجل دور الحكومة قصور قديمة شامخة البنيان فاخرة النقوش، أذكر من بينها مكتب البرق والبريد، ومقر الجيش

قصر كأنه القلعة، وقد اختُطَّ خارج القديم قسم من البلد حديث رحب جميل تمتد طرقه الفسيحة إلى الآفاق، وتجانبها مجاري المياه غير أن الخضرة والأشجار نادرة بحيث تبدو البلدة تحت الجبال وكأنها حلوان. واختلاط القوم وازدحامهم الشديد في الطرقات الحديثة وبخاصة عند الأصيل يسترعي النظر وميلهم للمجون كبير رغم أن إزار السيدات هناك من النوع العتيق الذي يحكي ملابس الأفغانيين.

ندخل ذاك «الدرب» الوعر إلى بوشير وشواطئ الخليج الفارسي.

وشيراز تعد خير مراكز العلم والأدب الفارسي، فيها قبر سيبويه، وقد أنبتت كثيرًا من علمائهم وشعرائهم، نخص بالذكر منهم حافظ وسعدي، والأول كان يميل إلى شيء من الزهد والتصوف في شعره ويقول الغزل في الحضرة النبوية على مثال عمر ابن الفارض، أما سعدي فإباحي اشتهر بكثرة المجون والغزل في الغانيات والخمريات، وكان يعده الفقهاء هناك زنديقًا ملحدًا، ولقد زرت مدفنيهما في حجر الجبل فكان مدفن حافظ وسط بناء فاخر حوله شباك الحديد الملون وبه مشرب شاي، كانت جلستي فيه أقرب شيء إلى خيال الشاعر خصوصًا عند الأصيل، وقد أشرفت على شيراز كلها في مشهد ساحر لن أنساه، أما

مدفن سعدي فأقل اتساعًا وأبهة، وهو في مكان ناءٍ عن البلدة، وعجبت إذ رأيت حول مدفنه يوم أن زرته جمعًا من النساء والرجال والصبية مرحين يغنون ويصفقون، فكأنهم كانوا يرددون شيئًا من نزعة الشاعر وما روى.

دار البريد في شيراز وهي من القصور الأرستقراطية القديمة.

إلى بوشير

قمنا في سيارة كبيرة إلى «أبو شهير» مسافة تناهز ثلاثمائة كيلومتر، لبثنا نسير يومين وليلة، استرحناها في قرية كبيرة اسمها كزرون، وكان الطريق جبالًا معقدة بدرجة لم يسبق مثلها، وبخاصة في اليوم الثاني في مكان يسمونه «الدرب»، وليات الطريق وتعقيداتها فوقه تدخل الرعب في قلوب المسافرين، بل والسائقين أنفسهم، فأنت ترى طياتها عشرات بعضها تحت بعض، وهنا تكثر حوادث انقلاب العربات، وقد شاهدت عربة انقلبت قبلنا بيومين ومُزِّقت بمن فيها شر ممزق؛ لذلك يحرم البوليس على السائقين السير ليلًا، وفي الخمسة عشر كيلومترًا الأخيرة خرجنا إلى سهول مبسوطة كلها صحارى مجدبة تمتد برمالها وحصاها إلى شواطئ الخليج الفارسي، وقد مررنا بكثيرٍ من العيون الكبريتية، وفي هذا القسم من فارس رأينا نخيل البلح في بقاعٍ أشبه بالواحات، ولقد أدهشني أن الجبال في الشطر الأول

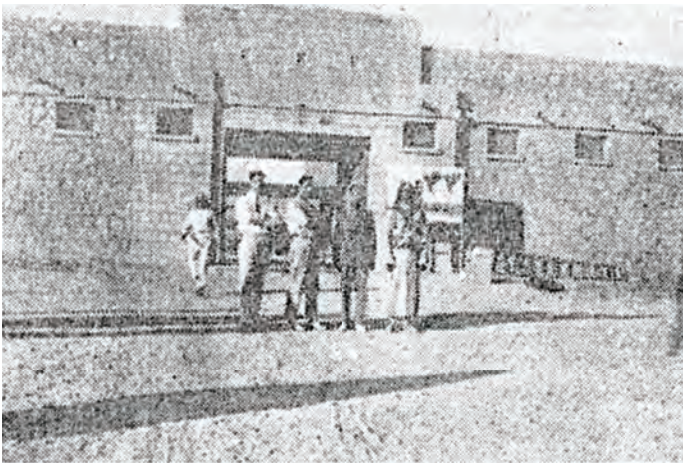

في «الرطبة» وسط البادية بين العراق والشام وليس بها إلا معسكر ونُزُل.

من الطريق مجدبة عارية عن النبت، وفي وسطها وهي أكثر الجبال ارتفاعًا تكسى بالغابات في أشجار كبيرة متفرقة؛ لذلك كنا نرى محاط لحرق الخشب وتحويله إلى فحم يستخدمه الناس في التدفئة، وفي الجزء الأخير في مجاورة «الدرب» انضمر الشجر ثم انعدم، وأضحت الجبال شبيهة بجبال شرق حلوان في جدبها، ويظهر أن ثلوج القسم الأوسط المرتفع هي التي سمحت بنمو الشجر؛ لأنها روته بمصهوراتها التي كنا نراها تتجمع في أودية ضيقة متلوية. أخيرًا دخلنا بوشير في أصيل اليوم الثاني فإذا بها بلدة حقيرة لم أجد بها سوى مهمانخانة قذرة، حجراتها كأنها الأجحار، وطرقات البلدة أزقة، وحرها لافح شديد مع أن الصيف قد انقضى، إذ إني كنت هناك في ١٩ سبتمبر؛ مما أيد عندي أن الإقليم المجانب للخليج الفارسي فاسد الجو، وهو أشد بقاع الأرض حرارة في الصيف. وبالبلدة بعض المقاهي «البلدية» يجلس فيها الناس فوق مقاعد خشبية وطيئة شبيهة «بكرسي المطبخ»، ويتكئون على مناضد لا يزيد علوها عن الأرض على قدم واحدة، فيخيل إلينا أنَّا جلوس على الأرض، وجانب البحر مهمل مترب قذر إلا فيما جاور الجمرك. وأخلاق أهلها أمعن في الفساد والانحطاط. أقمت بها يومًا على مضض، وفي باكورة اليوم التالي سرت إلى الجمرك حيث فُتِّشت أمتعتنا، ثم أقلني زورق بخاري صغير في الخليج الفارسي مسافة سبعة كيلومترات في مياه مضطربة هائجة وجو عاصف أغبر كثر ضبابه ولم تنكشف شمسه، وكم آذى ترنح

الزورق من مسافرين حتى وصلنا الباخرة «فاسنا Vasna» من بواخر شركة الهند الشرقية، وكانت راسية على هذا البعد لا تستطيع أن تقرب من الشاطئ الضحل، وتلك الشركة تسيِّر بواخرها مرتين كل أسبوع بين الهند وبين بلدان الخليج الفارسي السريعة منها Fastmail تمر ببعض الثغور، والبطيئة Slow تمر بها جميعًا، وتقف طويلًا، وباخرتنا حمولتها عشرة آلاف طن، وكانت غاصة بالمسافرين بين هنود وفرس وأعراب، وكانت تحمل وسقًا ثقيلًا من الشاي والسكر والفحم من الهند، وتعود إليها بالبلح والشعير. رسونا في المساء ببلدة صغيرة عند مصب شط العرب تمامًا، وتسمى فاو، وبعدها دخلنا الشط، وفي الصباح وقفنا طويلًا ببلدة عبدان التي ظهرت وكأنها إحدى بلاد لنكشير في مداخنها وضوضاء مصانعها وتنسيق شوارعها ومبانيها التي ما كنت أخالها تقوم في مثل تلك الناحية النائية فاسدة المناخ، لكن هي مقر شركة البترول «النفط» الإنجليزية الفارسية التي تجمع الزيت المستخرج من تلك المنطقة الغنية وتكرره في مصانعها الهائلة، ثم يُشحَن في البواخر، وكنا نرى عددًا من البواخر تُنقَل إليها صفائح البنزين المشحونة على أشرطة تسير بالبخار وترصُّ الصفائح في نظامٍ عجيب، كذلك فهي محطة بترول لتموين السفن بالزيت المحرك لها، وقد ظلت باخرتنا تُزوَّد بحاجتنا من الزيت مدة ساعة بخراطيم هائلة، ويظهر أن حافة هضبة إيران الغربية من قرب بحر الخزر إلى الكردستان إلى الخليج الفارسي مُستمَدٌّ هائل للبترول الذي يكاد يتغلغل في جميع طبقات صخوره بمقادير وفيرة، والشط هنا أكثر اتساعًا من نيل مصر، ويسمونه شط عبدان، وجانبه الشرقي لفارس والغربي للعراق، ويحفُّه النخيل على جانبيه في كثافة كأنها الغابات المغلقة، وبعد أن غادرنا عبدان بثلاث ساعات وصلنا المحمرة، وهي تحكي بوشير في حقارتها، وقد وقفنا بها أربع ساعات نفرغ شحنتنا، ثم قمنا منتصف الثالثة صوب البصرة فوصلناها في ساعتين، وقد سبق أن ذكرنا طرفًا عن إقليمها وعن رحلتنا منها إلى بغداد، وفي باكورة صباح الاثنين ٢٥ سبتمبر قمت في سيارة إلى الشام في رفقة شابين عراقيين مرحين، لم يفترا لحظة عن المزاح طيلة الطريق، وكان معنا شيخ فارسي كان موضع سخريتهما، وقديمًا كانت الكراهة متأصلة بين الشعبين، فكلاهما يمقت الآخر مقتًا، وكان رابعنا سوريًّا مقطب الوجه لا يميل إلى المزاح رغم حداثة سنه، وكان يقود السيارة سائقان يتناوبان السوق؛ لأنا واصلنا السير النهار والليل في غير توقف، وفي ساعتين وصلنا: الفلوجة: وعندها عبرنا الفرات، وفي ساعة أخرى وصلنا الرمادى على حافة الصحراء، وهناك تناولت طعام الإفطار في نُزُل بديع يعادل أحدث الفنادق نظامًا، بعدها أوغلنا في صحراء مبسوطة السطح رملية التربة ليس

بها من حصى ولا نجاد، ولبثنا كذلك إلى الرابعة مساء حين وصلنا الرطبة: في منتصف الطريق (والمسافة كلها ٨٧٠ كيلومترًا)، وهي قلعة عراقية وسط البادية داخلها نُزُل فاخر، وقد قامت حولها بعض الحوانيت والمقاهي الحقيرة تجانبها مجموعة من خيام لأعراب تلك البادية. وهنا محطة لا سلكية ومطار هام. استرحنا زهاء الساعة وتناولنا الطعام الشهي والشاي المنعش الذي أروى ظمأنا، ثم واصلنا السير، وأخذ أديم الصحراء يتغير وانتثر بالحصى وتماوج سطحه قليلًا، وقد مررنا بوادي حيران الوطيء، وعلى مقربة منه دخلنا بادية الشام. خيم الظلام وسادت الوحشة وكان يزيدها رهبة أكداس من عظام لجمال خانها الحظ وبادت، ولا تزال العقبان والنسور تنهش ما تخلف من لحمها، ولم أرَ ظاهرة السراب جلية من قبل جلاءها في هذه الصحراء، فكانت نتوءات الأرض تُرى على بُعد وكأنها أبنية مدينة تنعكس على بريق النقائع الفضية الوهمية التي ملأت الأرجاء بيننا وبينها. واصلنا السير خلال مرح القوم ونكاتهم ومفاخرة السائق بأن تلك الفيافي أضحت مقره، فهو جد خبير بها عليم بما فيها من دقائق، وكانت آثار عجلات السيارات تميز طريقنا بحفائرها في الرمال وبين آونة وأخرى كان يقوم شاخص من شخب طُلي باللونين الأبيض والأسود ليهدي الناس سبيلهم. كانت فترة سكون قصيرة خمدت فيها أصوات الجمع وجنح السائق عن الطريق، ثم باغتنا بوقفة فنزول عن السيارة ونظرة إلى السماء دلتنا على أنه ضل الطريق، فكانت صيحة فزع، وبخاصة من زميلنا الشيخ الفارسي، أعقب ذلك صمت عميق، ثم ظل السائق يحدق في السماء ويتلمس بعض بروج النجوم ليسير على هَدْيتها، لكن بدا لي من معلوماته الخاطئة عن النجوم أنه كان يوهمنا بخبرته ليس غير، والحقيقة أنه كان فَزِعًا مضطربًا هو ورفيقه، ولبثنا نسير بالسيارة يمنة ويسرة زهاء ساعتين في غير طائل، فخشينا أن ينفد البنزين فتكون القاضية، فأجبرناه أن نقف حتى الصباح لعلنا على ضوء الشمس وميلها نهتدي إلى الطريق السوي. صوِّر نفسك في هذا الموقف وليس لديك من زاد ولا ماء وسط بادية مترامية لا ترى بها إلا بقايا عظام لدابة هلكت أو فضلات لسيارة احترقت. صمت رهيب خلنا معه القوم نيامًا، ولكن كيف ينام الضال القلق؟ نزلت أجيل البصر في ذاك السكون الرهيب وتلك السماء التي أخفت خفاف السحب بها بعض النجوم حتى لم يبدُ الدب ولا النجم القطبي، وبينما كان يجول الخاطر فيما عسى أن يجيء به الغد وإذا بشعاعة ضوء كأنها وهج يتحرك بدت قرب الأفق، ثم أخذت تخبو وتظهر، فخلناها سيارة تمر في الطريق، فوَلَّيْنَا شطر تلك الناحية وسرنا نحو خمسة كيلومترات بدون جدوى، فوقفنا ثانية نرقب الآفاق عسانا نتلمس شيئًا، وإذا بضوء مصباح يفاجئنا في ناحية أخرى، فعدنا إليه ويظهر أنه أدرك حيرتنا فوقف وأشعل مصباحيه الكشافين

وظل يثبتهما قبالتنا ونحن نسير إليه، حتى إذا ما قاربناه خجل السائق من موقفه، وخشي إن علم الآخر بضلاله عن الطريق أساء إلى سمعته، خصوصًا وأنه كان يفاخر بأنه ابن تلك الصحراء، وبينا كنا نتأهب لتحية هادينا وشكره وإذا بسائقنا ينعرج عنه كأنه على دراية بالطريق وكأنَّا نحن الذين هدينا صاحبنا الآخر، فكان ذلك جحودًا منَّا يظهر أن السائق الآخر أدركه، فانعرج إلينا وصاح في وجهنا قائلًا: «أنتو ضايعين ولا إيه؟» فكانت صفعة قاسية لزميلنا السائق. تبينَّا بعدُ طريقنا، ولبثنا كلما حاول السائق الشذوذ عنه نعيده إلى حظيرة الحق رغم مكابرته، وحمدنا الله أن أنجانا من خطر محيق، وقد كان حظنا حسنًا؛ لأن اليوم يوم سفر من العراق إلى الشام، كثرت فيه السيارات العابرة، وإلا لما عثرنا على سيارات أخرى في تلك البيداء المترامية المخيفة.

في الخامسة صباحًا دخلنا دمشق بعد أن سرنا أربعًا وعشرين ساعة سيرًا متواصلًا لم يتخلله إلا فترات قهوة عند الحدود، ثم وقفة الحيرة التي ضللنا فيها طريقنا، وبعد جولة وداع قصيرة في دمشق قمنا في سيارة أخرى إلى بيروت مسافة مائة كيلومتر قطعناها في ثلاث ساعات في طرق مرصوفة وسط مزارع جذَّابة، ثم أخذنا نعلو جبال لبنان، وكانت مدن المصايف وقُراها تنتثر على جنباتها في بيوتها الحجرية وسقوفها الحمراء المتحدرة حولها تتموج النجاد يكسوها الشجر في مشاهد ساحرة.

وقد مررنا بصوفر وبحمدون، وعندما وصلنا الذروة وأخذنا ننزل الصفحة الغربية كانت المناظر أبهى وأروع، وبدت بيروت مبسوطة في زائدة من الأرض ناتئة وسط مياه البحر الأبيض الذي امتد إلى الآفاق حتى اتصل ضبابه بسحاب السماء، وقبيل دخولنا بيروت رأينا «علية» من خير مصايف لبنان، ثم تجلت بيروت ثغرًا خفيف الروح جيد الطرق نظيفًا يحكي جانبًا من الإسكندرية، إلا أن جوَّه كان أميل إلى الحرارة، وهواؤه راكد رطب، هنا نال مني الجوع فآويت إلى مطعم وطني أكلنا به قديدًا «شورمه» من لحم شوي على سفود «سيخ» يدور ومن حوله وهج النار، وكلما نضجت طبقة منه أزالها الرجل بالمشرط وقدمها إلى وسط خضرة من النعناع، وإلى جانب ذلك طبق من «الحمص» سحق في الزيت والبهار، فكان شهيًّا لذيذًا. فقمت بعد الظهر في سيارة إلى حيفا: مسافة (١٦٠كم) في خمس ساعات ونصف في طريق يجانب البحر، ولم يتخللها وقوف إلا عند الحدود زهاء نصف ساعة، وقد مررنا من ثغور سوريا الهامة على: صيدا وكانت عاصمة مملكة كنعان، ثم صور، ومن ثغور فلسطين على عكا، وقد كنت أخالها تقوم على ربوة منيعة، لكني ألفيتها مبسوطة السطح ولم تشعرني بالمنعة التي قرأنا عنها أيام صلاح الدين ونابليون، وعلمنا أن بها قبر

الميدان الرئيسي في بيروت.

نبي الله صالح، وفي المساء كنا في حيفا: وهي مدينة يبدو على مبانيها القدم والإهمال، إلا أن الإنجليز بدءوا يعبِّدون طرقها ويصلحون ميناءها في أرصفة هائلة ستجعلها من الثغور الرئيسية، ويظهر أنهم يميلون إلى اتخاذها قاعدة حربية للجيوش والأساطيل والمطارات، ومن ورائها يقوم جبل الكرمل الذي أخذت المباني المستحدثة تقوم على مدرجاته، وفوق سطحه المبسوط وهو هناك الحي الأرستقراطي وجل ملَّاكه من اليهود. وهنا بدء سكة الحديد إلى الجنوب، وللبلدة محطتان، محطة حيفا ومحطة الكرمل. قمت عائدًا إلى بلدنا العزيز في قطار الصباح، فكان جل الطريق يجانب البحر في سهول زراعية، ثم أخذت الأرض تتغضن وكثرت بها منابت الفاكهة، وبعد غزة سادت الرمال وكثبانها الناعمة إلى الآفاق، ولما دخلنا الحدود المصرية زادت كثافة، وحف النخيل شاطئ البحر كله، وقد لبثنا بجانبه طويلًا، ثم أوغلنا في طور سيناء حتى دخلنا القنطرة مساء.

تمت الجولة بعون الله.

هنـــداوي